مبكى العشاق

في موكب الهوى

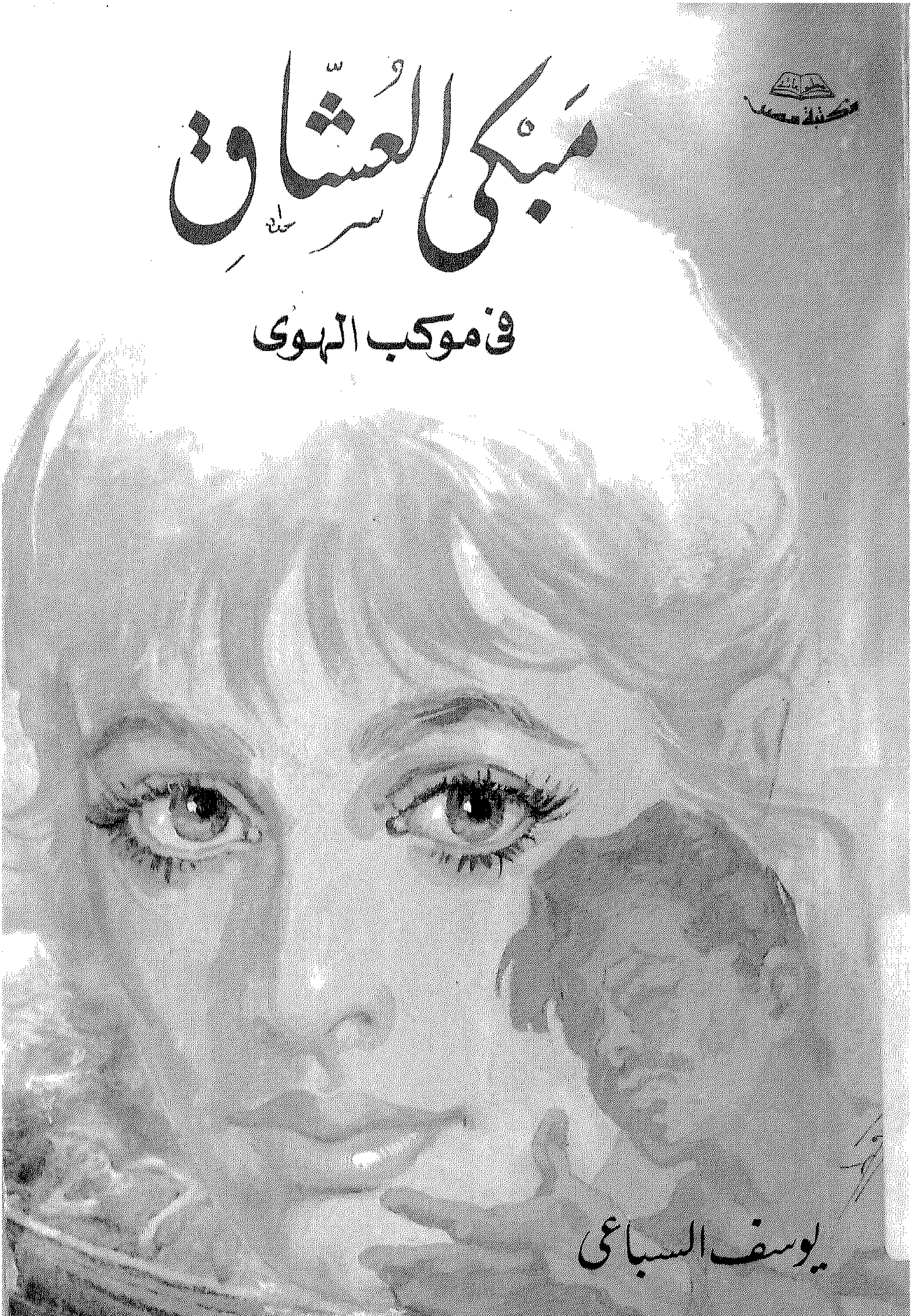

يوسف السباعي

مؤلفات
يوسف السباعى

قصص
قصيرة

■ مبكى العشاق

■ فى موكب الهوى

مبكى العشاق

الإهداء

إلى كل مقلة ذابلة وجفن مقروح
إلى كل ساهر جفاه المرقد
مسهد نبا به المضجع
إلى كل مكروب يزفر وجدا
ملتاع يلهث جوى
إلى كل عاشق باك
أهدى مبكى العشاق
ليجد ما يسكب فيه دمعة ويريق عبراته

« يوسف السباعى »

مقدمة

لا تسقنـــى ماء الملام فإننـــى
صب قد استعذبت ماء بكـــائى

أحقا بكاء الصبابة عذب ؟

أذكر أننى عشقت فتاة ما رأيتها مرة إلا وأحسست بميل شديد إلى البكاء .

كنت أعشقها من بعيد .. دون أن آمل منها فى أى شىء .. لا حب ولا وصل ولا لقاء .. بل إن مجرد رؤيتها كانت أمرا متعذرا فما كنت أراها إلا فى فترات متباعدة . ولكنى مع ذلك لم أكف عن حبها .. ولم تصدنى عنها تلك الحواجز القائمة بيننا من اليأس والبعد والحرمان .. بل استمررت أحبها .. واستمرت تصيبنى من رؤيتها نشوة العشاق الممتعة واضطرابهم اللذيذ .. ولكنها نشوة مصحوبة بذلك الميل إلى البكاء .. والرغبة فى أن أضع وجهى فى صدرها وأغرقه بالدموع .. كأنى طفل باك موجع .

لم كانت هذه الرغبة فى البكاء ؟

أهو الإحساس بوطأة اليأس الذى يرزح تحته ذلك الحب العجيب ؟ أم هو الشعور بالحرمان الذى تثيره رؤيتى لها ؟

أم ترى نشوة العشاق تندى مآقيهم وتهيج مدامعهم ؟

وأن للبكاء نشوة وأنى ككل صب . « قد استعذبت ماء بكائى » ؟ أيا كان سبب ميلى إلى البكاء .. فلا شك أن الدموع دائما تصحب الحب .. ولا شك أن أكثر الناس ميلا إلى البكاء هم العشاق .

إن الحب يرهف الحس ويرقق المشاعر ويترك النفوس والهة والقلوب ذائبة تؤثر فيها كل سانحة بارحة . وتبكيها كل ورقاء هتوف .. ويهيج شجنها كل بلبل صداح وحمامة نائحة .

وإن أشهر قصص الحب : مآسي تثير المدامع .. ولا أظنها قد خلدت على الدهر إلا لما بها من حزن ولوعة .. فالهوى البائس الباكى أبقى على الزمن . وفيه يتلمس العشاق عزاءهم.. ويجدون صورة من أحزانهم ولوعتهم .

وقد ضمنت كتابى هذا قصصا يجملها الهوى المستعر الملتاع ، أقدمها للعشاق — وكلنا عشاق — علهم يجدون فيها بعض العزاء ويسكبون بعض الدموع .

ولقد كنت أسبقهم إلى البكاء فى مبكى العشاق .

إن فى البكاء نشوة .

والدموع ضريبة الحب يدفعها العاشق راضيا مختارا منشدا مع الشريف الرضى .

الماء عنـــدك مبـــذول لشاربـــه   وليس يرويك إلا مدمعى الباكى

« يوسف السباعى »

أريد الحياة

هذه قصة امرأة تريد الحياة .
تريدها لأنها تحب وتحب .
ولقد تمنيت عندما سمعتها أن أهبها نصف عمرى لتعيش به .

ما الحياة ؟ وبم يقاس عمر الإنسان فيها ؟

أيقاس بالأيام والسنين التى تمر بنا ونحن على قيد الحياة نتنفس ونتحرك ؟ ونظهر بمظاهر الكائنات الحية ؟

أيقاس عمرنا بتلك الفترة من الأعوام التى نقضيها فى الأرض منذ نخرج إليها إلى أن نثوى فى باطنها ؟ أيقاس العمر بفترة من الزمن ؟ أم بعدد من الأحداث والمتع ؟

أيهما أطول عمرا وأكثر وجودا فى الحياة : إنسان يعيش مائة عام جوفاء خالية . أم إنسان يعيش بضعة أعوام حافلة زاخرة ؟

أيهما أكثر ربحا من الأرض : طاوى السنين فى صحراء جرداء قاحلة مقفرة ، لا ماء فيها ولا رواء ولا ظل ولا ثمر بل ملل وسآمة وفراغ وعدم ؟ . أم عابر روضة فيحاء مورقة ناضرة لا يجاوزها إلا وقد أطفأ من مائها غلته وأشبع من ثمارها نهمه ؟

أيهما أقر عينا وأنعم بالا : طاوى الصحراء أم عابر الروضة ؟

كم طافت بذهنى المكدود هذه الأسئلة ، وكم حمل الجواب إلى نفسى عزاء بدد منها اليأس ورفع عنها الخور والضعف .

آجل .. وماذا أريد بطول العمر ؟ وماذا أبغى من تلك السنين الطوال ؟ ماذا يضيرنى أن تكون أيامى فى الحياة معدودات ، ما دمت قد جعلت من

نفسي فيها عابرة روضة مليئة بالمتع والملذات ؟

ماذا يضيرني ما دامت نفسي لن ينتهي بها الأمل إلا وقد عبت من اللذات أقصى ما يستطيعه إنسان ؟

ماذا أخشى من قرب النهاية ، ما دمت سأجني في أيام قصار ، متع الأعوام الطوال ؟

كيف أخاف قصر الأجل ، ما دام العمر لا يقاس بفترة زمن ، بل بعدد من المتع . إنني أستطيع أن أنال من المتع في أجلي القصير ما يعجز غيري الحصول عليه في آجال طويلة !

* * *

أنا إنسانة محدودة الأجل ، إنسانة مريضة بذات الرئة ، أعرف تماما أني أقف على عتبة الموت ، وأن بيني وبين النهاية خطوات معدودات !

هل تدركون معنى أن يحس الإنسان الذي يموت أنه سيموت ؟

هل تستطيعون أن تتصوروا كيف ينظر المرء إلى الحياة وهو يعلم أنه خارج منها بعد هنيهات قصار ؟

لا أظن ! فهذه أحاسيس من الصعب تصورها ، أحاسيس لا يدركها إلا من مسه الضر فعلا .

إني لأذكر كيف عرفت جلية الأمر ، وكيف كان وقعه في نفسي أول مرة .

* * *

أنا مريضة بالسل !

لم أصدق نفسي بادئ الأمر . لقد شاهدت في المسرح وقرأت في الكتب كثيرا عن مريضات بالسل . وكان يبدو لي إذ ذاك أن تلك المآسي لا تحدث إلا في الروايات وأنها تختلق لكي يحرك بها الكتاب نفوس النظارة والقراء . ثم سمعت بعد ذلك عن امرأة نعرفها أصيبت بالسل ، فتملكني الجزع ، وكنت أنظر إليها في ذعر كنظرتي إلى ميت يتحرك ، وأحس برعدة في جسدي كلما ذكرتها .

تلكُ هى كل علاقتى بهذا المرض قبل أن أقع فريسة له . فقد كنت فتاة غريرة مدللة مرفهة . موفورة الصحة ، لا تبدو عليها مقدمات مرض ولا بوادر سقم ، اللهم إلا رقة فى الجسد ونحول طبيعى لا يثير الشكوك .

كنت فتاة ملأ نفسها الأمل ، وملأت ذهنها الأمانى العذاب الطوال العراض التى لا حد لها ولا نهاية . فتاة وهبها القدر كل ما تشتهيه الفتيات . وحيدة أب جم الثراء ، لا هم له إلا إرضائى وإسعادى .

كنت أرى الحياة مرتعا خصبا ، لا تلوح فيها بادرة حرمان ، ولا يخشى أن ينضب لها معين أو يجف نبع . بل كل ما فيها يتدفق بالرضاء والهناء .

تصوروا بعد كل هذا أننى وجدت نفسى الغريرة الحسنة الظن بالحياة ، وقد أصيبت بالسل !

* * *

بدأ الأمر فى يوم شعرت خلاله ببعض التعب ، وانتابنى سعال خفيف انتهى بأن بصقت دما .

ولم أنزعج ، ولم يصبنى أقل ذعر ، فقد كان المرض المخيف أبعد ما يكون عن ذهنى . وكنت أعتقد أن الأمر لا يزيد على جرح أو خدش فى الفم .

حتى رآنى أبى .. فبدا إلىّ كأنما قد سدِّد إلى صدره سهم مسموم ، وأذهلنى ذلك الجزع الذى أصابه !

كان هو أدرى منى بما حدث . فلقد كانت تلك هى الطعنة الثانية التى يسددها إليه القدر . أما الأولى فكانت حين أصيبت أمى وهى فى ريعان شبابها بذلك الداء الخبيث !

وحاول أبى بعد ذلك أن يسيطر على نفسه ويكبت جزعه ويخفى مخاوفه . ولم أكن حتى ذلك الوقت قد استطعت أن أتبين حقيقة ما بى ، فقد كنت أجهل أن أمى ماتت بذلك الداء ، فعللت ارتياع أبى وفرط خشيته علىّ بفرط حنانه وحبه وعطفه على وحيدته فى الحياة .

وأمرت بالرقاد والراحة ، وتوالى على الأطباء . وبدا لى من جو التوتر الذى أحطت

به أن الأمر أخطر مما أظن وخيل إلىّ من ذلك الهزال الذى أصاب أبى أنه يعانى قلقا شديدا . وأن الأيام القليلة الأخيرة التى تلت ذلك قد فعلت به ما لم تفعله عشرات السنين .

ومرت الأيام . وبدأت أستشعر من وجوه الأطباء ومن همساتهم أنه لم يبق هناك أمل ولا فائدة من العلاج !

ولم يكن هناك شك فى أن أبى قد أدرك ذلك أيضا ، فقد صرعته الصدمة ، وألقت به طريح الفراش فاقد الوعى !

وبعد بضعة أيام ، فارق الحياة !

* * *

وهكذا تركنى أبى وأنا فى شبه ذهول من أثر الضربة القاصمة التى نزلت بى ، لا أكاد أستبين موقفى فى الحياة .

ثم أخذت أفيق لنفسى شيئا فشيئا ، فإذا بى أرانى فى موقف عجيب !

لقد وهبتنى الحياة كل متاعها ، إلا شيئين : العمر ، والحب !

وجدت نفسى فى مطلع الصبا ، ذات جمال ، ومال . أملك القصور والضياع ، وعندى الخدم والأتباع وأستطيع أن أفعل كل ما أريد وأجلب لنفسى كل ما أشتهى ، إلا شيئين : بضع سنين من العمر ، وبضع نفحات من الحب !

كنت أعرف أن الشفاء لا أمل فيه ، وأن كل ذلك الجهد الذى يبذله الأطباء لا غرض منه إلا تأجيل النهاية المحتومة !

يا للغباء ! ويا للحمق ! أى جنون هذا الذى أفعله . أأضع ما تبقى لى من عمر ، فى قيود الأدوية والعلاج والنظم الثقيلة ؟ فأعيش إن عشت وأنا والأموات سواء ؟

أأنفق العمر القصير فى مضجع داجى الظلام ، طمعا فى بضعة أيام أقضيها فى نفس المضجع ؟ أأحرم نفسى من متع الحياة لأستزيد من حياة كأنها العدم ؟

وبدأ السؤال يطوف بذهنى المكدود ويطرق نفسى الحائرة :

ما الحياة ؟ .. وبم يقاس عمر المرء فيها ؟

أيقاس العمر بفترة الزمن التي يقضيها الإنسان حيا ، أم بعدد المتع التى يستطيع الحصول عليها ؟

ووصل إلىّ الجواب يحمل العزاء والسلوان .

لا تضق همًا بأمس وغـــــد أمس ولى ، وغـــد : لم يولـــد !

ويلتـــا إن ضاع يومـــى من يدى

أجل . إن يومى ملء يدى ، فويلتا إن ضاع منها ومضى !

إنى وحيدة فى الحياة ، ولا أمل فى حب إنسان ، ولا أثق فى حب إنسان ! أى أحمق يقدم على حب مخلوقة مصدورة على خطوة من الموت أو خطوات ؟ ماذا أرجو من الحياة بعد ذلك أكثر من أن أشبع من لذاتها نهمى ، وأعب من متعها ما استطعت ؟

لقد وجدت نفسى محرومة ولم تبق أمامى إلا لحظات خاطفة سريعة الزوال ، فمن الجنون أن أتركها تمر ، وأنا مستسلمة لذلك الحرمان ؟

وألحت الأفكار على نفسى التعسة الحائرة ووجدت هاتف الموت يصيح بى : اتركى الفراش ، فرى من هؤلاء الأطباء الحمقى المجانين الذين يضيقون عليك الخناق ، لا تدعى بقية العمر تذهب سدى ، ماذا تخشين وأنت لا بد ميتة ؟ انطلقى . انطلقى !

وهكذا استقر بى الرأى على أن أستمتع بما تبقى لى من عمر ، وألا أخرج من الحياة إلا وقد أفرغت كأسها فى جوفى حتى الثمالة !

لقد صممت على أن أتحدى القدر ، ولا أطأطىء له رأسى . إذا كان قد أبى علىّ الحياة فلماذا لا أنتزع منه متعة الحياة ؟ وإذا كان قد حرمنى لذة السنين الطوال ، فلماذا لا أستخلصها كلها من براثنه فى ليال قصار .

أيها القدر الغشوم : إنى الرابحة فى النهاية .. وسأعرف كيف أسخر منك أيها الساخر الشامت . فما عاد بى من طمع إلى طى السنين فى صحرائك القاحلة ،

وحسبى هنيهات خاطفة أقضيها عبر الرياض ذوات الأفنان والثمار !

* * *

وانطلقت فى الحياة انطلاقة عجيبة ! وما أحسب أن من السهل أن أصف نفسى أو مشاعرى خلالها .

ترى كيف كنت وقتذاك ؟

هل تستطيعون أن تتصوروا إنسانة فاقدة الوعى منهكة القوى مبهورة الأنفاس محطمة الأعصاب ، تعدو ، وتعدو ، وتعدو . لا تهدأ ولا تستريح . لا تحس حولها إلا بأشباح ضاجة صاخبة ، ولا تبصر أمامها إلا فوهة فاغرة لقبر قاتم الظلمات ؟

كان أول ما فعلت أن استغنيت عن الأطباء ، وحطمت تلك القيود التى كبلونى بها ، وأنبأتهم بأنى سأسافر للعلاج فى الخارج ، ثم حولت كل ما أملك إلى نقود يسهل علىّ صرفها . وبدأت رحلتى إلى الخارج فعلا . ولكن لا للعلاج بل للانهماك فى كل متعة تحرم على مخلوقة مثلى .

وأخذت أنتقل من بلدة إلى بلدة . أبعثر الأموال بغير حساب ، لا هم لى إلا أن أمتع نفسى بلا قيد ولا حد . لقد ركلت العقل والتقاليد ، وجردت نفسى من كل شيء إلا الرغبة فى المتعة . واندفعت فى استهتار وجنون أفعل كل ما يحلو لامرأة مطلقة السراح ، وفيرة الثراء .. لا يعوقها عائق ولا يقف فى سبيل شيطانها حائل !

لقد شربت حتى ثملت ، وغنيت ورقصت ، وتقلبت فى نعيم القبلات والعناق .. ولكن : أى نعيم هو ذاك ؟

أية متعة تلك يمكن أن تصيبها حطبة جامدة الحس فاقدة الشعور ؟

كلا ! .. إننى لم أستشعر أية متعة فى كل ما فعلت . ومع ذلك ظللت أندفع فيه بلا تفكير !

وكأنما اشتدت اللهفة على الخلاص من الحياة ، فرحت أستحث النهاية

وأتعجل الموت !

لقد بدت لى الحياة كريهة بغيضة ، ولم أجد سببا يحملنى على التعلق بها . حتى اللذات والمتعات التى ظننت أنى أستطيع أن أسترقها قبل الرحيل ، بدت لى زائفة تافهة !

أتدرون ما يحملنا على التعلق بالحياة ؟.. أتعرفون ماذا يشدنا إليها ويخيفنا من الخروج منها .

إنه شيء واحد : هو صلتنا بمن حولنا . هو حبهم لنا ، وحبنا لهم !

إننا نحب الحياة لأننا نحب من فيها ويحبنا من فيها !

إننا نكره أن نغادرها لأننا نخشى ألم الفرقة ومرارتها !

سلوا الأب : لماذا يخشى الموت ؟ يجبكم بأنه يخشاه لأنه يحب أولاده !

سلوا الأم : لماذا تفزعها النهاية تجبكم بأنها تفزع من أن تحرم فلذات كبدها .

سلوا المحب : لماذا يحب الحياة ؟ يجبكم بأنه يكره أن يفارق من يحبهم فى الحياة !

وأنا : ماذا يخيفنى من الموت ويحبب إلى الحياة ؟ .. لا شيء .

إننى لا تربطنى بإنسان ما فى الحياة سوى صلة النفع والمادة .

كلا .. أنا لا أريد الحياة .. لا أريد حياة ليس فيها قلب يخفق لى ، ولا صدر يحنو على ولا عين تبكى من أجلى !

لقد حاولت بالمال أن أبتاع متع الحياة ، فوجدتها متعا زائفة باطلة ، ووجدتنى فى حاجة إلى شيء واحد هو الذى يستطيع أن يشد أزرى ويعيننى فى البأساء : هو قلب محب !

ولكنى للأسف لم أستطع ابتياعه .. وأسوأ ما فى الحياة أن الإنسان لا يستطيع ابتياع الحب .. الحب الذى هو ألزم له من الماء والهواء !

وهكذا استمررت فى إغراق الجنونى وإفراطى اليائس ، حتى أحسست أنى قد شارفت النهاية ، وأصبحت حطاما باليا ولم يبق لى سوى أن أرقد وأنتظر

الموت .

وبدأت أعود أدراجى إلى الوطن ، فقد شعرت بالحنين إليه والرغبة فى أن أموت بأرضه !

* * *

وسارت الباخرة تمخر بى عباب اليم وقد تملكنى من فرط الضعف والتعب ما أشعرنى بأنى أرقد فى نعش يحملنى إلى مثواى الأخير !

ولم أعد أحس حزنا ولا ألما ولا يأسا .

إننى لا أريد الحياة ، وهى الأخرى لا تريدنى ! .. ولقد هيأت نفسى تماما للخروج منها ، ولم يبق إلا أن تصل السفينة فأصل إلى شاطئ الفناء .

هذا كل ما أردته من القدر . نهاية صامتة ساكنة ، فهل تراه قد وهبنى ما أردت ؟

متى كان القدر يهب الإنسان ما يريد ؟ لقد بخل على حتى بهذه النهاية البسيطة !

وخيل إلى أنه يهتف بى ساخرا قائلا : « لن أتركك تذهبين هكذا بسهولة أيتها الحمقاء » !

وكأنما بعثتنى سخريته ، ونفخت فى روحا جديدة ، فإذا بى أتعلق مرة أخرى بخيوط الحياة ، بعد أن زهدت فيها وأعددت نفسى للخروج منها !

* * *

فى منتصف ذات ليلة ، كنت مضطجعة على مقعد طويل فوق ظهر السفينة ، وقد سادت وحشة رهيبة واشتدت حلكة الظلام فلم أعد أبصر سوى نجوم تضاءل بريقها ، ولا أسمع سوى عصف الرياح وزمجرة البحر وأنين محركات الباخرة الخافت الرتيب .

وأخذتنى نوبة سعال حادة ، وأحسست أنها تكاد تودى بالبقية الباقية منى ، وارتميت على أثرها مبهورة الأنفاس ، خائرة القوى . فلما أفقت أحسست يدا

تمسح على جبينى فى رفق وحنو ، وسمعت صوتا يهمس بى فى رقة :

ــ ماذا بك ؟

ولم أجد داعيا لأن أقول لذلك الغريب ماذا بى . وماذا يملك هو أو غيره لينقذنى مما بى ؟

وهكذا ما كدت أفتح جفنى المثقلين حتى أغمضتهما وأطبقت شفتى من جديد مستسلمة لما اعتقدت موقنة أنه النزع الأخير !

وأفقت مرة أخرى ، فإذا بى أشعر وأنا مازلت فى شبه غيبوبة بأن ذلك الغريب نفسه يحملنى بين ذراعيه فى حنان .

وفى الصباح استيقظت على صوت طرقات خفيفة ، ثم لمحت وجهه يطل من الباب ، فما أن أدرك أننى أفقت حتى وقف متهلل الأسارير ، وقال فى صوت رقيق .

ــ لعلك بخير الآن ؟

وتذكرت ذلك الوجه ، فقد لفت نظرى قبل ذلك مرات على ظهر السفينة . وجاهدت لكى أجيب : « شكرا لله ولك ! » .

ولبث لحظة واقفا صامتا ، حتى أومأت إليه بأن يجلس فاقترب من سريرى ، واستأنف حديثه باللهجة الرقيقة نفسها ، فواسانى بكلمات لطيفة مشجعة ، ثم عرفنى بأنه طبيب عائد من بعثة طويلة فى إنجلترا . وتفضل فأمضى فى تمريضى والترفيه عنى أكثر ذلك النهار .

وفى المساء كنت قد شعرت بغير قليل من التحسن فغادرت حجرتى ، وجلست فى المكان الذى تعودت الجلوس فيه . وسرعان ما رأيته مقبلا فحيانى وجلس بجانبى وهو يهمس قائلا :

ــ إن الجو رطب ، ويحسن أن تعودى إلى حجرتك ..

وكدت أقهقه ساخرة ثم أجيبه قائلة : « أنا الغريق فما خوفى من البلل » . ولكنى أجبته قائلة :

— شكرا ،. لن أطيل الجلوس هنا أكثر من دقائق .

وعاد هو يقول :

— لا ، لا ، إما أن تعودى الآن ، وإما فاسمحى لى أن أضع سترتى على كتفيك .

ولم ينتظر إجابتى ، بل قرن القول بالعمل فنزع سترته ولف بها كتفى . ثم راح يحدثنى . وأنا أشعر بارتياح يشوبه الأسف ، إزاء صوته الرقيق الحنون ونظراته المليئة بالإخلاص .

لقد أحسست أنى أندفع نحوه كشهاب يهوى ، وبت أخشى أن أجد فيه ذلك الشيء الذى طالما افتقدته. الشيء الذى يستحق أن يعيش الإنسان من أجله ، ويجعلنا نتعلق بالحياة !

أجل ، لقد أوجست منه خيفة لأنه قد يجعلنى أريد الحياة !

وأوصلنى إلى حجرتى بعد قليل ، ولم يتركنى حتى اطمأن إلى أننى بخير .

وفى اليوم التالى زادت ملازمته لى ، فجاء وصحبنى إلى مجلسنا بالأمس ، وراح يقول :

— إن خير ما يحصل عليه الإنسان فى هذه الحياة .. شريك يعينه على حمل أعبائها !

وسارعت إلى الإجابة قائلة :

— أجل .. ما من شك فى ذلك .

وندمت على تسرعى ، إذ استأنف حديثه يقول :

— ولكن هل من العسير علينا أن نجد الشريك الملائم ، الشريك الذى خلق من أجلنا وخلقنا من أجله ، أو ما يسمونه النصف الآخر ؟

وأطرقت برأسى ، وشعرت بدقات قلبى تشتد وتسرع .. وعاد وهو يتمم حديثه قائلا :

— إنهما قد يلتقيان ، ولا تعود هناك قوة تستطيع التفرقة بينهما .

ووجدتنى أردد قوله كأنما أحدث نفسى :

ــ قد يلتقيان ..

وعاد هو يهمس فى صوت عميق يخرج من حنايا صدره :

ــ كما التقينا .

ومضيت أنا على غير إرادة منى أردد عبارته « ولا تعود هناك قوة تفرق بينهما » . ثم أردفت قائلة : « إلا قوة واحدة » .

ومضت لحظة صمت فيها كلانا حتى عدت أتمم حديثى فقلت :

ــ تلك هى قوة الموت .

وهنا نهض من مجلسه ، وربت على كتفى فى حنو قائلا :

ــ لا تتحدثى عن الموت .. تحدثى عن الحياة والحب والأمل !

وهززت رأسى فى يأس ، ثم نظرت إليه نظرة شكر عميقة وقلت :

ــ إننى مع الأسف لا أصلح لأن أكون نصفا لأحد إلى مخلوقة فانية .. لقد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النهاية !

وبدأت أقص عليه قصتى البائسة ، ومضى هو يصغى ويحاول بكل براعته ورقته أن ينحى عنى أشباح اليأس والظلام .

ولست أدرى كم من الوقت مضى ونحن فى ذلك الحديث . ولكن لحظة الصمت التى أعقبت ذلك الحديث ، لم تطل إذ أحسست بيده تضغط يدى فى رفق ، ثم رفعها إلى شفتيه وشعرت بقطرات من دمع تبللها وسمعته يهمس :

ــ ماذا فعلت بنفسك .. كيف أقدمت على كل هذا ؟

ــ ليس هناك ما يستدعى الندم ، لم يكن هناك مفر من النهاية . لقد كانت آتية لا ريب فيها . فسلكت إليها أقصر الطرق .. لقد فقدت الأمل ولن يعود !

وسارع إلى قطع حديثى قائلا :

ــ من قال هذا ؟ من يجسر أن يقول إنه ليس هناك أمل . أليس فى السماء إلـٰه رؤوف رحيم ؟ .. كيف يستطيع مخلوق أن يفقد الرجاء ويحكم بنهاية الحياة ؟

ثم ضمني إلى صدره فى رفق ، وهتف بى فى صوت ملؤه الحرارة والإيمان :

— لن تموتى ! ستبقين من أجلى ومن أجل نفسك ! أنت تستحقين الحياة ولا بد من الحياة !

* * *

أجل .. إنى أستحق الحياة . ولا بد لى من الحياة .. ألم أشعر بالحياة تسرى فى جسدى كله وهو يضمنى إلى صدره ويهتف بى :

« إنى أريدك » .

إنى أريد الحياة ، أريدها كما لم أردها من قبل ، وكما لم يردها أى إنسان .. أريدها بكل قواى !

أريدها لأنى أحب وأحب .

ألا يكفى هذا سببا لكى يريد أى إنسان الحياة ؟.. فما بالكم بإنسانة محرومة لم تذق الحب قط ؟!

وعدنا إلى اليابسة فأنزلنى فى أحد المستشفيات ، وفرض على أوامره فرضا فقد أصر على أن ينتزعنى من براثن الموت .

إن الأيام تمر وهو لا يفارقنى لحظة فقد بت أنا كل شغله فى هذه الحياة .

ما أجمل أن يجد الإنسان إنسانا يحبه لنفسه ويضحى براحته وبكل ماله من أجله ، دون أن يسأله مقابلا !

هل يمكن أن يطمع الإنسان من الحياة فى أكثر من ذلك ؟ وهل هناك ما يوهب للإنسان أثمن من الحب ؟

أجل .. إننى أريد الحياة ، فأنا أكره أن يحرمنى الموت مما أنا فيه من متعة .. أريد أن أبقى للحب !

* * *

هذه هى قصة الفتاة التى أرادت الحياة ، فكيف كانت خاتمتها ؟

لقد تمنيت — كما قلت لكم — أن أهبها نصف عمرى لتعيش به . وتتمتع بحياتها وبحبها . ولكن هل يسمح لنا القدر بأن نوزع أعمارنا حسبما نشاء ؟

لو فعل ، لانمحت من الدنيا المآسى ، وعم الهناء .

ولكن ماذا يمنعها من أن تعيش ؟

أهو حكم الداء ، واستفحال العلة ؟

ولكن الحب ، وما فى الحب من إيمان وأمل ، ألا يعاونها هذا على مناضلة الداء ؟

وهذا الطبيب العاشق المؤمن المكافح : ألا يستطيع أن ينتصر على المرض وينتزعها لنفسه من بين براثن الموت ؟

ثم أمر آخر كدت أنساه : ألست أنا صاحب القصة وخالق بطليها والمتصرف فى مصيرهما ؟

إن المرأة تريد الحياة ، وهى عندى تستحق الحياة . لذلك سأهبها الحياة !

سكينة

أستعان بالله وملائكته ورسله وبذكرى زوجه الراحلة .. وبمركزه كرجل محترم .. وبكل شيء يمكن أن يخطر على البال .. ولكن الصدر المكتنز المتأرجح داخل القميص المبتل وباطن الفخذين الأملس اللين الدافئ .. كان أشد فتكا وأمضى سلاحا ..

أيمكن أن يكون ذلك حقيقة ؟

أبمثل هذه السرعة ينتهى كل شيء ..؟

إن المسألة كلها تبدو له كحلم مزعج أو كابوس مخيف فمن العسير عليه أن يقتنع بأن ما حدث كان من الواقع فى شيء . وأنه يعود إلى الدار وحده بعد أن شيعها « لنوى لا يرتجى منها ارتجاع » .

إنه موقن تمام اليقين أنه سيجدها فى الدار .. وأن صوتها سيعلو فى غضب مستحب سائلة إياه عن سبب تأخيره وهل أحضر لها ما طلبته أم نسى كعادته . ثم تبدأ فى قص نوادر نبيل وتصحبه إلى فراشه الصغير حيث يقفان يتأملانه معا ..

إن الموت أمر من العسير قبوله أو التسليم به . أفى لحظة يكون أحباؤنا ملء أبصارنا وملء أسماعنا .. وفى اللحظة التالية يصبحون وكأنهم « شعل البرق خبت بعد التماع » .. !

لقد قضى يومه وكأنه فى غيبوبة .. يذهب ويجيء .. وينظر ويسمع ويتكلم وكأنه ليس هو .. وكأن الأمر لا يعنيه .. والمصاب ليس بمصابه . والميت غريب عنه . وكأنه مجرد مشاهد يرقب مسرحية ..

كان مأخوذا مشدوها .. لم يبك ولم يصرخ . فقد رفض ذهنه أن يقبل فكرة موتها وما يعقبه من فرقة أليمة مريرة . لقد جمدت مشاعره وتبلد حسه . ولم

يحاول قط أن يفكر فى أن الميتة هى هى .. ولا أن يتصور أن هذا النعش الذى يتحرك أمامه قد طوى جسدها الغض .. وأن هؤلاء المشيعين المعزين قد أقبلوا لتعزيته هو . ومن أجلها هى .. كل هذا لم يحاول أن يتصوره أو يفكر فيه .. بل كان يرمقه فى صمت وجمود .. منتظرا أن ينتهى هذا المشهد الكريه .. وينتهى هو من تأدية دوره فى استقبال الوفود والشد على أيديهم .. منتظرا أن يصمت هذا الفقيه وتطفأ هذه المصابيح ويهدم هذا السرادق حتى يعود إليها لتستقبله فى غضبها اللذيذ وتسأله لم تتأخر . وتمد ذراعيها لتحيط بهما عنقه وتطبع على فمه قبلتها الحلوة ..

كان ينتظر أن يستيقظ ليجدها بجواره وينبئها عن هذا الحلم البغيض .. ولكن لا .. لا .. إنه لن ينبئها . فهو يكره أن يمس نفسها حزن أو يصيبها ضيق . لن يحدثها قط عن هذا الكابوس المخيف ..

والآن وقد صمت صوت الفقيه وانفض الجمع وأزيل السرادق وعمت الظلمة .. ما باله يجد نفسه ما زال مستيقظا .. يتحرك على ساقيه ويشعر ببرودة الجو من حوله .، ؟ ما باله يطرق الباب فلا يجيبه سوى صوت سكينة الخادمة .. ؟

أيمكن أن يكون حقا قد شيعها إلى مثوى أخير ورقدة أبدية ..؟ أيمكن أن يكون قد تخلفها فى حفرة ببطن الأرض وعاد وتركها وحيدة وسط المقابر الموحشة والرمم البالية ؟

أجل .. ممكن جدا !

فهو لا يرى لها أثرا فى الدار . لقد فتحت له سكينة مطرقة الرأس مقروحة الجفن متشحة بالسواد .. ووقفت أمامه صامتة لا تنبس ببنت شفة ..

وقفز على شفتيه ذلك السؤال الذى كان يطن فى رأسه وهم بأن يسألها إياه :

« أين سيدتك » ؟

ولكن السؤال الأحمق جمد على شفتيه ..

ما الفائدة ..؟

ما فائدة المغالطة والإنكار ؟ كل شيء ينطق أمامه ليصرخ به فى نحيب وأنين إنها لم تعد هنا . ولا حتى هناك .. حيث تركتها .. فهى لا تملك أن تكون هنا ولا هناك لأنها أضحت شيئا غير كائن . أو على الأصح لا شيء .. لقد فرغت ، انتهت ، لا صوت ولا شبح ولا أثر ..

وبلا إرادة ولا وعى ساقته قدماه إلى حيث تعودت أن تسوقه هى .. إلى فراش نبيل .. وعلى الضوء الخافت وقف يتأمله فى صمت ..

أجل .. فى صمت مطبق أليم .. فقد خفت الصوت العذب الحنون الذى تعود أن يقص عليه طرائفه ونوادره . والذى تعود أن يغرقه بأرق ألفاظ التدليل وأعذبها ..

ووسط السكون الموحش والصمت المخيف وصلت إلى أذنيه أنات متقطعة وصوت بكاء متحشرج مكبوت . وتلفت بجواره فإذا بها سكينة وقد جثمت على الأرض بجوار الفراش وأخذ جسدها يرتجف وينتفض ..

أمرها بأن تكف عن البكاء وتذهب إلى فراشها . ولكنها لم تتحرك بل أنبأته فى ذلة أنها ستنام حيث هى .. عند قدمى نبيل .. فقد يستيقظ فى الليل ، وقد يسأل عنها أو يطلب حاجة ..

وتركها ترقد حيث تشاء . وذهب هو ليضطجع بملابسه على الأريكة .. لقد كان من العبث أن يحاول النوم .. وأن يرقد فى الفراش ليجد مكانها بجواره موحشا خاويا .

* * *

ومضت بضعة أيام كان يتحرك فيها كأنه شبح أو خيال لا يكلم أحدا ولا ينصت لأحد .. دائم الشرود والذهول . ثم بدأ يفيق لنفسه ويتخلص من تلك الغيبوبة الجاثمة على ذهنه ويفكر فيما أضحى عليه .

لقد بدأ يعترف بأن امرأته ماتت .. وأن عليه أن يحتمل الفراق . ولقد كان

الأمر محتملا بالنسبة إليه .. فهو يستطيع ان يصبر ويتجلد . ولكن عندما كان يفكر فى ابنه كان يجد العبء أثقل من أن يحتمل .. والمصاب أفدح من أن يهون ..

كانت المسألة — حتى إذا جردت مما بها من أحزان وأشجان — مشكلة عويصة .

لو كانت أمه أو أمها على قيد الحياة لأصبح الأمر محتملا ولاستطاع أن يعهد بالطفل إلى إحداهما لتتولى تربيته ورعايته وتعوضه عن حنان أمه .. أو حتى عن بعض منه ..

وهو كذلك لا يستطيع أن يبقى دائما بجواره .. فإن طبيعة عمله تقتضى منه أن يقضى نصف الأسبوع فى المرور على مختلف المناطق والبلاد .. فإما أن يأخذه معه — وهو فى الثالثة من عمره — فى كل حل أو ترحال . وإما أن يستقيل من عمله ليموت الاثنان جوعا ..

لم يبق أمامه سوى حل واحد هو إحضار امرأة غريبة لتتولى أمر هذا الطفل ورعاية شئون البيت ..

والمرأة الغريبة لا تجلب إلا بطريقتين : إما بأجر أو بعقد،وإما مربية أو زوجة ..

أما الطريق الأخير وهو الزواج فقد كان أبعد ما يكون عن ذهنه . فما كان يستطيع أن يحتمل مجرد التفكير فيه . ولا كان يستطيع أن يتصور أن تحل امرأة محل زوجته الراحلة العزيزة لأى سبب مهما كان .. إن مكانها يجب أن يبقى شاغرا إلى الأبد .. إن ذكراها أعز من أن يضحى بها فى سبيل أي إنسان حتى ولو كان ابنه ..

إذن فلم يبق أمامه سوى الطريق الأول وهو استئجار مربية . ومن الخير أن تكون مربية أجنبية عجوزا يستطيع أن يعهد إليها بتربية الطفل وهو مطمئن ..

ومرت الأيام وهو يبحث دون أن يجد المربية المطلوبة .

وفى ذات يوم عقب الغداء سأل نفسه السؤال الذى لم يحاول أن يسأله أو يفكر فيه من قبل ..

كيف يعيش الآن وكيف تدبر شئونه ..

لقد مضى عليه ما يقرب من شهر والحياة تسير .. لم تعطل أو تتوقف . وابنه على خير .. لم يجع ولم يمرض ولم يمت ..

إنه ينتظر المربية لتدبر أمره .. ولكن لم يحاول أن يسأل نفسه كيف دبر حتى الآن ..

مخلوقة واحدة هى التى دبرت أمره وأمر ابنه وأمر الدار . وجعلت الحياة تسير على قدر جهدها ..

حقيقة أنه أعفى مؤقتا من السفر . ومكنه ذلك من البقاء بجوار ابنه .. ولكن ذلك لا يعنى أنه قام بأمر داره وأنه كان يفعل لابنه كل شىء ..

لقد كانت سكينة تطبخ وتغسل وتنظف البيت وتعد الطعام لنبيل وتطعمه وتدلله وتهيئ له فراشه .. فلم تشعره بعبئه مرة واحدة .. بل كانت تعمل كل ما تعمله فى استكانة وصمت كأنها آلة تتحرك ..

عجبا .. إنه لم يكن يظنها بهذه المهارة .. لقد كانت تبدو له دائما شديدة البله قليلة الحيلة سيئة التصرف .. وهو لا يزعم أن مظهر البله قد ذهب عنها .. ولكنها مع ذلك لا تكل ولا تمل .. كأنها حيوان مخلص أمين ..

ولقد أصبح طبخها مستساغا . رغم أنها حرقته بضع مرات .. وبدأت تعرف مطالبه وحوائجه . وذهب عنها الكثير من الغباء والبلادة .

إنها هى التى جعلت حياته مستمرة فى السير . ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يركن إليها إلى الأبد .. فلا بد له من المربية .. من أجل نبيل على الأقل إذ من الجنون أن يعهد به إلى مثل هذه البلهاء مهما كان إخلاصها ونشاطها . وهو لا يستطيع أن يسافر ويتركها وحدها فى البيت ..

ومع ذلك فقد أجبرته الظروف على تركها .. فقد فوجئ فى اليوم التالى بأمر

بالسفر العاجل .. ولم يكن هناك مفر من السفر وترك الطفل والبيت لسكينة وحدها .

وعاد من سفره على عجل وقد تملكه الخوف والقلق .. ولكنه وجد الحال على خير ما يرام .. ورأى كل شيء مرتبا والطفل نظيفا ضاحكا . والدار لا تكاد تفترق عما كان يجدها عليه عند عودته فى كل مرة سوى أن المخلوقة الحلوة الضاحكة النبيلة الجميلة قد استبدل بها مخلوقة صامتة واجمة مطأطئة الرأس قد انزوت برثاثتها وبلاهة منظرها داخل المطبخ منهمكة فى الطبخ أو فى الغسل .

واستقر رأيه نهائيا على ألا يحضر مربية .. بل يكل أمر البيت إلى سكينة — وخاصة بعد ما رأى من تعلق الطفل بها — وصمم على أن يستبدل بالمربية خادمة صغيرة تساعد سكينة فى أعمال الدار ..

وهكذا استقرت به الحال ومرت الأيام وسكينة تدبر شئونه وبدأ هو يطمئن إليها رويدا رويدا .. وازدادت ثقته بقدرتها وأمانتها على مر الأيام حتى أضحى يسلمها مصروف الدار كاملا ويترك لها حرية التصرف دون أن يناقشها الحساب .. وكان فى قرارة نفسه راضيا عن عملها كل الرضاء .. فقد كانت أشبه بحيوان دءوب مخلص وفىّ . لا تعترض ولا تتبرم . ولا تمل ولا تكل ..

شيء واحد هو الذى لم يكن يرضيه .. وهو فرط رثاثتها وانطوائها وغباء مظهرها ..

لقد ظن أن الأيام ستصلحها وأنها ستستمد من ثقته بها ثقة بنفسها واعتدادا بشأنها وأن مركزها الجديد فى بيته ومعاملته الحسنة لها .. سيجعلانها تصلح من مظهرها وتعنى بثيابها .. ولكن الأيام كانت تمر وهى على حالها من الضآلة والرثاثة والجبن والانكماش ..

وتركها وأمرها .. فما كان يهمه مظهرها فى كثير ولا قليل .. حتى فوجئ ذات يوم بمرآها وقد جلست أمام طست الغسيل شبه عارية .. لا يستر جسدها سوى قميص خفيف ممزق قد كشف عن ساقيها إلى ما فوق الركبتين : وأظهر

جزءا كبيرا من باطن فخذيها .. وعجز تماما عن أن يلم صدرها فبرز منه عاريا نافرًا فى أكثر من موضع .

وكان الجو باردا فأذهله مرآها على هذا الوضع من العرى .. وسألها ناهرا متعجبا فيم بقاؤها بهذا القميصُ الممزق الخفيف .. ولِمَ لم تضع على جسدها ثوبا يسترها ؟

وتملكها خجل شديد وأطرقت برأسها وحاولت أن تشد القميص على ركبتيها وأحنت جسدها حتى تخفى ما ظهر من صدرها .. وأجابت فى استحياء بأنها تغسل ثوبها .

وعاد يسألها فى دهشة :

— ولِمَ لم تلبسى ثوبا آخر ؟

فكانت إجابتها : أنه لا ثوب لديها سواه ..

وتملكه الحنق من إجابتها وانهال عليها باللوم والسباب وأنبأها بأنه ليس فقيرا حتى تحاول أن توفر له ثمن ثوب لها ..

إنه يعطيها نقودا كافية لكى تشترى ما تشاء .

ولكنه أدرك بينه وبين نفسه أنه هو المسئول عن ذلك .. لأنه كان يجب أن يفكر فيها . وأن يبتاع لها الثياب .. فهى مجنونة بلهاء لا تستطيع أن تخرج إلى السوق لتبتاع ثيابها ..

وكانت نتيجة الحادثة .. أمرين : أولهما أنه انطلق ليبتاع لها بضعة ثياب تستر بها جسدها . وثانيهما .. أن ذهنه انطلق به — لأول مرة — يفكر فى سكينة ..

أجل .. لأول مرة وجد سكينة تتسلل — برغمه — إلى ذهنه وتقتحم عليه تفكيره .. وتشق طريقها إلى رأسه كامرأة ..

ورقد على فراشه وأغمض عينه وحاول أن يغمض ذهنه .. ولكن ذهنه كان قلقا متيقظا .. محلقا فى صورة لا يبغى عنها حولا صورة سكينة جالسة أمام طست الغسيل .

عجبا .. إنه لم يكن يتصور الفتاة قط .. بمثل هذا الجسد الرائع .. لم يتصور أن تلك الأسمال .. القذرة الرثة .. تضم بينها هذا الصدر الصلب المكتنز الفائر وما ظن أن تلك الأقدام المغرقة فى مياه الغسيل تحمل فوقهـا هاتين الساقين الممتلئتين الناعمتين الصافيتين ..

وأحس بحمى الشوق تعصف برأسه .. لقد كان منظرها بالقميص الخفيف الممزق المبتل وصدرها يتأرجح من خلال فتحاته وهى مطرقة برأسها فى استحياء أشد إثارة من ملكة جمال عارية ..

ومضت به فترة وهو يحاول المقاومة أمام الصورة المثيرة التى تهاجمه فى عنف وأخذ يستعين بكل أسلحة المقاومة .. ويستدعى إلى ذهنه كل وسائل الصد .. استعان بالله وملائكته ورسله وبذكرى زوجه الراحلة .. وبمركزه كرجل محترم .. وبكل شيء يمكن أن يخطر على البال .. ولكن الصدر المكتنز المتأرجح داخل القميص المبتل وباطن الفخذين الأملس اللين الدافئ .. كان أشد فتكا وأمضى سلاحا .. فصرع أمامه كل وسائل المقاومة .. ووجد نفسه فى النهاية يسير كالمحموم إلى فراش سكينة .

لم تقاوم سكينة . لقد كانت دائما بالنسبة لسيدها حيوانا مطيعا وفيا .. يفنى نفسه فى خدمته .. ويبذل كل ما يملك فى تأدية واجبه نحوه .. بأمانة ووفاء ورغبة وحرارة .. وفى تلك الليلة أدت سكينة واجبها كأخلص ما يؤدى الواجب .

وهكذا اتضح له أن سكينة تستطيع أيضا أن تدفع عنه عبئا طالما أقلقه وأن تؤدى له خدمة — فوق خدماتها — كان فى أشد الحاجة إليها . وتهيئ له المطلب الوحيد الذى كان ينقصه .. والذى كان يخشى من أجله .. أن يجعل لابنه امرأة أب .. تنغص عليه حياته ..

ولم يطرأ على الدار جديد بعد أن اتخذت سكينة وضعها الجديد .. وبعد أن أضيف إلى واجباتها الواجب الجديد بل استمر الحال على ما هو عليه ..

واستمرت سكينة هى .. هى . بانطوائها وذلتها لم يزد عليها سوى جدة فى الثياب . ونظافة فى المظهر .

ووجد الرجل فيها نموذجا لما يريد .. ولم يعد يقلقه أمر ابنه الحبيب .. فقد كانت سكينة أحن على الطفل من أمه .. وأبر من أبيه .. ولم تحاول قط أن تستغل صلته بها لكى ترفع رأسها وتجعل من نفسها ربة للدار آمرة ناهية .. بل استمرت كما هى الحيوان الذليل الدءوب المطيع الوفى الأمين لا هم لها فى الحياة ولا غرض سوى خدمته وخدمة ابنه ..

وكان أكثر ما يطمئنه من ناحية سكينة . هو استحالة زواجه بها .. وضمانه الأكيد بأنها ستبقى دائما فى وضعها الخفيض فقد كانت المسألة من ناحيته هو .. أبعد من أن يفكر فيها مجرد تفكير .. أما من ناحيتها .. فقد كانت بحالتها الراهنة راضية قريرة .

ولا شك أن الحال كان يمكن أن تسير فى طريقها الهادئ المنتظم .. لولا أن فوجئ ذات يوم بملاحظة ظاهرة أقضت مضجعه ..

لقد رأى دلائل حمل ..

وجن جنونه .. فقد كانت دلائل حمل غير قريب .. إذ بدا انتفاخ البطن جليا واضحا حتى لكأنها فى الشهر الرابع أو الخامس ..

وسألها ناهرا : لِمَ لم تنبئه فى وقت مبكر ..؟ فتبين له أن المخلوقة البلهاء لا تأبه كثيرا لما بها .. بل إنها راضية سعيدة .. بما قد حملت ..

وبدأ يفكر فى الوضع الجديد فأقلقه أيما قلق ..

لو وضعت سكينة منه ابنا لاضطر إلى زواجها ولاتخذت مكانها فى البيت كسيدته . وزوجة أب لابنه .

فإن أمكن التجاوز عن مبلغ ما يشينه من زواج خادم .. فإنه لا يمكن أن يتجاوز عن وضعها الجديد بالنسبة لابنه.إنها لا شك ستتغير كثيرا .. فسيتحول حنانها إلى الوليد الجديد .. وسيصبح ابنه .. ككل أبناء الأزواج .. عدوا للدودا

لها .. وستتنمر فى البيت وتستأسد .. ولا تعود سكينة الذليلة المطيعة ..

لا .. لا .. لن يمكن أن يبقى على حملها .. يجب أن يتخلص منه فى أقرب فرصة !

لا بد من عملية إجهاض .. مهما كانت نتيجتها ..

وناداها إلى حجرته وقال لها بلهجة آمرة :

ـــ ارتدى ملابسك .. لأننا سنذهب إلى الطبيب ..

ولم تتحرك سكينة ولم تغادر مكانها وأطرقت برأسها ثم أجابت بصوت خفيض :

ـــ إنى بخير يا سيدى .. وليس بى ما يستدعى الطبيب .

ـــ سيجرى لك عملية إجهاض ..

وهزت المرأة رأسها .. وبدا عليها أنها لم تفهم ما يعنى فعاد يقول :

ـــ سيخلصك مما فى بطنك .

وتملكها دهش شديد . ووضعت يدها على بطنها فى خوف وتساءلت :

ـــ يخلصنى منه .. ؟ لماذا يا سيدى ..؟

ـــ لا يجب أن يكون هناك أثر لما بيننا ..

ـــ سأخفيه عندما يولد .. لن يراه أحد قط ..

ـــ إنى لا أريده ..

ـــ ولكنى أريده يا سيدى .

ـــ منذ متى كنت تريدين شيئا أيتها البلهاء ..؟

ـــ هذه هى المرة الوحيدة التى أريد شيئا .. لن أطلب شيئا بعدها .. إنى أحبك يا سيدى .. وأريد أن أحتفظ بما فى جوفى منك .. لن أقلقك من أجله .. سيكون ابنى وحدى. وسيكون خادمك كما كنت خادمتك دائما .. لن أقول لأحد إنه ابنك .. سأقول إننى حملته من أى عابر سبيل .. هبنى إياه. فهو الهبة الوحيدة التى سأسألك إياها .. إنى أحبه كما أحبك وكما أحب كل شىء يتعلق بك ..

وفوجئ الرجل من قولها المليء بالحرارة والإخلاص .. كيف تأتى لهذه البلهاء أن تقول مثل هذا الحديث المتأجج الحار .. لقد كان صادرا من أعماق قلبها ..

ويحه .. إنه ما ظن أن لمثل تلك الحيوانة الغبية .. قلبا يفيض بالحب ..

ولكن .. كان من الجنون أن يضعف أمامها .. يجب أن يكون حازما لا من أجل نفسه .. بل من أجل ابنه .

أجل .. يجب ألا ينساق وراء العاطفة .. يجب أن يكون رجلا عمليا ..

إن سكينة بحملها عبء ثقيل .. وإنها بغيره خير ألف مرة منها به ..

ونظر إليها وأطرق برأسه .. ثم قال بلهجة صارمة :

— إنى لا أريده .. فإذا كنت تحبينني فيجب أن تريدى ما أريد .. يجب أن نتخلص منه ..

— أمرك يا سيدى .

وكان يعرف أن عملية الإجهاض — وخصوصا فى مثل هذا الوقت المتأخر — ليست بالمسألة السهلة .. وأنه من العسير عليه أن يجد الطبيب الذى يقبل عملها .. وأنه يجب أن يجد طبيبا صديقا يثق به ويطمئن إليه .

وتذكر الدكتور سيد إبراهيم .. ابن خالة زوجته لقد كان الطبيب الوحيد الذى يمكن الاطمئنان إليه .. والذى سيقبل — من أجله — أن يجريها .. فهو رجل شهم كريم .. ولا شك أنه سيقدر ظروفه .. وسيعتبر الدواعى التى تجبره على إجراء العملية ..

وسارت سكينة بجواره مطرقة صامتة .. وقد ظهر الجمود على وجهها وخلا من أى حس أو تعبير .

ونظر إليها الرجل وهما يقتربان من عيادة الطبيب ... وقال لها فى لهجة عطف :

— إن شاء الله سليمة يا سكينة .. وإنها عملية بسيطة .. إنى لم أكن أصر عليها .. إلا من أجل ابنى .. إنى لا أريد أن تنشغلى عنه بغيره ..

ــ أمرك يا سيدى ..!

ودخل الرجل وحده إلى الطبيب وجلست سكينة تنتظر فى الخارج ..

وجلس الدكتور يستمع إلى حديثه وقد بدت عليه علامات الدهش .. وأخيرا قال وهو يهز رأسه :

ــ خمسة شهور .. إنها عملية غير سهلة ..

ــ أعرف هذا .. ولكن لا بد من إجرائها .. من أجل نبيل ..

* * *

وأجرى الطبيب العملية ورقدت سكينة مغمضة العينين مسجاة على فراشها. لقد تخلصت من حملها . ولكن بثمن غير زهيد .. بحياتها ..!

أجل .. لقد لفظت حملها ثم بدأت تلفظ آخر أنفاسها .

وفتحت عينيها وأخذت تقلبها فيما حولها بنظرات زائغة استقرت أخيرا على وجه الطبيب الشاحب الذى كان يرقبها فى صمت .

وعلا شفتيها شبح ابتسامة ساخرة ثم تمتمت بصوت ضعيف متقطع :

ــ دكتور ..

ــ ماذا تريدين ..؟

ــ هل انتهت العملية ..؟

ــ أجل ..

ــ هل تخلصت مما فى جوفى ..؟

ــ أجل ..

ــ آه .. لو يعرف ...!

ــ يعرف ماذا ..؟

ــ يعرف أنه تخلص من ابنه .. من أجل ابن رجل آخر ..!

ــ اصمتى .. يجب أن تكفى عن الكلام حتى تستريحى .

ــ سأستريح بعد هنيهة .. سأشبع راحة .. تصور .. يا دكتور يتخلص من

ابنه من أجل ابنك أنت .. يطلب منك قتل ابنه .. فى سبيل رفاهية ابنك .. تصور هذا !

— اصمتى .. كفى عن الهذيان ..

— لست أهذى .. أنت أدرى منى بالحقيقة .. إنى الوحيدة التى كنت أعرف ما بينكما .. إنك تعرف جيدا أن نبيل ابنها منك أنت .. لقد سألته أن يبقى لى ابنه الحقيقى .. الذى حملته منه فى جوفى .. لأنى لم أخنه ولم أخدعه .. ولكنه رفض .. لأنى سكينة الخادمة البلهاء المطيعة الذليلة .. !

— كفى عن الهذيان أيتها المجنونة ..

وفتح الباب بهدوء .. ودخل منه الرجل بوجهه الشاحب وقد ارتسم عليه الفزع وتساءل فى خوف وإشفاق ..

— ماذا بها ..؟

وأجاب الطبيب :

— لا شىء .. إنها تهذى !

ونظرت سكينة إلى سيدها ومدت يدها فأمسكت يده ووضعتها على شفتيها المطبقتين وأغمضت عينيها .

ولم تنبس بعد ببنت شفة ..

حديث أعمى

ويحها .. إنها ما تغيرت قط .. لقد كانت تلك هى طبيعتها صامتة صابرة .. ما أجابتنى على لطمتها الأولى فى الصغر ولطمتى الثانية فى الكبر .. إلا بالصمت والصبر ..!

فى العين ظلمة .. وفى القلب ظلمة ..

آه من تلك الأكداس الحالكة من اليأس والعجز التى تجثم على نفسى .. فتهبط بها إلى أغوار سحيقة لا قرار لها ولا نهاية ..

إنى لأجلس وحيدا وسط هذه الظلمة الموحشة وريح الشتاء الباردة تلفح وجهى وتنفذ فى عظامى .. لا أبصر أمامى بصيص ضياء ولا أميز هيكلا ولا شبحا .. أغلق العين وأفتحها .. فلم أر مما حولى أى شىء .. ولكنى مع ذلك أحس بكل شىء .. وأعرف كل شىء ..!

أعرف صفير الريح فى أذنى والأوراق الجافة الصفراء تهبط مترنحة على الأرض فى يأس واستسلام .. وأعرف الأغصان المهتزة المتأرجحة الممتدة من الجذع الغليظ الراسخ فى الأرض .. الساخر من الريح الباقى على الزمن .

أعرف المقعد الخشبى الذى أجلس عليه .. بتعاريجه وثنياته .. والمسمار الذى ما زال ناتئا فى ظهره .. أعرف الحجر الجاثم على يمينه وأستطيع أن أسند إليه قدمى .. كما كنت أفعل فيما مضى ..

كل شىء أحس به كما عهدته .. حتى هذا الصنبور التالف مازلت أسمع قطرات الماء تهبط منه إلى أرض الحديقة .. ما تغير شىء فى المكان ولا تبدل .. لاأستطيع أن أرى السور الممتد والدار القائمة بعينى . ولكنى أراهما بذهنى وأتخيلهما كما كنت أراهما فى الليالى السالفة .

ما تغير شيء مما حولى .. ولكن أنا الذى تغيرت .

إنى لا أنكر المكان .. رغم أنى لا أراه .. لقد كنت أراه فيما مضى بعين الرضا .. والآن لا أستطيع أن أراه حتى بعين السخط .. ومع ذلك فإنى لا أنكر منه شيئا .. لأنى أحبه . ولا أجد قرارا إلا فيه .

إنى لا أنكر المكان .. وأنا لا أراه .. ولكنه لا شك ينكرنى وهو يرانى . إن الشجرة الرءوم .. لا تستطيع أن تعرف فىّ صاحبها القديم ، لقد كانت تعرف فىّ قلبى المضيء وعينى المتلألئتين .. اللتين يشع منهما بريق الأمل والرجاء .. ونفسى التى تفيض بحرارة الحب والوفاء والإيمان .

أما الآن .. فكيف تميزنى وقد خبا كل ما بى .

كيف تميزنى فى ذلك الجسد الواهن والقلب المظلم والنفس المكتئبة والعينين الخابيتين .؟

لينكرنى الجميع . فما عاد لى بقية أمل فى شيء . وما عدت أرجو أن يذكرنى أحد . حتى هى . معبودة الروح وصنو النفس .. لقد أنكرتها فيما مضى .. فإن هى أنكرتنى الآن فلا حرج عليها ولا لوم .. ولا تأنيب ولا تثريب .. واحدة بواحدة والبادئ أظلم .

لقد أنكرتها .. وهى هى الحلوة الناضرة اليانعة .. الوفية الطاهرة النقية .. جزيتها عن الوفاء غدرا .. وعن الحب هجرا .. كيف أستطيع أن آمل منها بعد هذا أن تذكرنى .. بعد أن أصبت بما أصبت به .؟

عرفتها جزءا من هذا المكان الذى أجلس فيه فما أذكر أنى رأيتها فى مكان غيره .. حتى لكأنى بها قد نبتت فى الحديقة مع بقية الزهور والأشجار .. وكان ذلك منذ زمن بعيد قريب:بعيد فى الوقت . قريب من الذهن . وهكذا كل ما يتعلق بها من ذكريات لا تكاد تدخل فى حساب الزمن .. ولا تملك كف القدم عليها أى تأثير .. فهى أبدا جديدة ناضرة ..

لا أستطيع أن أحدد متى أحببتها .. ولا كيف . فقد تسلل حبها إلى نفسى مع

الزمن . إذ نشأنا منذ الطفولة سويا وكنا نقطن حى الإنشا فى دارين متجاورتين تشاركتا فى الفناء الأمامى والحديقة الخلفية وأحاط بهما سور واحد .

كانت دارهم هى الدار الأصلية .. أما دارنا فقد بنيت فى الطرف الآخر من الحديقة الواسعة وأصبح الداران بحكم موقعهما كأنهما دار واحدة .. وكان لا بد والأمر كذلك من توثق عرى الصداقة بين الأسرتين . حتى بتنا على مر السنين كأننا أسرة واحدة .

وكنت وأخى وأخوها نكوّن صحبة لا نكاد نفترق . فقد كانت تجمعنا فى طفولتنا مدرسة المنيرة . وكان يضمنا فصل واحد .

وكنا نتخذ من الحديقة ملعبنا المختار . نشق فى أرضها الأنهار ونتسلق الأشجار لا نكاد نفترق إلا ساعات النوم .

كيف كانت هى وقتذاك ؟

إنى لا أكاد أذكر عنها سوى صورة باهتة .. فما كانت تثير فى نفسى وقتذاك أقل اهتمام . بل كانت كرة القدم والنبلة والنحلة وغيرها من ملاهى الطفولة لا تترك لى مجالا للتفكير فى أمثالها من الصغيرات العاجزات .

كل ما أذكره منها هو جسد نحيل ضئيل وشعر ذهبى قصير ينسدل على جبينها ويغطى أذنيها .. ووجه أصفر دقيق التقاطيع وعينان خضراوان صافيتان .. وكانت تبدو لى وقتذاك مخلوقة ضعيفة مسكينة .. تثير الشفقة والرثاء لوقفتها المتباعدة فى الشرفة أو أمام الباب ترقبنا فى خوف دون أن تجسر مرة واحدة على الدنو منا أو مشاركتنا لهونا .

ولا أظننى أنسى قط أول احتكاك لى بها .. عندما لطمتها لطمة أسالت الدماء من أنفها .. لأنها وطئت — عن غير قصد — بيتا شيدته فى الحديقة من الطين فهدمته ، ولم أرها تصرخ ولا تولول .. بل قالت فى صوت باك : إنها لم تقصد هدمه . واغرورقت عينها بالدمع وسارت إلى البيت صامتة .. وقد وضعت كفها على أنفها .

ويحها .. إنها ما تغيرت قط .. لقد كانت تلك هى طبيعتها صامتة صابرة .. ما أجابتنى على لطمتها الأولى فى الصغر ولطمتى الثانية فى الكبر .. إلا بالصمت والصبر ..!

وكانت تلك هى المرة الأولى التى أحس فيها بشىء يسمى الندم .. فما أظننا فى طفولتنا نندم على هفواتنا وأخطائنا . ولكننى فى تلك الليلة ظللت فترة طويلة مفتوح العينين محملقا فى السقف قبل أن أنام .. وأنا أفكر حزينا .. لم ضربتها ؟. أعزى نفسى بأننى عندما أستيقظ فى الصباح سأذهب إليها وأهبها قطعة من الشيكولاتة وأعطيها الكرة لتلهو بها قليلا .

واستيقظت فى الصباح .. فنسيتها ونسيت كل ما نويت ولم تعد تشغل ذهنى بعد ذلك أكثر مما يشغله طير يحلق فى الجو أو قطة تسير فى الطريق .

ومرت بنا السنون بعد ذلك وأنا مغرق فى لهو الطفولة .. وهى مغرقة فى تباعدها وخشيتها وحذرها .. حتى وجدتنى ذات يوم — لا أدرى كيف — قد أصبحت أحس بها ..!

أقول أحس بها .. ولا أقول أحبها .. فلقد بدأ الأمر .. مجرد إحساس بوجودها .. بعد أن مرت بى السنون وأنا لا أحس لها بكيان ..

لقد أصبحت أحس بوجودها فى الشرفة وأنا ألعب الكرة .. فإذا ما دخلت أحسست بغيابها .. وإذا لم تعد بدأت أفتقدها .. وأحس لغيبتها بضيق ووحشة ..

كيف حدث هذا ..؟ أتغيرت أنا ؟ أم تغيرت هى ؟ أغلب الظن أن التغير كان مزدوجا .. فقد نما كلانا .. ولست أقصد بالنمو أنها أضحت امرأة .. وأننى قد أضحيت رجلا .. فما أظننا كنا قد تجاوزنا حد الصبا .. فما زلت أذكر جسدها ضامرا نحيلا .. جسد صبية صغيرة ومع ذلك فقد بدأت أحبها .. وهى على حالتها تلك .. بنحولها وشحوبها ورقتها . ودقتها ..

كانت أشبه بالفراشة .. وكان كل إحساس نحوها ينحصر فى الرغبة فى وقايتها

الشر .. وفى حمايتها والدفاع عنها . وكانت كل تصوراتى إذا ما خلوت إلى نفسى لا تزيد على أنى أنقذها من المخاطر . والمهالك .. أتصورها غريقة فأقذف بنفسى فى اليم وراءها وأظل أسبح حتى أنقذها من الغرق .. ثم أتصورها مرة أخرى بين أيدى الوحوش أو اللصوص فأهجم عليهم وأصرعهم وأفر بها ..

كان أقصى ما أتلهف عليه هو أن أمس شعرها أو أضغط على كفها أو أدثرها بدثار ثم أضمها إلى وأرقدها على صدرى ..

ولم أحاول قط أن أقترب منها أو أن أنفذ ما يجول بذهنى .. رغم أنه لم يكن هناك أسهل منه .. فقد كنا كما قلت أشبه بأسرة واحدة وما أظن أحدا كان بلائمى .. أو حتى بشاعر بى .. لو أنى فعلت ما كنت أتلهف عليه .. من لمس يدها أو لثم شعرها .

ولكنى أنا نفسى لم أكن أجسر .. أو لم أكن أرغب .. فقد كنت أحيط نفسى بالأوهام والأحلام .. وكنت أضعها هى فى مستوى الشمس .. والملائكة .. والأشياء التى لا تملك نحوها إلا مجرد التطلع والتفكير ..

ولا أدرى ماذا كان رأيها فى .. فما كنت أفوز منها بغير النظرة الصامتة .. والتطلع الهادئ الساكن ..

وأخذنا فى النمو .. وبدأ جسدها يستدير وينمو .. ولكننى لم أك ألقى إليه بالا .. فقد استمرت نظرتى إليها كما هى .. النظرة السامية العلوية الملائكية .. كأنى أحب روحا أو شبحا ..

ولكن حنينى إليها زاد .. وزادت معه لحظات تفكيرى فيها .. حتى حل بى وقت كنت لا أكاد أفكر إلا فيها .

وأخيرا دفعنى الحنين إلى أن أفعل شيئا أكثر من التفكير دفعنى إلى الدنو والاقتراب .

وأخذت أحوم حولها .. كعابد حول صنم .. أو على الأصح كصنم حول صنم .. فقد كان كلانا أصمت وأجمد من صنم .

كان صمتى عن خجل وخشية وخوف . أما صمتها فالله به أعلم ..

أنا لم أحب من قبل قط . وأنا بطبعى إنسان خجول .. هياب .. خالى الذهن عما يفعل المحبون وكيف يقتربون ممن يحبون وماذا يقولون ..

ثم .. أمر آخر .. كان يسبب فى ذهنى مشكلة كبرى . كيف أعرف أنها تحبنى ؟

إن وجهها صامت ساكن أهدأ من غدير فى يوم راكد . لا تكاد تبدو به علائم حب أو بغض .. ولا سرور ولا حزن .. ولا اهتمام ولا غير اهتمام ..

هل أسألها ..؟

أأقول لها : هل تحبيننى ؟

وإذا قالت : لا .. ماذا أفعل ..؟

وإذا سخرت منى وهزأت بى ..!

وإذا صرخت وبكت وأنبأت ذويها وذوى .. ألا يعتبر قولى لها .. قلة أدب ..؟

أجل .. إنها ستكون فضيحة كبرى ..

أأكتب لها ..؟

ستكون فضيحة أكبر ..

ماذا أفعل ..؟ إنى أكاد أجن ..!

ماذا فعل الملايين من قبلى الذين أحبوا ..؟

وأخذت أقرأ كثيرا عن الحب .. وأنا كما أنا .. بنفس الحيرة ونفس التردد .

لقد كانت مشكلة عويصة ومسألة مستعصية .. ومع ذلك .. فقد وجدتها .. مرة واحدة .. وبلا أى جهد .. تذوب وتتحلل .

من يصدق هذا ؟ وكيف حدث ؟

لقاء واحد .. على غير موعد .. وبلا سابق تمهيد . أذاب كل المواقع كما يذوب الجليد فى الشمس الساطعة !

هنا .. على نفس المقعد وتحت نفس الشجرة .. والصنبور يقطر كما يقطر الآن جلسنا أول مرة ..

كان الوقت بعد المغرب . وامتزاج الليل والنهار يصبغ الكون بلون رمادى .. والمرئيات تتراءى باهتة .. والجو دافئ والريح راكدة .. وكنت أتجه من الباب إلى دارنا .. ومررت بالشجرة فإذا بى أراها تجلس تحتها فى صمت ..

أيها القلب رفقا .. خفف من دقاتك .. وإلا فضحت أمرى .. سأحاول الجلوس بجوارها .. يجب أن تتشجع إياك أن تقفز من صدرى .. لا تخذلنى .. هذه فرصة العمر فيجب ألا أضيعها ..

وجلست بجوارها .. وابتسمت فى رقة ..

إنها مخلوقة عذبة .. رقيقة .. أليفة .. ودودة كيف أهابها .. وماذا أخشى منها ؟

وبدأنا نتحدث بضعة أحاديث تافهة .. قلتها بغير وعى .. وسمعتها بغير وعى . وفجأة وجدت يدى قد مست يدها وكفى قد وضعت على كفها .

وساد الصمت .. صمت طويل لذيذ .

لم أقل شيئا .. ولم تقل شيئا . ولكن أنفاسنا كانت تسمع جلية واضحة . وكنت أشعر أنى أتسامى وأرتفع عن الأرض . وكأنما قد أضحت لى أجنحة تسرى بى فى دعة ورفق .

وأخيرا تجرأت ورفعت يدها إلى شفتى . وكنت أخشى أن أزعجها بفعلتى .. ووجدتها فعلا تسحب يدها من تحت شفتى . ولكنها لم تسحبها عن غضب .. بل سحبتها لتمسك بها يدى وترفعها إلى شفتيها .

أجل . لقد قبلت يدى كما قبلت يدها .

ولست أدرى مبعث هذه الدموع التى أحسست بها تملأ مقلتى . لقد كان ما بى من السعادة أكثر مما يحتمل .

ولم تكن هناك حاجة لكى أسألها عما إذا كانت تحبنى . فقد بدأت هى نفسها

تقص على هامسة كيف بدأت تحبنى .. وكيف كانت ترقبنى وتتبع خطواتى أينما حللت .

ويحها .. كيف أضاعت علىّ كل تلك السعادة الماضية ؟ لِمَ لم تخبرنى من قبل . وأنا أحوم حولها حائرا مترددا .. وهى جامدة باردة صامتة ؟

وافترقنا ليلتذاك وأنا أحس أنى أحب العالم والناس والطيور والحشرات . لقد فاضت بى مشاعر الحب فأغرقت بها جميع الكائنات .

ولم نكف بعد ذلك عن اللقاء ليلة واحدة . كنا نتسلل فى جنح الظلام لنجلس على مقعدنا الخشبى تحت الشجرة الحانية .

كنا نحتمل كل شىء فى سبيل اللقاء .. ينفذ البرد إلى عظامنا فنزداد تلاصقا .. وتلفح أنفاسنا الحارة المختلطة وجهينا فتبعد عنا الصقيع .

وكنا صموتين كتومين . فأمعنا فى ستر حبنا وإخفاء مشاعرنا فلم يعلم بما بيننا أحد من الأهل .. حتى اجتزت مرحلة الدراسة ووجدت نفسى جديرا بأن أفكر فى خطبتها .

ولكنى لم أكد أبدأ التنفيذ حتى علمت أن أحد أقربائها قد سبقنى وتقدم لخطبتها .

ورغم أنى كنت واثقا من مشاعرها نحوى . ورغم أننا قد اتفقنا فيما بيننا على أن يكون كل منا للآخر .. فقد فجعنى النبأ وتملكنى منه ضيق شديد ..

فقد كان قريبها — إذا ما قورن بى مقارنة مجردة من المشاعر — أرجح كفة منى .. إذ كنت لم أزل ملازما ثانيا حديث العهد بالتخرج . وكان هو طبيبا ممتازا معروفا .. وكان فوق هذا على جانب من الثراء . ولم يكن هناك ما يعيبه لا شكلا ولا خلقا .

كان كل ما أمتاز به عليه هو حبى لها وحبها لى ولكن هل يدخل ذلك فى حساب أبويها ؟

ثم كيف يعرفان أنها تحبنى وهى الخجولة الصامتة التى لا تجرؤ على المعارضة

والعصيان ولا تجسر أن تقول إنها تحب كائنا من كان ؟

أجل .. كان الأمر عسيرا عليها . فما كنت أتصور قط أنها تستطيع أن تقول لأبويها إنى لن أتزوج هذا لأنى لا أحبه .. لا لا .. لقد كان هذا أمرا مستحيلا ..

ومرت بنا بضعة أيام ونحن لا نلتقى .. حتى لمحتها ذات يوم فى إحدى الشرفات فأشارت إلى بأن أهبط إلى الحديقة ..

والتقينا فى الليل فسألتنى بصوت يائس حزين لِمَ لم أتقدم لخطبتها . فسألتها :

— والآخر ؟

— ليس من شأنك .. تقدم أنت ودع الباقى لى .

وفى اليوم التالى ذهبت والدتى — بعد طول إلحاح منى — لخطبتها .. وهى تعلم أنها مخطوبة .

وكانت النتيجة بالطبع .. الرفض والاعتذار .

وتحملت الصدمة . ولم أحاول أن ألقاها أو أرى لها وجها ولكن بعد بضعة أيام كانت والدتها تزور والدتى وتعتذر وتنبئها بالقبول ..

كيف حدث ما حدث ؟

كيف وقعت المعجزة ؟

أمر بسيط . لقد أنبأت هى أبويها بمنتهى الشجاعة والصراحة أنها تريدنى أنا .. وحاولا أن يثنياها عن عزمها وينصحاها ويرغماها على الرضوخ لرأيهما .. فكانت النتيجة أن رقدت فى الفراش لا تأكل ولا تنام حتى حضرت والدتها إلينا واعتذرت .

وتزوجنا وملأ نفسى إحساس بأنها حملتنى جميلا يجب أن لا أنساه مدى الحياة وأنى يجب أن أخلص لها حتى الموت .

ومع ذلك فقد مرت الأيام فمحت من ذاكرتى كل شىء .

ما أعجب الإنسان وما أشد تغيره وما أكثر ما يرتكب فى غده ما يراه اليوم شيئا يستحيل عليه فعله .

فى كل يوم لنا فى أفعالنا وجهة نظر . وفى كل فعل لنا ما يبرره وما يمحو عنه وصمته وعاره .

إياكم أن تسخروا من مذنب فقد يحل بكم الغد فترتكبون ذنبه . ثم تهزون رؤوسكم دهشا ممن يرمونكم بالإثم وتحسون أن ذنبكم أمر لا غبار عليه .

إننى الآن .. وأنا أجلس خابى العينين محطم الجسد .. أعجب من نفسى كيف أقدمت على ذلك الوزر . أعجب الآن كما كنت أعجب قبل أن أفعله . ولكنى أقسم لكم لو مررت بنفس التجربة ثانية لأقدمت على فعله . ولفقدت الرشد مرة أخرى وأضعت الصواب .

لقد مرت بى الأيام الأولى من الزواج وأنا سعيد جدا . ولكن لم يكد الزمن يتقدم بنا حتى بدأت أحس الملل .. ولم أعد أتذوق من حياتى حلاوة اللهفة ولا لذة الشوق .

ولا شك عندى أنى كنت سأقوم بدورى كزوج خير قيام .. فما أنا بالسىء الخلق أو المفرط فى ملاذه .. ولا شك كذلك أنى كنت سأوطن نفسى على الاستقرار الزوجى وأقنع بحياة الهدوء والراحة التى ينعم بها كل زوج ..

كل هذا كان شيئا لا شك فيه .. لو لم يلق القدر بها فى طريقى .. من هى ؟

امرأة .. أقسم أن أى رجل منكم مهما بلغ من الإرادة والخلق لا يستطيع أن يقاوم إغراءها . وأتحدى البشر واحدا واحدا .

رأيتها أول مرة فى حفل سباق .. وظننت لأول وهلة أنها ما زالت فتاة .. فقد كان يبدو عليها إلى جانب جمالها الرائع .. كثير من طهر وبراءة وصغر فى المظهر ..

كانت تشع . وعندما أقول تشع لا أقولها على سبيل المبالغة فى الوصف . فقد كانت مضيئة حقا بوجهها العاجى المستدير وشعرها الذى يبدو كهالة من ذهب .

ورأيتها تقف مع اثنين من زملائى الضباط .. ومع شخصين آخرين ..

فرأيت نفسى مساقا برغمى إلى التقدم إلى ثلتها . وتم تقديم كل منا إلى الآخر . وعرفت أنها زوجة أحد الشخصين .

ولست أدرى من المخطئ بعد ذلك .. أنا أم هى .. أم القدر .. أم ثلاثتنا معا .

وتوالت مناسبات اللقاء .. كانت تدفعنى رغبة جامحة إلى أن أذهب حيث يحتمل أن توجد أما هى فقد كانت توجد دائما حيث يحتمل أن أجدها . كان القدر لا يخذلنا قط .. فكان يوجدها دائما حيث أذهب .

ومرة أخرى بدأت أتردى فى هاوية الحب .. حب من نوع آخر ليس به شىء من ملائكية الحب الأول . ولكن به أضعاف اندفاعه ولهيبه .

وكنت ألمح من نظراتها مجاوبة .. فما رفعت إليها عينى إلا والتقت بعينيها .. ولكنى لم أكن أجسر على أن أفعل أكثر من النظر .. لقد كانت امرأة متزوجة وكنت رجلا متزوجا ..

وهكذا ظللنا نحجم عن الإفصاح إلا بالأعين حتى حدث ذات يوم ما فضح أمرنا .

كنت أقفز فى إحدى الحفلات فسقطت سقطة عادية .. سقطها الكثير غيرى من قبل ومن بعد . ولكن كان نتيجتها أن أغمى عليها .. هى ..

أجل .. لقد أغمى عليها من أجلى ..

ولست أدرى ما حدث بينها وبين زوجها بعد ذلك .. ولكن الذى أدريه هو أن هذا الحادث أزال من بيننا حجاب الخشية وهتك ستار الخوف فأقبل كلانا على الآخر فى اندفاع جنونى .

وفى ذات ليلة أنبأتنى أنها طلبت من زوجها الانفصال لأنها لا تستطيع أن تعيش إلا معى ..

لا أستطيع الآن أن أحدد مشاعرى وقتذاك بالضبط . فقد كانت خليطا من الفرح الجنونى والحزن المتوارى المستتر .. والحيرة بين انتصارى فى الفوز بها

وهزيمتى فى الاحتفاظ بزوجتى ..

لقد كان الفوز بها انتصارا رائعا .. يرضى غرورى كرجل . فقد كانت امرأة يتهاوى على أقدامها الرجال . وكان زوجها الذى لفظته من أجلى .. رجلا يستطيع أن يوظف عشرات مثلى .

وهكذا لم يكن أمامى سوى أن أقدم على زواجها ..

وكما لطمت زوجتى فى صغرها فأدميت أنفها بغير ذنب لطمتها اللطمة الثانية فأدميت قلبها بغير ذنب أيضا .

وكما أجابتنى على لطمتى الأولى بالصمت والصبر .. أجابتنى على لطمتى الثانية بالصمت والصبر .. وكتمت السهم فى صدرها وتركته ينزف فى سكون ..

وحلت الحرب وذهبت إلى الميدان وفى أحد المواقع انفجرت فى وجهى إحدى قنابل العدو .

ومرت بى الأيام وأنا فاقد الوعى .. فلما أفقت فتحت عينى فلم أبصر سوى ظلمة حالكة وتحسست وجهى فإذا به ملىء بالجروح والندوب .

سألت عنها .. فعلمت أنها هجرتنى كما هجرت زوجها .. الأول من قبل .

وأحسست بالوحشة من حولى .. ووجدتنى أتحسس طريقى إلى حيث تدفعنى ذكريات عزيزة حلوة .. وإلى حيث وجدت لى على المقعد الخشبى مستقرا أمينا .

إنى أسمع صفير الريح .. وأسمع شيئا آخر بين الصفير .

إنه صوت أقدام تقترب ..

إنى أحس برجفة وخشية .

من هناك ؟ من ذا الذى يتسلل نحوى فى الظلمة ؟ لعلى واهم .. إنه لا شك صوت الريح تقرع الأغصان ..

لا لا .. لست بواهم . إن الأقدام تقترب . وتقترب .

من هناك ؟

ما هذا ؟ يد توضع على كتفى وتتحسس وجهى ! إنى لا شك حالم .. إنها هى .. نفس اليد الرقيقة الدقيقة الحلوة الحنون ..

أجل .. إنى أعرفها من ملايين الأيدى ..

إنها زوجتى . الصامتة الصابرة .

أحس وجهها على وجهى . وعبراتها الساخنة تدفئ خدى إنها لم تنكرنى ..

إنها تهتف باسمى .. وتحمد الله على نجاتى وعودتى إليها . إنها تجلس بجوارى كما كنا نجلس فى زمن غابر ..

إنى سعيد . لقد أضاء قلبى مرة أخرى .. فأغنانى عن ضوء عينى ..

حمدا لله ..

عـــــودة .

إنه لا شك ما زال ينتظر وقد ترك كل شيء كما هو حتى تعود ..

ورفعت بصرها إلى أعلى فإذا بإحدى النوافذ تضيء ..

وبدأ من وراء الزجاج شبح يتحرك ..

كانت الريح تهب صرصرا عاتية .. والسماء مثقلة بستار أسود من السحب المتكاثفة حجب النجوم فلم يعد يستبين خلاله بريق ولا لألاء .. بل كل ما فيه ظلمة فى ظلمة وسواد فى سواد .

والشارع مقفر موحش لا يسمع فيه دبيب خطى ولا وقع أقدام .. وعلى جانبيه تناثرت الدور فى الظلمة كأنها أشباح جاثمة وقد أحاطت بها الأشجار متلاطمة الأوراق مترنحة الفروع قد اتخذت منها الريح نايا تصفر فيه ألحانها المذعورة وأنغامها المكتئبة ..

وفى تلك الظلمة الموحشة والجو العاصف المكفهر سارت تسترق الخطى حائمة حول السور القاتم الكثيف .. ترفع عينيها فى حذر إلى نوافذ الدار التى لا يبدو منها بصيص ضوء .

ولم تكن الحلكة المخيمة لتبدى منها سوى شبح أسود يرتجف مذعورا فى مهب الريح .

من كانت ؟

متسولة .. بائسة .. جائعة .. تطلب مأوى . وتستجدى لقمة ؟

تبدو كذلك .. ولكنها لم تكنه .

أجل .. أنها تبدو هائمة ضالة .. ومع ذلك فما أحست فى حياتها أنها قد

اهتدت إلى مرفأ وأوشكت أن تستقر كما كانت تحس فى تلك اللحظة .

إن البرد ليجمد أطرافها .. ولكنه يعجز عن أن يصل إلى قلبها الذى يفيض حرارة ويشع دفئا .. وأن الريح لتعصف بجسدها الواهن فتكاد تذروه كالهشيم .. ولكنها ترتد أمام روحها القوية المليئة بالأمل المفعمة بالحياة ..

لقد عادت أخيرا بعد طول نأى ومرارة فرقة .. ووقفت تتطلع إلى النوافذ المعتمة كما يتطلع مهجر فى الفلاة إلى قطرة ماء ..

من كان يصدق أنها ستعود ثانية ؟

بعد هذه السنين الطويلة من اليأس والحرمان والانطواء فى الجحور القذرة المظلمة كالجرذان تعود مرة أخرى لتتنفس من الهواء الطلق عبير الذكريات .. وتبصر بعينها شبح الماضى الجميل يتجسد ثانية .. ويقف صرحه بين الأنقاض شامخا مضيئا ..

هذه هى الدار التى قضت فيها أهنأ ساعات حياتها .. ساعات مرت بها حثيثا كأنها حلم ..

إنها تقف على قيد خطوات من فردوسها الضائع ونعيمها المفقود .. لا يحجبها عنه سوى ذلك السور وتلك الجدران .. وحتى تلك لا تستطيع أن تحجبه عنها .. فهى تستطيع أن تبصر بقلبها الملهوف وذهنها المشوق كل ما وراء الجدران .. تماما كما تركته .. لم تمتد إليه يد التغيير والتبديل ..

ألم يقل لها ذلك عندما افترقا آخر مرة ؟

إن صوته ما يزال يتردد فى سمعها وهو يقول هامسا :

— إن من العبث أن أقول الآن شيئا .. فالكلمات تبدو أمامى ضئيلة عاجزة . ولكنى سأقول بعد ذلك . عندما تعودين ذات يوم لنواصل الحياة معا . إنى سأنتظر .. لن أمل الانتظار مهما طال .. وسيبقى كل شىء كما تركته لن تمسه يد حتى عودتك ..

عودتها ! كم كانت تبدو عجيبة وقتذاك . ولكنها الآن قد تحققت وأضحت

غيبتها هى التى تبدو أمرا عجيبا .. فهى لا تحس أنها قد غابت قط بل كانت تلك الفترة الثقيلة المظلمة مجرد كابوس مزعج ..

هذه هى الدار .. دار الهناء ودار السلام .. تماما كما تركتها .. لا يفصلها عما بها زمن ولا مادة .. بل إنها تعود إليها كما كانت تعود بعد غيبة يوم أو بعض يوم .. لا تكاد عودتها تفترق إلا فى بعض المظاهر السطحية التافهة ..

لا بأس عليها .. إن الأمر سيعود إلى سباق عهدها به .. وستعود إليها تلك المظاهر الحلوة الممتعة ..

أجل .. ستطلب منه أن يحملها بيديه ويغرق وجهها وعنقها بالقبل كما كان يفعل دائما كلما عادا معا إلى الدار فى كل ليلة ..

ولكنها لن تكون فى حاجة إلى أن تطلب منه ذلك .. لأنه سيفعله من تلقاء نفسه .. سيذهل لحظة من لقائها ولكنه عندما يفيق من أثر المفاجأة سيوسعها عناقا وتقبيلا وستنبئه هى أنها سترضخ لمطالبه وسترضى بالاستقرار إلى جواره وتكف عن مطامحها .

كانت حمقاء عندما رفضت . قاتل الله الصبا والغرور والكبرياء والآمال الواسعة والمطامع السرابية البراقة .

لقد أغرتها الشهرة والنجاح وكانت تخشى أن تفقدهما إذا استقرت بجواره وهجرت حياة الأضواء والضجيج .

إنها تذكر كيف كانت تقف على خشبة المسرح لتؤدى دورها فى إحدى المسرحيات الغنائية الجديدة وتشدو بإحدى الأغنيات وقد اشرأبت نحوها الأعناق وجمدت النظرات وأرهفت الأسماع وأضحت الجماهير المنصتة كتلة أعصاب وأحاسيس .

وكان هو واحدا من بين تلك الجماهير .. قطرة فى عباب وذرة فى رمال لا تستطيع عيناها أن تميزا وجهه بين مئات الوجوه . فكلهم عيون محملقة وحناجر هاتفة وأياد مصفقة ولم تكن لتحس له وجودا حتى قرأت فى اليوم التالى

نقدا فى الصحف بإمضائه ..

وأثارها النقد.. فقد كان لاذعا قاسيا.. وأدهشها أن يشذ هذا الناقد المغمور عن بقية النقاد الذين كالوا لها المديح وأغرقوها بالإطراء .. وأن ينهال عليها بمثل هذه القسوة والجرأة .

وحاولت ألا تلقى إلى نقده بالا .. وأن تتناساه . ولكنها وجدت نفسها تعيد قراءته مثنى وثلاث ورباع . لقد كان أكثر ما ساءها فيه أن كل ما به حقيقة واقعة .

وعرفته بعد ذلك مرة ثانية فى نقد آخر لفيلم سينمائى كانت تقوم فيه بدور البطولة .. ولم يكن ذلك النقد بأقل قسوة من سابقه ثم أخذ بعد ذلك ينهال عليها بالنقد تلو النقد حتى بدا لها كأن إنسانا استأجره لهدمها .. أو أن بينهما ثأرا قديما .

وأخيرا نفد صبرها ولم تجد بدا من وضع حد لهذا الهجوم المتواصل وإسكات هذا الناقد السليط الوقح المأجور فتحدثت فى التليفون إلى صاحب الجريدة وعاتبته على تلك الحملات المتوالية ودعته لتناول الشاى معها وسألته أن يصطحب معه ذلك الناقد الذى كرس نفسه لمهاجمتها .

واعتذر لها صاحب الجريدة وأنبأها أنه سيحاول دعوته .

وفى الموعد المضروب طرق الباب وأقبل الخادم عليها يحمل بطاقة باسمه .

لقد قدم وحده واعتذر عن صاحب الجريدة ..

الحمد لله .. سيهون ذلك الأمر .. إنها تستطيع بسهولة شراءه أو إغراءه .

ترى أى نوع من الرجال هو ؟

إنه لا شك أحد نوعين من الرجال : إما « هلفوت » ممن يسمون أنفسهم بالنقاد الفنيين ويتهجمون على الفنانين لقاء ضريبة مادية .. « أكلة » ... أو بضعة جنيهات أو ما أشبه وإما أحمق مغرور من أهل الفكر وأصحاب المبدأ الذين يظنون أنفسهم مبعوثى السماء ورسل الله لإصلاح الأرض وإرشاد البشر ...

أجل ... إنه لن يعدو أحد هذين الرجلين ..

لا بأس .. وليكن من كان . فلا تظن أنه سيستعصى عليها مادام رجلا ..

فإذا كان من النوع الأول فأمره هين : دراهم معدودات وإن كان من النوع الثانى فستعلمه بعينيها وصدرها وساقيها كيف يتنازل عن مبادئه ويعدل عن إصلاح الناس ونقد أحوالهم ..

وبهذه الأفكار سارت تتهادى إلى حجرة الصالون .. عجبا ! كيف حدث هذا ؟ لا شك أن هناك التباسا أو خطأ .. فهو لا يمكن أن يكون ذلك الواقف أمامها وقد أولاها ظهره ووضع يديه فى جيوبه وأخذ يتطلع إلى الصور المعلقة .. ويصفر بفمه أحد ألحانها ..

أجل .. إنه لا يمكن أن يكون صاحب البطاقة لسبب بسيط .. هو أنه ضابط يرتدى الحلة العسكرية وليس بناقد ولا صحفى ..

وأحس بوقع أقدامها فاستدار إليها .

ومضت برهة وهى تحدق فيه فى صمت ودهش .. ثم قالت متسائلة :

ـــ حضرتك ...

ـــ أجل ... أنا هو .

لشد ما أخطأت الظن .. فما كان الرجل بأحد النوعين اللذين كانت تجزم بأنه لا بد أن يكون أحدهما .

إنه قطعا لم يكن « هلفوتا » من أهل الفن .. ولا كان متكبرا مغرورا من أهل الفكر وأصحاب المبادئ ..

لقد كان مجرد ضابط لا تبدو عليه أية صلة بالفن ولا بأهله . كان ضابطا عاديا .. أو على الأصح ضابطا نموذجيا بحلته الأنيقة المنطبقة على جسده وحزامه الجلدى المشدود على وسطه والنجوم اللامعة على كتفيه وصدره البارز وقوامه المعتدل وملامحه الجذابة وقد كست وجهه ابتسامة لطيفة . ومد يده فضغط على يدها فى ترحيب وإخلاص .

وتملكها بعض الارتباك .. فقد أحست أن كل ما أعدته لمواجهة الرجل قد انهار من أساسه .. لأنه كان من نوع لم يخطر ببالها قط . نوع محير يحتاج قبل كل شيء إلى فهمه ..

وأشارت إليه بالجلوس .. وجلس الاثنان يواجه كل منهما الآخر .. وساد بينهما جو من الخجل والتكلف كان من العسير التخلص منه . ورفعت عينيها إليه . ثم عادت تسأل مرة أخرى :

— حضرتك .. ؟

ولم يتمالك من الضحك وأجاب :

— أجل .. إنى هو . أترينه أمرا عجيبا .

— طبعا عجيب .. لم أتوقع قط أن أراك كما أنت .. لم أكن أتوقع أن الضباط يعملون بالصحافة والفن .

— ولكنى لا أعمل بالصحافة أو الفن .

— كيف .. ألست أنت .. ؟

— أجل أنا .. ولكنى لا أعمل صحفيا أو ناقدا .

— ألست أنت صاحب المقالات التى أقرأها بإمضائك ؟

— أجل ولكنى لا أكتب سواها .

— أتريد أن تقول ..

— إنى لا أعمل فى الصحافة والفن .. سوى نقدك أنت .

— نقدى أنا ولم ؟

— لكى تفعلى ما فعلته اليوم فقط .

— لا أفهم .

— لكى توجهى إلى دعوة للتعارف بك .

وهزت رأسها فى حيرة وذهول وعادت تسأل فى بطء .

— أتعنى أنك كتبت كل ما كتبت من هجاء ونقد وسباب لمجرد الرغبة فى

التعرف بى ؟ أأنت مجنون ؟

ــ أجل .. مجنون بك !

ماذا تقول له ؟ هذا آخر ما كانت تتوقع ..

مجنون بها ! هكذا مرة واحدة ! بلا مقدمات ولا تمهيدات ..

ولأول مرة فى حياتها الفنية تحس بالارتباك أمام رجل يغازلها . لقد عادت مرة أخرى صبية خجولا . ولكنها سرعان ما تخلصت من ذلك الإحساس الذى وضعها فيه .. وعادت تقول ساخرة :

ــ حضرتك مجنون بى ؟ بى أنا ؟

وابتسم ابتسامته اللطيفة وأشار بسبابته مؤكدا :

ــ منذ خمس سنين وأنا أتابع كل آثارك من غناء وتمثيل حتى جننت بك . وأخيرا قررت أن أعرفك .

ــ ولكن ألم تجد طريقا أعقل من هذا ؟

ــ لم أجد أضمن منه .

ــ لو علمت ذلك لدعوتك من أول مقال ووفرت عليك وعلىّ مشقة النقد .

وهكذا تم التعارف بينهما . وتكررت الدعوات والزيارات . وبدأ الجنون يسرى منه إليها . ولم يمض شهر حتى أضحى الجنون متبادلا .. وإذا بها تجن به كما جن بها .

وبدأ الاثنان حياتهما معا فى هذه الدار .. حياة لم تكن من الواقع فى شىء .. بل كانت حلما لذيذا .. حلما خلع عليه الحب أبهى حلله وسلط عليه أجمل أضوائه .

لقد كانت تمثل أدوار الحب وهى تعتقد أن الأقوال والأحاسيس التى تحاول أن تمثلها ليست سوى مبالغة كتاب وأوهام شعراء . ولكنها تعلمت بعد ذلك أن الحب الواقعى يفوق كثيرا الأوهام . واقتنعت بأن الكلمات لم تعجز فى شىء

عجزها عن وصف حلاوة الحب ومتعته .

كان ينتظرها دائما حتى تنتهى من المسرح .. وتسير بهما العربة فى الطرقات الصامتة المظلمة وقد وضعت رأسها على كتفه وأحاط عنقها بذراعه حتى يصلا إلى البيت فيحملها بين يديه وينضو عنها ملابسها ويرقدها فى الفراش كأنها طفلة صغيرة ..

وكانت تستيقظ على قبلاته فى الصباح إذ كان يضطر إلى التبكير فى الاستيقاظ لحضور الطوابير ويتركها نائمة حتى يعود إلى البيت مرة ثانية .

وأحس هو أن حياته الجديدة قد نهكته .. وأنه لا ينال قسطه من النوم والراحة .. وأنه كثيرا ما يذهب متأخرا عن موعد الطابور . فرغب فى حياة الاستقرار وسألها الزواج ..

ولم يكن هناك أحب إليها من ذلك .. ولكنها كانت تكره أن تترك مجدها وتتخلى عن شهرتها ومركزها .. وكانت واثقة أن حياة الاستقرار بجواره ستكون حياة تقشف وأنها ستحرمها مواردها من الأفلام والمسرح ..

لقد كانت تحبه .. وكانت تحب فنها .. وكانت تعرف الزواج جيدا .. تعرف أنه يقتل الحب ويقتل الفن .. وتعرف مركز الزوجات لدى الرجال .. ولذا عزمت على أن تبقى حياتهما كما هى .. وأن يظلا عشيقين حتى آخر العمر .

وهكذا استمرت حياتها سلسلة من العشق الجنونى . حتى بدأ القدر يزج فيها بدخيل جديد .. قلبها رأسا على عقب .

لم يكن جديدا فى الواقع .. بل كان أقدم منه فى حبها ولكنه كان خفيا مستترا .. كان مدير المسرح الذى تعمل فيه .. والرجل الذى انتزعها من زوايا الخمول .. وكان له الفضل فى ظهورها وشهرتها .

لم تكن تعلم أنه يحبها حبا جديا .. بل كانت تتخيل أن كل ما يكنه لها لا يزيد على إحساس أستاذ لتلميذته . حتى بدأت تحس بتطور معاملته لها وتجهمه لها .. وتبرمه بها .. وظنت أن ما به قد يكون ناتجا عن كثرة الجهد وتعب الأعصاب

وحاولت أن تسترضيه تارة وتتحاشاه تارة أخرى حتى خلا بها ذات ليلة .. فإذا به يعرض عليها حبه .. ويسألها الزواج منه .. ويطلب منها أن تقطع علاقتها بصاحبها .. وأصابها ذهول شديد .. فما كانت تتوقع منه هذا الأمر . وحاولت أن تصده برفق .. وأن تفهمه أنها لا تحس له إلا إحساس صداقة . وأن ليس هناك قوة تستطيع أن تفصلها عن صاحبها .

وظنت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد .. وأن صاحبنا قد اقتنع بردها .. وكف عن حبه ولكنها استيقظت ذات صباح بعد بضعة أيام فإذا بها تسمع مناقشة حادة .. استطاعت أن تميز خلالها صوت الرجلين صاحبها ومدير المسرح . وقد احتد كلاهما وبدا الغضب فى نبراتهما ..

وأدركت أن النزاع لا شك من أجلها .. وأن الرجل لم ييأس من حبها وأنه يقرع الباب الآخر ويحاول أن يقنع حبيبها بالابتعاد عنها .

وازداد النقاش حدة وتعالت الأصوات . تتخللها ألفاظ السباب القارصة .. وفجأة سمعت ضجة تبعتها صرخة حادة وصوت سقوط جسم ثقيل .. واندفعت تعدو إلى الحجرة مرتاعة .. فوجدت صاحبها قد انحنى مذعورا على جسد الرجل بعد أن تشابكا وضربه ضربة ألقت به على الأرض .. فاصطدم رأسه بحافة الأريكة وأخذت الدماء تنزف منه ..

وسألته وهى ترتجف عما حدث فطلب منها أن تعنى بالرجل حتى يذهب لإحضار الطبيب أو استدعاء الإسعاف وانطلق يعدو إلى خارج الدار .

وهكذا وجدت نفسها وحيدة مع الرجل الجريح وقد أخذت الدماء تنزف من رأسه .. وتركت الحجرة وذهبت لإحضار بعض القطن لإيقاف النزيف .. ولكنها عادت لتجد الرجل جثة هامدة .

أجل لقد قتل الرجل !

ومن قاتله ؟

توأم نفسها .. وصنو روحها ..

وقتله لمه ؟

لأجلها هى .. إنها هى السبب فى كل ما حدث .

وبدأت تمر بذهنها صورة سريعة مظلمة لما يحتمل أن يعقب ذلك من حوادث فأبصرت حبيبها مكبلا بالأغلال ملقى فى أعماق السجون وقد تحطمت حياته وضاع مستقبله . وذرا القدر آماله وأحلامه ..

أهكذا تحل الخاتمة بهذه السرعة ..؟ وبمثل هذه الطريقة الفاجعة ..؟

ولكن لا .. إنها لن تتركه يتردى فى الهاوية .. لا بد أن تنقذه .. إنها تستطيع أن تفتديه .. وستتحمل هى وزره ..

أجل .. ستقول إن الرجل حاول الاعتداء عليها فصدته عنها وانزلقت قدمه إلى الأرض ..

ولكنه لن يتركها تقول ذلك ولن يقبل منها التضحية وسيعلن الحقيقة للملأ ..

إذا فلتخدعه هو نفسه .. وتفهمه أن الرجل أفاق من إغمائه .. وأصابته ثورة جنونية وأنه حاول قتلها .. فدفعته دفعة ألقته على الأرض ومات من جرائها ..

قول هراء ! لن يصدقه . فهى لا تستطيع دفع إنسان هائج ثائر دفعة تقتله ..

إن هناك طريقة واحدة تستطيع إقناعهم جميعا بأنها القاتلة .

واندفعت من الحجرة .. أشبه بمجنونة .. وسرعان ما عادت تحمل مسدس صاحبها وسحبته من جرابه الجلدى . وبيد مرتجفة محمومة وضعت فوهته على رأس القتيل فى موضع الجرح ثم أطلقته .. وخرت مغشيا عليها ..

إنها لا تدرى الآن كيف واتتها الشجاعة لكى تفعل ما فعلت .. لقد كانت فى حالة جنون ..

وأفاقت على صوت صخب وضجيج .. وأناس يغدون ويروحون .. وكانت ذاهلة شاردة . ولم تقل شيئا سوى أنها هى القاتلة ..

وهكذا أودت الصدمة بعقلها .. ومرت بها الأيام وهى حبيسة بين

المجانين .. حتى بدأت تفيق رويدا رويدا .. وتسترد عقلها .. وانطلقت من المستشفى تتمتع بالحرية وساقتها قدماها إلى حيث ينتظر صاحبها ..

إنه لا شك ما زال ينتظر وقد ترك كل شيء كما هو حتى تعود ..

ورفعت بصرها إلى أعلى فإذا بإحدى النوافذ تضيء .. وبدا من وراء الزجاج شبح يتحرك ..

إنه هو .. إن قلبها يكاد يقفز من بين ضلوعها ..

واختفى الشبح ثم أبصرت بنور السلم يضيء والباب الخارجى يفتح .. وعلى بعد خطوات ظهر صاحبها ..

يا الله .. لشد ما تغير .. لقد أضحى شخصا آخر .. هذا الرأس الأصلع .. والمنظار السميك .. قد بدلا خلقته . وهذا الجسد المترهل البدين.. كيف يستطيع حملها بين يديه .

ومع ذلك فهى ما زالت تحبه وهو لا شك ما زال يحبها .

وعبر صاحبها المسافة بين باب البيت وباب الحديقة ..

يجب أن تتقدم الآن وتعلن عن قدومها ..

وبخطوات مرتجفة أخذت تقترب منه فوصلت إليه وهو يهم بعبور الشارع .

إن صوتها لا يكاد يخرج .. حتى لكأن حنجرتها قد سدت .

وأدار هو بصره إليها ولمح وجهها على ضوء مصباح الشارع فلم يحرك ساكنا ..

وكان كل ما قاله بمنتهى الهدوء هو :

— على الله .

أو قد نسيها ؟ ولكن لا .. إن له بعض العذر.إن الظلمة تخفى ملامحها .. يجب أن تقول من هى ..

وبصوت متحشرج قالت هامسة :

— أنا مديحة ..

ــ مديحة !!

ونظر إليها فى ذهول .. ثم علا وجهه تجهم شديد وأخرج محفظته ومد يده بإحدى الأوراق المالية وقال بلهجة مقتضبة :

ــ أخرجت من المستشفى ؟ خذى هذا الجنيه .. عن إذنك لأنى ذاهب لإحضار طبيب لابنى ؟ دعينا نراك .

ما هذا ..؟ جنيه .! وابنه ..! أهو متزوج ؟

إنها لا شك قد أخطأت الدار التى يجب أن تعود إليها ..

وبعد برهة كانت تطرق باب مستشفى المجاذيب .. وفتح لها الحارس الباب وأدخلها .. وأغلق الباب .. وعادت الريح تصفر .. والمطر يهطل .. فى أنين ونواح وعويل وبكاء .

أمنية ضائعة

لقد كنت أحب الديار، وما بها، وما حولها، كانت رؤية الشجر الوارف من بعد تثير فى نفسى الشوق وتبعث الحنين، كنت أحب الدار حجرا حجرا، وشجرة شجرة.

عجبت له ما روعه من موت تلك الفتاة التى ما ظننت قط أن له أية علاقة بها أكثر من علاقة طبيب بمريض علاقة لا يزيد عمرها على بضعة أيام .

علام كل هذا الحزن الذى يكاد يبلغ حد الجنون ؟ لو كان كل طبيب يصيبه على موت مرضاه ما أصاب صاحبنا لرجل كل وراء ميت طبيب . ما له قد ذوى وذبل حتى أضحى كشبح يتحرك أو هيكل يسعى .. إنى أعرف عنه ثبات الجنان وهدوء العاطفة . وأعرف تحفظه الشديد مع النساء .. حتى لقد كنا نسميه « بالتقيل » أو « البارد »فقد كان نحوهن جامد الحس متبلد المشاعر ، ما سمعت له عن مغامرات ولا وقائع حال ، بل كان شديد الانهماك فى عمله يركز فيه كل جهده ويصرف فيه كل وقته ..

ولم يكن عجبى لحزنه مبعثه أن موت المريضة لم يكن يستحق الحزن .. بل على النقيض ، لقد حزنا كلنا من أجلها فقد كان موتها فاجعة أليمة .

كيف لا ، وقد كانت فتاة فى مقتبل العمر وميعة الصبا ؟ وكانت كما قيل لى ، كالزهرة الناضرة تضوع عبيرها وحان قطافها ، وتمت خطبتها ولم يعد بينها وبين الزفاف إلا أيام قلائل لم تكد تنتهى حتى زفت إلى القبر وشيعت إلى الثرى .

كان موتها إذا فاجعة تورث الشجن وتدمى القلب ، ولقد حزنت أنا عليها رغم أنى لم أرها ، وكان خليقا بى والأمر كذلك ألا أعجب لحزن صاحبى وقد

رآها وباشر علاجها . خلال مرضها القصير الذى أودى بها ..

ومع ذلك فقد عجبت لحزنه ، إذ كان حزنه فوق كل تصور ، وبدا لى كأن موتها قد روعه كما لم يروع خطيبها نفسه بل إنى لأستطيع أن أجزم أن أمها الثكلى كانت أكثر منه تجلدا وصبرا .

كان فى شرود دائم وذهول مستمر كأنما أصابه من موتها جنة أو مسه خبل ، ورأيته يعرض عن الناس وعن العمل ويهجر مرضاه وعيادته ويخلد إلى الوحدة مغرقا فى التفكير والحزن .

أيمكن أن ينشأ هذا الحب لمريضته الراحلة خلال بضعة أيام قضاها إلى جوارها تلفظ آخر أنفاسها ؟

أيمكن أن ينشأ هذا الحب الجنونى الذى أورثه الفجيعة وأفقده الرشد ، من نظرات خاطفة وكلمات عابرة بين طبيب ومريضة فى نزعها الأخير ، أو بين حى وميتة ؟

ليس من السهل أن يتصور الإنسان أن شيئا كهذا يمكن حدوثه ، فما أظن هناك حبا يمكن أن يولد فى هذا الجو المشحون بالمرض والرهبة والوجل ، وما أحسب أن هناك وقتا لدى الطبيب فى مثل هذه الظروف التى يجثم فيها شبح الموت على النفوس أن يفكر فى حب أو يشتبك فى غرام .

أمر عجيب .. وأعجب منه وأشد إيلاما أن يترك الطبيب هكذا ممعنا فى لوعته مغرقا فى أساه ، ويستمر فى حالته العجيبة كأنه عود يذوى وشجرة تجف .

ولقد حاولت مرارا أن أعيده لنفسه أو أعيد إليه نفسه وأن أخرجه من عزلته وأرفه عنه بمحاولات شتى باءت كلها بالخيبة ، وأخذت أسوق له النصح وأقص عليه النكات ، ولكنه كان جامدا كالصنم ، شارد الذهن كالمجانين ، حتى تملكنى منه فى النهاية يأس وغيظ وأحسست تعجبى منه يتطور إلى غضب عليه حتى لقد صحت به .

— علام كل هذا الحزن واللوعة ؟ ما لك ولها ؟ ماذا كانت هى بالنسبة

إليك ؟ إنك لم تحزن على أمك كحزنك عليها ، هبك عشقتها من أول نظرة ، ماذا كنت ترجو منها وهى فتاة مخطوبة كانت توشك أن تصبح زوجة بعد بضعة أيام وماذا كان أملك فيها ؟ كلنا حزنا ولكن فى حدود العقل. إن ما تفعله هذا هو الجنون بعينه ، يا أخى كلنا سنموت ، من الذى سيخلد فى هذه الدنيا ؟ فما بالك تكاد تقتل نفسك أسى وكمدا ؟!

واستمررت فى حديثى الغاضب وهو مطرق برأسه فى صمته الأليم ، ثم وجدته يرفع إلى عينيه ويطلق من صدره زفرة حارة ويجيبنى قائلا :

— لا فائدة .. وفر حديثك ونصائحك ، فلو استطعت ألا أحزن ما انتظرت نصحك حتى أكف عن الحزن ، إنى أحس بنفسى غارقة فى دياجير من الحزن لا نهاية لها ، أحس أنى أرزح تحت عبء من المرارة يجثم فوق صدرى ويكتم أنفاسى ، كيف أستطيع أن أخرج مما أنا فيه إذا كان الذهن لا عمل له إلا تذكرها حتى ليخيل إلى أنه قد أضحى أشبه بالساعة فى كل دقة من دقاتها نطق باسمها ، إن الذهن لا يذكر إلا هى .. هى .. هى .. كيف أكف عن حزنى عليها ؟ أنا أراها مغمضا ومبصرا ونائما ويقظانا وواعيا وحالما .. إنى لا أستطيع مهما حاولت أن أبصر سواها أو أفكر فى غيرها ؟

— كل هذا قد فعلته بك معرفة بضعة أيام ؟

— بضعة أيام من قال لك هذا ؟ من قال إنها معرفة بضعة أيام ؟ ولكن معك حق ، أنا نفسى كنت أتخيلها تحسب الأمر كذلك حتى أدركت أنها تعرف كل شىء .

— لست أفهم ما تعنى . فسر لى الأمر . برر لى حزنك على الأقل ، ما دمت لا تستطيع الكف عنه ، لا تدعنى أجل أنا الآخر من أجلك .. هلا كشفت لى عن علتك على أجد لك علاجا ..

— علاجا ؟! لا أظن أحدا يملك لى علاجا .. لقد كانت وحدها تملك العلاج ، أما وقد ذهبت فلم يعد لى علاج إلا فى يد الزمان ، دع الأمور للزمان

ليفعل ما يفعل ، فما عدت أهتم بشىء ، وما عاد لى أمل فى شىء .

ـــ ليكن ما تشاء .. ولكن أهناك ضرر من أن تحدثنى عن سبب ما بك ؟ متى كان أول معرفتك بها ؟

ـــ أول معرفتى بها هى أول معرفتى بالحياة .. هى أول إحساس لى بأنى كائن على ظهر الأرض .. منذ زمن بعيد ، بعيد جدا ، كأنى به فى أول التاريخ ، أو بداية الخليقة .

كنت وقتذاك صبيا « جربوعا » أحد أربعة أبناء لموظف درجة سابعة .. وكنا نقطن فى جنينة لاظ .. فى شقة لا تزيد على ثلاث حجرات فى بيت يطل على حارة السيدة من طرفها المنتهى عند شارع الخليج .. ولم يكن هناك وجه للمقارنة بينى وبينها ، وبين أهلى وأهلها ، وطبقتى وطبقتها ، وشقتنا المظلمة وقصرها المنيف ..

كانت تقطن فى حى المنيرة فى أحد القصور الفخمة التى يحيط بها سور حديدى مكسو بالنباتات المتسلقة ، وتطل من ورائه الأشجار العالية المحملة بالثمار والتى تكاد تخفى وراءها معظم القصر اللهم إلا بضع شرفات تطل من عل ، وعلى الباب الحديدى الضخم يجلس حارس أسود الوجه أبيض العمامة والثياب ، غليظ الشفتين لامع الأسنان براق العينين ، وفى أحد أركان السور تقوم « العربخانة » وقد احتوت على العربات الحنطور والدوكار والخيول العربية الأصيلة التى يسمع صهيلها من آن لآخر ، وفى الجانب الآخر من السور يقوم السبيل ذو الواجهة النحاسية اللامعة المزركشة وتبدو من وراء الواجهة الشبيهة بحاجز من الدانتلا حنفيتان ربط فى كل منهما كوب نحاسى .

تلك كانت دارها كما تبدو من الظاهر ، أو كأقصى ما استطعت أن أبصرها ، أما دارى ، فحدث عنها ـــ فى الفقر والتواضع ـــ ولا حرج .. يصبح الصبح علينا فنجتمع أربعتنا حول « سلطانية » الفول التى تعوم على سطحها بقع لامعة من الزيت الحار ، وندب أيدينا الأربع فى وقت واحد باللقم الأربع فنخرجها

محملة ملأى لتغيب فى أجوافنا فى غمضة عين .. وتصرخ فينا أمنا منذرة بألا « نخف » وإلا انتهى « الغموس » سريعا واضطررنا إلى التكملة « بعيش حاف » .. ونستنفد ما بالسلطانية ثم نتفرق من حولها ، وأذهب إلى دورة المياه الضيقة المظلمة التى لا تكاد ترى فيها أصبعك والتى تعرف محتوياتها وتتحرك فيها بحكم العادة : فأغسل يدى ووجهى ثم ألبس بدلتى وأحمل كتبى وأنطلق هابطا على الدرج الحجرى المتآكل ، وبى من الانتعاش والسعادة ما بالمقدم على عرس أو المقبل على فردوس ..

وأجتاز شارع الخليج إلى حى المنيرة وتلوح لى دارها فيخفق قلبى بشدة ، لقد كنت على غير مذهب قيس حين يقول :

وما حب الديار شغفن قلبى   ولكن حب من سكن الديارا

لقد كنت أحب الديار ، وما بها ، وما حولها ، كانت رؤية الشجر الوارف من بعد تثير فى نفسى الشوق وتبعث الحنين ، كنت أحب الدار حجرا حجرا ، وشجرة شجرة ،كنت أحب العبد الأسود الرابض أمام الباب ، والكلاب النابحة فى الحديقة ، كنت أحب عبق الياسمين الذى يحمله النسيم إلى أنفى ، ولم يكن حبى لرائحة « العربخانة والخيل » بأقل من حبى للياسمين . لقد كان كل ذلك جزءا منها ومتمما لها . كنت أقترب من الدار فأتلكأ وأتباطأ حتى أصل إلى السبيل فأقف به وأتشاغل بالشرب منه وأظل أشرب وأشرب حتى يلوح لى شبحها فى الشرفة فأشعر أن قلبى كف عن الخفقان ولا أعود أحس بما حولى وآخذ فى التسامى حتى أحلق فى أجواز الفضاء .

ويحها .. أى سحر كانت تسلطه على ؟ من يصدق أنها كانت طفلة فى التاسعة ؟ هذه التؤدة والاتزان والوقفة الرفيعة الأبية الشماء . من أين لها بها وهى ما زالت فى طور العبث والقفز والجرى ؟

من يومها .. وهى هى ، ما تغير شىء فيها ولا تبدل .. اللهم إلا نمو فى الجسد واستواء فى الأعضاء ، أما الخلق وأما الحركات والتصرفات فما أظنها

تغيرت قط . كانت تقف فى الشرفة متكئة على جدارها وقد أسندت ذقنها إلى كفها وشعرها الذهبى منساب على كتفيها كأنه السبائك وكانت تسبح ببصرها فى الأفق البعيد .

وحدث ذات مرة أن صادفتها وجها لوجه ، فقد كنت عائدا من المدرسة قبل العصر وكنت فى أشد حالات « الجربعة » و« البهدلة » ومررت بالدار كعادتى فإذا بى أجدها أمام الباب تهم بركوب إحدى العربات هى وبعض أهلها ، واتسعت عيناها وعلت شفتيها ابتسامة حلوة ، أو هكذا خيل إلى ، ووجدت نفسى أتعثر من فرط الارتباك وبدا لى أنى أصبت بما يشبه الغيبوبة ، لم أفق منها إلا والخيل تضرب الأرض بحوافرها والعربة تنهب الأرض نهبا ، وعدوت وراء العربة « وتشعبطت » على مؤخرتها . لقد كانت فرصة قل أن يجود بها الدهر وسارت العربة تخترق الطرقات وأنا معلق بمؤخرتها وقلبى يدق بعنف كأنى وصاحبتى على موعد فى خلوة . واستمرت العربة فى سيرها حتى وصلت شاطئ النيل فتمهلت وسارت بها الخيل الهوينا ، فهبطت من مكمنى وسرت بجوار العربة أسترق النظر إلى صاحبتى من قرب .

أى فوز هذا الذى أحسست به يومذاك وأنا أسير بجوار العربة أعدو إذا ما أسرعت وأتمهل إذا ما تمهلت . لقد كان بى من السعادة ما يتضاءل بجواره لقاء العشاق .

واستدارت العربة لتعود من حيث أتت ، وحاولت أن أتخذ مجلسى وراءها لولا صيحة من أحد المارة الخبثاء : (كرباج ورا يا أسطى) . أحسست عقبها بالكرباج يهوى على كتفى ويلتف على ساقى فأهبط إلى الأرض وأصيح باكيا.ولم يكن هذا شر ما أصابنى فى ذلك اليوم المشهود ، فقد عدت إلى الدار متأخرا عن موعد المدرسة بما يقرب من الساعتين واستقبلت فى الدار « بعلقة ساخنة » ، ومع كل ما أصابنى من الضرب فقد نمت ليلتى قريرا راضيا وبى من فرط السعادة ما أنسانى لسعة الكرباج وضرب العصا .

(مبكى العشاق)

تلك كانت أولى مراحل حبى . مرحلة عاجزة يائسة ، ومع ذلك لم أحس فيها قط بعجز ولا يأس ، فإنى لم أكن أتطلع إلى أكثر مما استطعت الحصول عليه ، نظرة من بعد ولقاء فى الأوهام . لشد ما كنت أجيد لقاء الأوهام . كنت أصورها لنفسى راقدة على ساق أعبث بيدى فى شعرها ثم أحملها بين يدى هابطا بها من الشرفة إلى الحديقة وأتسلل إلى العربخانة فأمتطى أحد الجياد وأجعلها أمامى وأعدو بها إلى جزيرة نائية ليس بها مخلوق سوانا ، فننشئ لنا بيتا كما فعل « روبنسون كروزو » وأعيش وإياها كما يعيش « طرزان » .

تلك كانت أعذب الأمانى التى لم تتحقق ، فقد استمرت هى فى قصرها فى المنيرة وبقيت أنا فى دارى فى حارة السيدة . وإن كنت قد انتقلت من مدرسة المنيرة الابتدائية إلى مدرسة الإبراهيمية الثانوية ، ورغم أن دارها لم تكن فى طريقى الجديد إلى المدرسة ، فقد كنت أطوف بها يوميا ، إذ جعلت من طريقى لفة واسعة تدخل دارها فى دائرتها .. كانت دارها هى محور حياتى ، وكانت وقتذاك أهم من دارى ومدرستى .

وبدأت المرحلة الثانية ، لا تختلف كثيرا عن المرحلة الأولى إلا فى أننى صرت أكثر اتزانا ، فلم أعد أستعمل السبيل كثيرا ، ولم أحاول الشعبطة وراء العربة ، وصرت أكثر ادعاء للأستقراطية وأكثر محافظة على أناقتى وعناية بهندامى .

وأهم من هذا وذاك أننى صرت أكثر اعتدالا فى أوهامى وأمنياتى ، فلم أعد أفكر كثيرا فى خطفها والهرب بها إلى جزيرة نائية ، بل لم أعد أتمنى أكثر من الجلوس وإياها فى حديقة النزهة أو الأورمان لنتبادل أحاديث الهوى والغرام .

ولم يكن لى شغل فى الحياة سواها ، وخيل إلى أننى عرفت عنها كل شىء ، وأننى درست — من فرط مراقبتها — كل طباعها وخلقها .

وبدأت المرحلة الثالثة بدخولى كلية الطب وبإحساسى بأنى قد أصبحت رجلا . وتطورت تمنياتى إلى توهمى خطبتها والزواج منها ، أقول توهمى لأن العلاقة بينى وبينها لم تزد على حد التوهم ، فقد استمرت هى كما هى ربيبة القصور

الرفيعة ، وبقيت أنا كما أنا ابن حارة السيدة المتواضعة ، الذى لم يدفعه إلى كلية الطب إلا هبة من الذكاء ساعدته على الحصول على مجانية التفوق .

ولست أدرى هل أحست بى خلال كل تلك المراحل من الحب والوله .؟ أعنى هل أحست بى كإنسان خاص بها ، له ما يميزه عن بقية الخلق ، وما يجعله يعنى لديها شيئا ، أم لم أكن لديها أكثر من عابر سبيل تنساه عقب كل مرة تبصره فيها ، وترى فيه إنسانا جديدا لم تره من قبل ؟

هل كانت تذكرنى ؟ هل كانت تعرفنى ؟ من يدرى ؟

ومرت بى الأعوام فى كلية الطب ، وكلما قربت من السنة النهائية ازداد بى الأمل فيها وقوى فى نفسى الرجاء بأن أصبح ندا لها ، ولعائلتها .

ولم لا ؟ أليس الطبيب الناجح مهما كان أصله ندا لأى أصل طيب ومحتد عريق ؟

وهكذا تجسدت آمالى على الأيام وتركزت فى أمنية واحدة وهى ألا تخطب حتى يتم تخرجى وأتقدم إليها .

أمنية متواضعة معقولة ، لم أكن أظنها كثيرة على القدر . كل ما كنت أطلبه هو أن يبقيها لى خالية حتى أصبح طبيبا ، ومع ذلك فقد أباها على .. أباها على بطريقة وضع فيها الكثير من سخريته . ففى اليوم الذى ظهر فيه خبر نجاحى وتخرجى متفوقا من الكلية ، قرأت خبر خطبتها ، وأقسم لك أنى لم أحس لنجاحى طعما ولا لذة .. ما فائدته ما دام لا يستطيع أن يحقق أحب الأمنيات إلى ؟ ما فائدة النجاح إذا كنت قد فقدت التى من أجلها تمنيت النجاح وسعيت إليه ؟ لقد سخر القدر منى فأخذ بيمينه ما أعطى بيساره ، ومنحنى الوسيلة وأضاع منى الغاية ، ما فائدة أقصى نجاح إذا لم يوصلنا إلى ما نشتهى .؟

وصمت صاحبى ، ووجدته يتنهد ويعتصر رأسه بيده ويغرق فى الصمت ، وقلت أستحثه .

— وبعد ذلك ؟

ـــ لا شيء . أنت أدرى بما حدث بعد ذلك . فقد مرضت كما تعرف وتولى علاجها الطبيب الذى أعمل مساعدا له ، ووجدت نفسي فى النهاية ملاصقا لها ..

تصور أنني بعد طول اللهفة والحرمان أجد نفسي بجوار فراشها وهى راقدة مستسلمة بنفس الهدوء والتؤدة التى كانت تقف بها فى الشرفة منذ أعوام عديدة ، ونفس الروح الجميلة الأبية والوجه المشرق والشعر المسترسل .. لقد أبيت أن أفارقها لحظة .. فقد كان كل شيء يجبرنى على البقاء بجوارها،حبى لها ، ورغبتى فى إنقاذها ، كنت أجد فى سهرى عليها راحة ومتعة.كنت أمسك بيدها وأجس النبض ، فأحس منها رجفة تسرى فى أوصالى .. وكنت أتحسس جبينها فأرتعد وأنتفض ، كأنى أنا المحموم وليست هى ..

وبدأت العلاقة تتوطد بيننا ، وأخذت أقص لها على سبيل التسلية ذكريات الماضى ، وقلت لها ضاحكا كيف كنت أجرع من السبيل من أجلها ، وكيف كنت « أتشعبط » وراء العربة ، وأريتها أثر السوط الذى مازال فى يدى ، وقصصت عليها كل شيء عنها .. حركاتها وسكناتها وأفعالها ثم قلت لها فى النهاية : كيف ضاعت منى الأمنية الأخيرة .. أمنية خطبتها ، وكيف قرأت خبر خطبتها يوم تخرجى ..

ضحكت كثيرا وسرت السعادة إلى نفسها وأنبأتنى أنها تذكرنى تماما وإنى لم أكن قط إنسانا جديدا فى كل مرة بل كنت دائما ـــ كما تمنيت ـــ شخصا مميزا عندها عمن عداى رغم أنها لم تكن تتوقع لى قط أنى سأضحى طبيبا محترما .

هذا هو الشيء الجديد الذى عرفته والذى فزت به ـــ وهو أنها كانت تعرفنى ـــ أما الشيء الآخر فقد كان أجل من هذا شأنا وأعظم خطرا .

فى ذات يوم وقد جلست وإياها أربت على يدها وأسليها ببعض الأقاصيص وجدتها شاردة الذهن غاربة البال وبدا لى كأن هناك ما يشغلها ، ثم سمعتها تقول فجأة :

ــ أما زلت تعتبر خطبتك لى أمنية ضائعة ؟ أوَ لو كنت خالية أكنت تقدم على خطبتى ؟

ــ طبعا .. ما فى ذلك شك !

وعندما أقبلت أمها بعد ذلك أنبأتها ــ لشدة دهشتى ــ أنها ستلغى خطبتها وأنها ستتزوجنى بمجرد أن تبل من مرضها ..

وزادت دهشتى عندما وجدت الأم توافق ببساطة على قول ابنتها وتقول مؤكدة إنى أكثر من خطيبها إخلاصا ، وأشد وفاء ، بعد أن كشف لها المرض مبلغ هذا الوفاء .

وهكذا وجدتنى فجأة أفوز بأقصى أمنية كنت أتمناها مدى حياتى ، الأمنية التى سعيت إليها طول العمر ، لقد فزت بها لأفقدها بمنتهى البساطة فى اليوم التالى ؟

كيف يحدث هذا ؟ ولم ؟ إنى أكاد أجن !

ألم يجد الموت على ظهر البسيطة سواها لينشب فيها مخالبه ؟ أنى أذكر الليلة الأخيرة ، أذكر صراعها مع الموت : آه لو كان إنسانا يرى ويحس لمزقته بأنيابى وشربت من دمه .

كيف يأخذها منى فى اللحظة الأخيرة ؟ اللحظة التى أحسست فيها بعد طول تمن وتشوق أنها قد أضحت لى .

أبعد كل هذا تلومنى على لوعتى وتطلب منى ألا أحزن .

ولم أجبه !

فقد كنت أنا فى هذه المرة ، المغرق فى الحزن والأسى .

ليتك تحبيني

حبيني يا حبيبتي .. أو اكرهيني .. إني أحبك .. أحب حبك . وأحب كرهك .. فلي في كل إحساس تمنحينني إياه عزاء وسلوى ، كل ما أرجوه منك . شيء واحد .. هو أن تذكريني ولا أظنك إلا فاعلة ..

عزيزتي ...

أشد ما أنا حائر فيما أرجوه منك .. أأرجو منك أن تحبيني أو تكفي عن حبي .

كم أود لو تحبينني كما أحببتني دائما .. وأن تمنحيني من نفسك الرفيعة وإحساسك المرهف وحبك الفياض .. ما تعودت أن تغدقيه علي .. فما أحسست أني في حاجة إلى حبك كما أحس الآن ..

إني أود أن أستمد منه شجاعة تعينني على ما أوشك أن أقدم عليه .. وأود أن أستلهمه عزاء يجعلني أقبل على النهاية قريرا راضيا .

ومع ذلك .. فإني أتمنى أن تكفي عن حبي .. وأن تنزعي من قلبك جذوره .. وتلفظيه من صدرك لفظ النواة . لأني أخشى عليك منه .. وأكره أن أسبب لك فجيعة تعصف بنفسك ..

كم أود أن تكرهيني لأني لم أعد ذلك الأناني الذي لا يحس إلا بنفسه ولا يأبه بإنسان سواه-إنني أستطيع أن أحتمل فجيعة كرهك ولكني أخاف عليك من فجيعة حبي .

اكرهيني .. أرجو . حتى لا توحشك غيبتي .. أو يؤلمك فراق .. أو

تفجعك نهايتى .

إنى أحبك .. وفى سبيل حبك .. أستطيع أن أحتمل كل مصاب .. حتى مصاب كرهك .. ما دام فى ذلك تخفيفا للوعتك .. وتهدئة لأحزانك .

ولكنى أعود مرة أخرى .. فأتلهف على حبك .. وتعز على نفسي .. التى طهرتها من الدنايا .. وخلصتها من الشوائب .. أن تحرم من حبك .. وهى ما استحقته كما تستحقه الآن .. وما تاقت إليه كما تتوق الآن .

حبينى يا حبيبتى .. أو اكرهينى .. إنى أحبك .. وأحب حبك .. فلى فى كل إحساس تمنحيننى إياه عزاء وسلوى .

كل ما أرجوه منك . شىء واحد .. وهو أن تذكرينى .. ولا أظنك إلا فاعلة ..

دعينى أعترف بفعلتى الشائنة .. فقد استمددت من توبتى قوة على الاعتراف وأضحيت أحس وأنا أكتب إليك أنى إنسان آخر .. نظيف محترم .. وبت أعتقد أنك لا شك غافرة لى .. ألم يقولوا « إن التائب من ذنب كمن لا ذنب له » .

أول ما أود قوله .. هو أنى لم أحبك — قبل الآن — قط .. وأن كل مشاعرى نحوك .. كانت رياء فى رياء .. ونفاقا فى نفاق .. وأنى كنت أخدعك لغاية فى نفس يعقوب وأنى كنت أوقعك فى حبى .. لأجعل من حبك لى قنطرة توصلنى إلى غايتى وأنك لم تزيدى قط فى نظرى .. عن مخلب قط .

ومع ذلك .. فإنى أحس أن مخلب القط .. لم يصب بسوء .. وإنما أحرقت النار أصابعى أنا .. وعلى وجه أدق أحرقت قلبى وجعلته هشيما تذروه الرياح ، إن النار لم تجرؤ على إصابة الطاهرين البررة .. فجاوزتهم إلى الأشرار الفجرة .. أنا محترق بنيران ندمى ونيران حبك .. أما أنت فقد جعل الله كل نار عليك بردا وسلاما .

لقد نصبت حولك الشراك . وأنت عذراء طاهرة نقية ما توقعت منى شرا

ولا أوجست خيفة .. بل أقبلت عليّ مرهفة .. آمنة مطمئنة .. تبذلين لى من مشاعرك ومن أحاسيسك أرق وأطهر ما بذل إنسان .

لست أدرى ما إذا كنت مخلوقا شريرا بطبعه فاسدا بسليقته .. أم أن الظروف الهوجاء هى التى دفعت بى إلى حمأة الرذيلة .. وهوت بى فى بؤرة الشر .. على أية حال وسواء أكنت هذا أم ذاك .. لقد وجدتنى فى النهاية عضوا فى عصبة أشرار من محترفى السوء ..

لا أريد أن أضيع الوقت فى وصف كيفية انزلاقى إلى الهاوية .. فلا أظن فى ذلك ملتمسا لعذر .. أو تخفيفا لذنب ولأنى لا أريد أن ألوث ذهنك النقى بمثل هذه الأقاصيص القذرة .. والأجواء الملوثة .

كنا نجتمع ليلا فى بؤرة من بؤر القمار حيث ندبر الخطط لإيقاع الصيد وسلب الأموال .. أو عقد صفقة المخدرات .. أو .. أو .. إلى آخر ذلك من فعل السوء والمنكر .

وفى النهار ، كنت موظفا فى إحدى الشركات الكبرى ، نقى الضمير محترم المظهر ..

ولم تكن ليالينا الحمراء بالدائمة الربح ، بل كانت عواقبها فى أغلب الأحيان غير مأمونة ، ولكن عندما كانت الصفقة تنجح ، كانت تعوضنا خيرا .

ولست أشك فى أن فعل السوء لا بد له من نهاية .. فكل شىء فى هذه الحياة له نهاية .. ولكنى لا أظن أن النهاية كانت تحين بمثل هذه السرعة التى حانت بها .. لو لم ألتق بتلك البوهيمية خليلة السوء .

كانت ممثلة معروفة .. بيضاء شقراء ، خلابة براقة ، من نوع يعتمد فى حياته على مواهب جسده .. سواء فى التمثيل أو فى الحياة .. ووجدتنى فى يوم وليلة صريع هواها وعبد جسدها .. فما كانت — كما قلت لك — أكثر من جسد ولست أدرى ما أعجبها فى .. ؟ أهى المغامرة ؟ أم تقارب الشر بين نفسينا ؟ أم أنها كانت لا بد أن تتصيد رجلا ؟ فكنت أنا ذلك الرجل ؟

لقد أقبلت على بادئ الأمر فمنحتنى اهتمامها دون غيرى من الخلان .. وبعث النصر نشوة فى رأسى . ولذ لى أن يكون بى ما أغراها . وأن تقع المرأة الذئبة بين براثنى ، وأقبلت عليها أنا الآخر . وانتحيت بها مكانا قصيا .

ومرت الأيام وكلانا يعب من كؤوس الهوى الشيطانى السفلى .. الذى لا يمكن أن يكون سواه صلة بين أمثالنا .

وقد بدأت الهوى وإياها على قدم المساواة .. كلانا — كما يقولون — فى الهوى سوى .. متساويان فى الشوق ، متساويان فى اللهفة والإقبال بكل منا من الرغبة والظمأ إلى صاحبه قدر ما بالآخر .. وأخذنا نعب ونعب .. فإذا بها ترتوى وإذا بالكأس يزيدنى ظمأ ، والجسد يزيدنى اشتياقا ولهفة .

لقد بدأت تمل وأخذت أزداد شوقا .. كنت فى نظرها صيدا قد انتهت منه ، وكانت فى نظرى غراما عنيفا مستعراه ووجدت أنه لم يعد هناك بد من أحد أمرين : إما أن ألفظها أو أبتاعها بالثمن ، وآخذ من جسدها بالنقد ما سبق أن منحتنى إياه مجانا لوجه الهوى ..

ولم أستطع بالطبع أن ألفظها .. ولم يكن لدى من الوقت ما أقضيه فى اختلاس الثمن من الليالى الحمراء .. بل لم تكن الليالى الحمراء نفسها أمينة على أن تهبنى الثمن الدائم .. فقد كانت فى أغلبها سوداء قاتمة ..

هكذا لم أجد أمامى .. بدل الليالى الحمراء السوداء ، إلا الأيام البيضاء فى عملى . وبدأت أستحلبها الثمن .. اختلاسا وسرقة ..

بدأت أسرق وأزور وأختلس .. أبذر لها النقود بذرا لأحتفظ بملكيتى لجسدها الأبيض النجس .. ومع ذلك فما استطعت به احتفاظا . إن الجسد الداعر — على رخصه — لا يمكن الاحتفاظ به . لأنه يأبى إلا أن يكون ملكا مشاعا كأديم الأرض أو ممسحة النعال أو صندوق القمامات .

ولم يكن هناك مفر من الفرقة .. ولكن ذلك لم يوقف يدى التى تعودت الاختلاس واطمأنت إلى السرقة وبدأت أستبدل الخليلة بخليلة ثانية وثالثة

ورابعة .. وأصبحت النساء بالنسبة إلى سلعا لا يستعصى على ابتياعها .. مهما غلت .

وكما قلت لك .. لا بد لكل منكر أن تنكشف نهايته ولم يكن الاختلاس الذى أرتكبه يشذ من غيره من المنكرات.ففى ذات يوم .. بدأ يفتضح ، وأخذت رائحته النتنة تفوح من وراء الستر والحجب .. وإذا بالطامة توشك أن تحل .

وقبل أن تقع الطامة تماما ، علمت أن عنقى قد أضحى فى يد مخلوق واحد .. هو جلادى الأول .. الذى يستطيع أن يجز عنقى أو يدبر لى النجاة . ولم يكن هذا المخلوق سوى أبيك .

وتشاء الظروف فى هذه الفترة الحرجة أن ألتقى بك .. ولقيت منك إقبالا ولهفة .. ودفعت فى ذهنى الخبيث فكرة هيأت لى من ورطتى مخرجا .

أنا إنسان بلا قلب .. إنسان شرير أثيم تعودت أن أجد فى النساء سلعا تشترى ، وتعودت أن أبتاع المشاعر والعواطف والحب بالنقود .. لم لا أجرب العكس ؟ فأحاول أن أبتاع بالحب نفسى ومصيرى ومستقبلى ؟

لم لا أحاول أن أوقعك فى شراكى ؟ وأنا بالنساء خبير عليم ؟ وأنت — كما تبدين — غريرة طيبة ساذجة ؟

وبدأت أمثل معك دورا ، أعاننى الحظ والظروف والقدر الساخر على أن أتقنه أيما اتقان .. ووجدتك — دون كثير جهد أو مشقة — قد أضحيت لى صبة مولهة .

ولم يصعب على أنا الآخر أن أبدو أمامك صبا ولهانا وأن أبادل حبك الأمين المخلص بحب زائف مصطنع وأن أجعل قدمك تزل فى الهاوية ، وأن أحملك منى ما لا قبل لك على الخلاص منه .

وهكذا أحسست أن عنق أبيك .. الأبى الشريف .. المحافظ الذى قد يصرعه أن يخدش شرفه .. قد بات فى يدى كما كان عنقى فى يده وأن كلانا قد أضحى ندا لصاحبه .

وقبل أن يتورط فيتخذ معي إجراء لا يمكن إصلاح عاقبته .. صممت على أن أفاتحه فى الأمر وأبدأ معه مساومتي العجيبة .

والتقيت به وسألته أن يسوى المسألة .. ويدبر لى طريق النجاة .. فقد كان الأمر بيده وحده .. ولكنه أنبأنى فى حزم أنه لا يستطيع التستر على سارق مختلس وأنه سيمنحنى فرصة يومين لإعادة المبالغ المختلسة . وإصلاح كل ما أفسدته وهو يعتبر ذلك أقصى ما يستطيع فعله لإنقاذى .

ولكنى قلت له إن هذا قد يكون حقا هو أقصى ما يستطيع فعله لإنقاذى أنا ولكنه لا شك يستطيع أن يفعل أكثر من هذا لإنقاذ نفسه .. أو لإنقاذك أنت .

وذهل .. ولم يدر ما أعنى ونظر إلى نظرته إلى أبلة أو مجنون .. ولكنى أنبأته ببساطة عن كل ما بيننا .. وقلت له إن مطالبك منى أثقلت كاهلى واضطرتنى إلى الاختلاس وأن المبالغ المختلسة لم تذهب بعيدا بل هى فى بيته ومع ابنته وإنك — وبالتالى هو — تعتبران شريكين معى فى كل ما حدث .

ثم أنبأته — ببساطة أيضا — أنه لا يرضى لحفيده العزيز . الوجود ليجد أباه ملقى فى أعماق السجون .

وصعقه قولى .. وكاد من هول الصدمة أن يصرع ..

ومضت برهة وهو يحدق فى فاغرا فاه .. والعرق يقطر من جبينه .. وقد علت وجهه زرقه داكنة وتقلصت شفتاه وارتجفت أطرافه .. ثم أفاق من الصدمة .. ليندفع كثور هائج ذبيح يرغى ويزيد ويهدد ويتوعد .. وينعتنى بأقبح التهم وأشنع الأوصاف .. وقائلا لى إنى أفاق محتال كذاب أشر . وإنه لا يصدق كلمة واحدة من المفتريات التى تفوهت بها . وإنه لا بد مبلغ عنى النيابة والبوليس .

وانتظرت عليه .. حتى أفرغ ما فى جعبته من عواصف الغضب وزوابع الثورة ونصحته بهدوء أن يكف عن غضبه وأن يهدأ من ثائرته .. وأن يحاول أن يفكر فى المسألة تفكيرا عمليا وألا يندفع فى ثورته فيرتكب ما يورثه الندم

والحسرة .

وافترقنا .. وهو ما زال فى حنقه وغضبه وثورته .. دون أن يعدنى بشىء .. بل لقد أصر على أنه — مهما بلغ الأمر — فلن يكون متسترا على سارق .. أو شريكا لمحتال . حتى ولو كان فى ذلك إنقاذا لعرضه .. وسترا لفضيحته .

وكان على أن أنتظر مصيرى فى حيرة وقلق .. وكنت أعلم أن الأمر ما زال معلقا على لقائه معك .. وعلى مصير العاصفة التى توشك أن تهب بينكما .. وعلى ما يقوله لك .. وتقولينه له ..

ترى هل ستنكرين ما حدث أم ستعترفين به .. وتقولين إنك ذهبت ضحية مخادع محتال ؟

ماذا سيكون رأيك فى يا ترى ؟

كيف تتلقين الصدمة ؟

لقد كنت أحس أنى أنتظر على أحر من جمر الغضا .. ولم يكن هناك ما يطمئننى .. إلا الأثر الذى تركته فى حشاك لقد كان ذلك الشىء هو الورقة الرابحة التى ألعب بها .. والتى أحس أنها سترغم أباك على أن يفعل من أجلى .. أو على الأصح من أجلك .. كل شىء .

. وهو الذى سيجبره على أن يرضخ .. ويقبل أن يكون ما يسميه . متسترا على محتال .. وزميلا لسارق .

وكان ما توقعت .. فقد استدعانى فى اليوم التالى .. وقد أفزعنى ما وجدته عليه من شحوب وتهدم وتحطم .. وبدا لى كأنما قد هرم فجاءه ، وأن العمر قد عدا به فى يوم بضع سنين .

ولم يكن ثائرا .. فقد بدا أضعف من أن يثور .. ووجدته يقول بصوت متهدج وفى لهجة مخذول مستسلم .. إنه قد علم منك أنى صادق فى كل ما قلت .. وأنك السبب فى كل ما حدث .. وأنك مسئولة عن كل ما فعلت .. ثم أنبأنى أنك خررت راكعة على قدميه .. وتوسلت إليه أن

ينقذنى .. وأن يمنحنى الفرصة لأعيش إنسانا شريفا من أجلها ومن أجل ابنها .. وإنه إزاء توسلك .. واستغفارك .. لم يملك إلا الغفران .. وأنه قد قرر أن ينقذنى فعلا .. ولكن ليس بالتستر على .. بل أن يدبر لى المبلغ المختلس .. ويهبه لى حتى أستطيع أن أسوى الأمر .. على أن أعده أن أكون بعد ذلك رجلا شريفا وزوجا مخلصا .

وذهلت .. ولم أصدق أذنى فى بادئ الأمر .. فقد كنت أتوقع كل شيء إلا ما قاله .. وإلا ما فعلته من أجلى . وما فعله هو من أجلنا .

وتسمرت فى مكانى أحملق فيه .. فاغرا فمى .. فقد أصابنى من قوله نفس الصدمة التى أصابته من قولى .. وأحسست أنى صعقت أو صرعت .

ومد يده إلى بالشيك قائلا .. إن هذا هو كل ما يملك وأنى أستطيع به أن أنقذ نفسى .

وخرجت من حضرته أتعثر وقد أحسست أن هناك شيئا قد نبت فجأة فى نفسى .. وسبب لى وخزا شديدا وطعنا مؤلما .. شيئا .. لم أحس به من قبل قط .. ولا ظننت أنى سأصاب به فى يوم من الأيام ..

كان ذلك الشيء الذى ظننته من قبل وهما يصاب به الحمقى والمخبولون .. هو الضمير .

أجل .. لقد تملكنى .. لأول مرة فى حياتى ندم شديد وأدركت أن هناك عذابا على الأرض .. يسمى عذاب النفوس ..

لقد أصابنى فجأة .. من الكره لنفسى .. مالا يعادله . إلا ما أصابنى من الحب لك .. لقد أحسست لأول مرة .. أنى أحب إنسانا بإخلاص وطهارة وبراءة .. حبا نظيفا ساميا .

لقد بدا لأبيك أنه قد وضع حدا لمتاعبى عندما وهبنى النقود وأنه أنقذ بها حياتى .

ولكنى أحس أنه قد حطمنى تحطيما .

كيف أجرؤ أن آخذ مالك وماله .. فأمحو به عارى .. وأغسل به سرقتى واحتيالى .

هل يمحى العار بالعار .. وهل تغسل السرقة بالسرقة ؟

أنا لا أستطيع أن أذهب هكذا ببساطة كأى نذل .. فأسدد من نقودك سرقتى .. ثم أعود إليك فأتزوجك .. أنا لا أجرؤ على فعل هذا .. بل لا أجرؤ على مجرد التفكير فى لقائك .

أنى خجل من حياتى .. ولقد فكرت كثيرا فى الأمر وقلبته على جميع وجوهه .. وانتهى بى التفكير إلى حل قد يكون فيه بعض الترضية لك . والتفكير عما فعلت .

إن حياتى كما قلت .. قد أضحت غير محتملة وغير ذات قيمة .. ولكن موتى .. لو أحسنت استغلاله .. فقد يفيد ثلاثتنا .. أنا وأنت ووليدنا المنتظر ..

فأما بالنسبة لى فلا شك أنه واضع لمتاعبى نهاية .. أما بالنسبة لك وللابن العزيز فإنى أستطيع أن أجعله يهبكما بعض الترضية ويحمل عنكما بعض العبء .

لقد أمنت على حياتى بمبلغ كبير .. كتبته باسمك .. تستطيعين بواسطته أن تسددى المبالغ المختلسة عن طريق أبيك .. وأن تقومى بأود الوليد حتى يعرف أن أباه لم يتركه عالة .. وأنه كان فى مماته .. رجلا شريفا .

وسأحاول أن يبدو موتى طبيعيا .. فى حالة انقلاب عربة فى طريق الإسكندرية الصحراوى .

وطى رسالتى هذه تجدين بوليصة التأمين .. والشيك الذى وهبنى أبوك إياه .. وعقد الزواج بيننا .. حتى توضع الأمور فى نصابها .

لقد كان حبى لك فى أول الأمر خدعة .. ولكنى أؤكد لك .. أنى قد أصبحت أعبدك وأنى أود لو استطعت أن أقبل موطئ قدميك .

ولقد غررت بك فيما مضى ولكنى أتركك الآن زوجة شريفة .

ولقيتك وأنا محتال .. ولكنى لن أستقر فى مضجعى حتى أكون قد محوت عن نفسى كل عار ..

ترى أما زلت تحبيننى .. أم قد تطاير حبك وتبدد .

ليتك تحبيننى .

المخلص

« ..... »

اللوحة الأخيرة

إنى سأقدم على الانتحار بمجرد انتهائى من لوحتها الأخيرة .
الأخيرة !! لا .. لا .. لا .. أظن . عليك أنت أن ترسم اللوحة الأخيرة .. لى .. ولها .

كان معي بالأمس .. أصح ما يكون جسدا .. وأهدأ ما يكون نفسا .. كان طبيعيا فى كل شىء .. فما لاحظت عليه شيئا من تغير أو غرابة . بل كان كعهدى به دائما فى كل تصرفاته .

ومع ذلك .. فما أصبح الصبح حتى فوجئت بنعيه فى الصحف .

ذهلت .. وأحسست بالحروف تتراقص أمام عينى وأعدت قراءة النعى مرة أخرى على أن أجد اختلافا فى الاسم ولكنى وجدته هو هو بعنوانه ووظيفته وأقاربه .

وأنا أومن بالموت . وأومن بأنه على قيد خطوة من كل كائن حى .. وأومن كذلك بأن صاحبى — كغيره من الناس — قد يموت فى أية لحظة .. وأنه لا تعفيه من الموت وفرة صحة ولا هدوء نفس .. وأنه لا يستعصى على الموت فى الصباح لمجرد أنه كان معى فى المساء .

أنا أومن بكل هذا .. ومع ذلك فما أظن هناك نبأ روعنى كنبأ موته .. إن إيماننا بالموت وتأكدنا منه لا يخفف عنا من وقع صدمته .. ولا يمهد لمفاجأته ولا سيما إذا كان الميت عزيزا علينا حبيبا إلى نفوسنا . ولقد كان صاحبى من أعز الصحاب على نفسى وأقربهم إلى قلبى .

ومضت على برهة وأنا ساهم واجم .. مطرق برأسى مسندها بيدى حتى أخفى قطرات ترقرقت فى عينى الضنينتين بالدموع .

وكان أول ما خطر ببالى أنه قد مات فى حادث ، فليس هناك ما يبرر موته المفاجئ إلا ذلك .

وأمسكت بالتليفون أطلب أحد أقاربه لأستفسر منه عن سبب وفاته .. وجرى بينى وبينه حديث قصير .. ثم تركت السماعة تسقط من يدى .. وقد تضاعفت دهشتى واشتد ذهولى .

من يصدق هذا !! من يعقل أن هذا الإنسان الهادئ القرير ينتحر ..؟

هذا الفنان الذى يعيش فى جو من الجمال والهدوء .. والذى يقضى جل وقته قابعا بين لوحاته وألوانه وريشته ونماذجه والذى تسير به الحياة هادئة ناعمة .. ماذا يمكن أن يدفع بمثله إلى الانتحار ..؟

لقد روعنى نبأ موته .. رغم أنه ككل إنسان معرض للموت ، أما موته منتحرا ، فذلك ما لم أستطع قط أن أبرره أو أعقله . لا .. لا .. إن هذا شىء غير معقول .. إن صاحبى لا يمكن أن يموت منتحرا .. فلا هو لديه ما يبعثه على الانتحار ، ولا هو يستطيع أن يقدم عليه .. فالانتحار يستدعى نوعا من الجرأة والإقدام والطيش والنزق .. لم تكن قط تتوفر فيه .. لقد كان لا يستطيع أن يقدم على قتل عصفورة فكيف يجرؤ على قتل نفسه !

ومع ذلك ، ورغم كل ما ذكرت من استحالة إقدامه على الانتحار ، فقد كان انتحاره أمرا لا شك فيه .. فقد وجدوه فى حجرته غارقا فى الدماء بين لوحاته ، وقد تقلصت يده على مسدس صغير ونفذ الرصاص من مؤخرة رأسه .

وهكذا ثبت بما لا يقطع الشك أن المسكين قد انتحر .

أما لم ؟ ولأى سبب ولأية (علة) فهذا ما ترك رؤوسنا تدور حيرى متسائلة .

وشيعت جنازته شارد الذهن غارب البال .. وعدت إلى الدار حزين القلب

محطم الأعصاب .. فإذا بالبريد قد حمل إلىَّ الرسالة التالية :

عزيزى ...

أكتب إليك لأنى أحس بلهفة على أن أقول شيئا قبل أن أذهب .. شيئا يرفه عن نفسى .. ولا يتركنى أذهب هكذا مطبق الشفتين .. دون أن أفوه حتى بكلمة وداع .. لقد تعودت عندما أفارقك ليوم أو بعض يوم أن أفارقك بتحية .. فلا أقل منها وأنا أفارقك إلى الأبد .

أريد أن أنفس عن نفسى وألا أتركها تذهب بعبئها الذى أنقض ظهرها .. أريد أن أقول ما قد ينصفنى فى غيبتى .. وأن أبدى لرحيلى مبررات إذ يعز على أن أتهم بالانتحار بلا سبب .. لمجرد السخف أو الجنون .

ولقد انتقيتك أنت من دون الناس . لأنك أقدر الناس على فهم ما أقول .. ولأنك — أنت نفسك — أحد مبررات الرحيل .. إن لم تكن مبرره الأول .. ولأنك بعد كل هذا ما زلت عزيزا على نفسى حبيبا إلى قلبى .

أولا .. أود — قبل أن أبدأ بالتفاصيل — أن أفهمك أن لى فى مسألة الانتحار وجهة نظر تختلف تماما عما يراه فيها بقية الناس .. وإنى مقتنع بها تمام الاقتناع . وقد يكون هذا هو ما جعلنى أقدم على الانتحار كأبسط وسيلة لخلاصى مما أنا فيه ، وكأسهل علاج لما أصبت به .

لست أدرى لم يحرمون الانتحار ويتهمون المنتحر بالخور والجبن ..؟

ألم يزعموا أن الإنسان ولد حرا ؟ ويعيش حرا ؟ لم إذن لا يموت حرا ؟

ألم يكفلوا للإنسان كل الحريات .؟ حرية الفكر وحرية الدين .. وحرية الرأى .. فلا أقل من أن يكفلوا له حرية البقاء فى الحياة .. أو حرية الموت . لم لا يموت كما يشاء ؟ وحيثما يشاء ؟ لم يقيدونه بظروف معينة وطريقة محتومة ؟

ثم أين الخور والجبن فى الإقدام على الانتحار ؟ إذا قتلت كل هذه النفوس فى الحروب لصد العدوان على أوطانهم سموهم شهداء .. وإذا قتل امرؤ نفسه ليدفع عن نفسه عدوان الدنيا وجورها سمى جبانا رعديدا ؟ أهناك أحق من نفوسنا

بالدفاع والخلاص ..

هل فهمت ماذا يعنى الانتحار لدى ؟ يعنى أنى أملك حرية الموت ، وأنى أحس أن لى الحق فى أن أغادر الحياة .. وقتما أشاء . ولقد بدا لى أنه خير لى أن أخرج من الحياة فخرجت .. مسألة فى غاية البساطة .. لا بشاعة فيها ولا خور ولا جبن . ولو كان لديكم من الفهم والشجاعة ما بى .. لتركتم الدنيا التافهة تنعى من بنوها .. إن كل ما فعلت .. هو انتقال من حال إلى حال .. ألم يقولوا إن الروح باقية ؟

هذه هى وجهة نظرى فى الانتحار .. ليس فيها ما قد تراه من تهويل وترهيب ، بل هى علاج بسيط لما أصبت به .

بقى على أن أشرح لك ما أصبت به .. مما استدعى منى الإقدام على ذلك العلاج .

أتذكر ذلك اليوم الذى عرضت عليك فيه إحدى لوحاتى الجديدة وأخذت أنت تحدق فى الصورة وتتأملها ثم هززت رأسك وقلت لى فى شىء من العجب :

ـــ أراك قد غيرت نموذجك .

ـــ أجل .. هذا نموذج جديد .. ما رأيك فيه ؟

ورأيتك تزم شفتيك وتستمر فى هز رأسك ببطء دون أن تقول شيئا . وأردفت أنا أقول :

ـــ ألم تقل لى إننى أكثرت من استعمال النموذج الأول حتى بت تميزه فى كل لوحة .

ـــ أجل .. أذكر أنى قلت لك هذا .

ـــ ما رأيك فى هذا النموذج الجديد .

ـــ يبدو لى أن النموذج الأول .. خير منه بكثير .. على الأقل من ناحية الخلق .

ونظرت إليك فى دهش .. وحاولت أن أتبين ما إذا كنت جادا فى قولك .. أم كان حديثك مجرد هذر كما عودتنى أن تفعل .. ولكن بدا لى من ملامحك أنك لا تهزل فقلت لك متهكما :

ــ تعنى أن النموذج الأول أحسن من الثانى خلقا .

ــ بكثير .

وانطلقت أقهقه وسألتك هازئا :

ــ وماذا تعرف أنت عن أخلاق هذه أو تلك .. لعلك قد أصبحت عالما نفسانيا .. أو قارئا للصور .

ونظرت إلى فى استخفاف ثم جذبتنى من يدى وأشرت بسبابتك إلى وجه النموذج المرسوم فى الصورة .. وقلت :

ــ أنظر .. هذين العينين الضيقتين المائلتين اللتين يشع منهما بريق المكر والخبث وهذين الحاجبين المرفوعين والشفتين الممتلئتين العريضتين المطبقتين اللتين تبدو فيهما الرغبة فى التدمير والسخرية بالعهود والوعود .. إن فى ملامحها طابع الأثرة والأنانية إنها تريد كل شىء لنفسها ..

وقاطعتك ضاحكا :

ــ كفى .. كفى .. كل هذا تراه فيها ؟. والله لو اتخذت الشيطان نموذجا .. لما قلت فيه أكثر من هذا .

ــ ومن قال لك إن هذا ليس نموذج شيطان .. شيطان جميل أحور العين أهيف القد مرهف النهد ..

ــ على أية حال .. أنا فى حاجة إلى نموذج ملهم .. سواء أكان شيطانا أم كان ملاكا .

ــ أنت وشأنك ، ولكن كن منه على حذر .

ــ ليس على من ملهماتى خشية .. إنى رجل عمل .. إن الخوف من الملهمات عليك أنت .. نجاك الله منهن ..

ولقد كنت فى دعائى لك فى تلك اللحظة صادقا .. فقد كنت أعلم الناس بكثرة مغامراتك .. وكنت إذا ما نصحتك أنبأتنى بأنه لا بد لك من المغامرة للحصول على ملهمة لأنك لا تستطيع أن تكتب إلا عن أحاسيس تختلج فى نفسك .

لقد كنت دائما أوقن أنك فنان بسليقتك .. وأنك مثلى تماما .. تحتاج فى قصصك إلى نموذج تنقل عنه .. حتى تسرى الروح فى كتابتك وتسمع الأنفاس من كلماتك ، وحتى تصبح الأسطر صدى لما يعتمل فى نفسك وما يصطخب فى حسك .

وكنت لا تخفى عنى شيئا ، حتى بت أعرف ملهماتك واحدة بعد واحدة حتى لو غبت عنى .. لقد كنت أعرف أحوالك من قصصك وألمح فيها ما حل بك .. وأعرف من وراء السطور ما إذا كنت قد دخلت فى مغامرة جديدة . واستبدلت ملهمة بأخرى .. وما إذا كنت سعيدا أم بائسا .

مرت الأيام وأنا أعمل مع نموذجى الجديد .. شاعرا منه بأقصى الرضاء والطمأنينة .. لقد أحسست حينذاك أنك لم تخطئ فى شىء قدر خطئك فى فهم ملامحها .. حتى خيل إلى أننى لم أجد رسمها ، وأننى المسئول الأول عن خطئك وصممت على أن أصنع لها رسما أبرزها فيه نموذجا للطهر والبراءة والتضحية . وسألت ذات يوم عن رأيك فى اللوحات الجديدة فرأيتك تهز رأسك وتقلب شفتيك وتقول :

ــ لاتضع الشىء فى غير موضعه .. هذه الأشياء من أمثال الطهر والبراءة والأمومة . استعمل لها نموذجك الأول . أما النموذج الجديد .. فله مواضعه .. إذا لم تستطع استعماله فدعه لى أخرجه لك كما يجب .

قلت ذلك على سبيل الفكاهة والمزاح ولكننى أحسست بقلق وضيق ، من قولك « دعه لى » .. وقد تكون لم تعن بقولك شيئا سوى مجرد الكلام والدردشة ولكنى مع ذلك شعرت منه بخوف خفى .

ترى ماذا كان سبب ذلك القلق والضيق .؟

سبب بسيط .. هو أنى بدأت — لأول مرة فى حياتى — أشعر بالحب .

لقد أحببت نموذجى الجديد .. أنا الغريق بين النماذج والذى لم أحس لها قط بأكثر من أنها جزء من العمل .. كالريشة والألوان . وتملكتنى منك غيرة خفية .. وأنت تقول « دعه لى » . كانت بى رغبة فى الاستحواذ عليه كشىء خاص بى .. لا يشاركنى فيه غيرى ..

ولست أدرى حتى الآن ما الذى جعلنى أحب هذه المخلوقة دون غيرها من سائر المخلوقات .. هل كان تحذيرك لى منها هو سبب وقوعى فى حبائلها ..؟

ألا تذكر ونحن طلاب فى السنة الرابعة الثانوية كيف حذرنا مدرس اللغة العربية من قراءة مصرع كيلوباترا الذى أعطوه لنا ضمن كتب هذه السنة .. لأنه على حد قوله — يفسد أخلاقنا .. فكان أول شىء قرأناه فى تلك الكتب هو مصرع كيلوباترا ؟ بل إنه كان الكتاب الوحيد الذى قرأناه من بين الكتب المدرسية ..

لقد أنتج تحذيرك من نموذجى الجديد .. ما أنتجه تحذير مدرس اللغة العربية من مصرع كيلوباترا ..

ووجدتنى أندفع فى حبها اندفاعا جنونيا .. وضعت فيه كل مشاعر فنان طال به الكبت ..

ولست أدرى ما إذا كانت أحبتنى أم لا .. على أية حال لقد كانت ترضينى .. ولم يكن هذا الإرضاء يكلفنى أو يكلفها شيئا .. بل لقد كان ناتجا عن طبيعة عملى وعملها فلقد كان عليها أن تجلس أمامى .. وكان على أن أحملق فيها .. وأنقل منها .. وكان هذا كل ما أتوق إليه .

ويعلم الله أنه كان يمكن أن أرضى بهذا إلى ما شاء الله .. وأن أقنع بجلستى وإياها حتى آخر العمر ، لولا أن حدث شىء أجج نفسى وأشعل فى قلبى النيران .

أتدرى ما هذا الشيء ؟؟ لقد كان قصة لك !!

أجل .. لقد قرأت إحدى قصصك .. فإذا بى أجد نموذجى فيها .. وتذكرت قولك « دعه لى » .. وعلمت أنك شاركتنى فيه أو سلبتنى إياه .!

إياك أن تنكر .. إنى أدرى الناس بك .. وبقصصك .. ونماذجك وملهماتك .. لقد كانت هى بعينها ولا أحد سواها،هى نفسها « ذات العينين الضيقتين المائلتين اللتين يشع منهما بريق المكر والخبث »،هى نفسها .. « الشيطان الجميل الأحور العين الأهيف القد .. المرهف النهد » .

وأحسست بدوار عقب الانتهاء من قصتك .. وخيل إلى أنى أترنح وكأنى ضربت بمطرقة على مؤخر رأسى ..

لقد أدركت من قصتك أنك استحوذت عليها وأنها سقطت بين براثنك .

كيف لا وأنا أجدك تصف جسدها قطعة قطعة .. وصف خبير دقيق .. دون أن تنسى الحسنة التى فى ثديها الأيسر .. والخدش الذى فى ساقها اليمنى .

كانت تجلس أمامى كما تعودت أن تجلس فأحس بالسعير يلهب صدرى .. وبدأت أبصر فى ملامحها ذلك الشيء الذى كنت تبصره أنت والذى طالما حذرتنى منه .. ولم يصعب على أن أميز فى عينيها بريق المكر والخبث .. والأثرة والأنانية .

وزاد من ثورتى المكبوتة وألمى الممض .. أنها بدأت تظهر لى علامات ميل .. وأخذت تبدى لى دلائل حب فزادت فى نفسى المرارة .. فقد كنت أحس بالخديعة والخيانة فى كل لفته من لفتاتها .

ولقد كان يجب على والأمر كذلك .. أن أنفس من كربتى فأطردها شر طردة .. وأباعد بينها وبينى .. ولو استطعت ذلك .. لكان هذا أيسر الحلول .

ولكنى يا أخى لا أستطيع أنى أحس أن هذا الشيطان قد سرى فى دمى ، وإنى لا أتصور — رغم ما أحسه من خبثها ومكرها وخيانتها — كيف أعيش بدونها .

ومع ذلك فقد كنت أحس أنى أحترق رويدا رويدا .

لقد كان أشد ما يعزينى هو أن أقرأ قصصك عنها وأجلس إليها لأتأملها الساعات الطوال . وأصور لنفسى من كتابتك ماذا صنعت بها وأحس من تصوراتى أن قلبى يتحطم وأن أعصابى تتمزق .

وأخيرا أحسست أنى لم أحتمل .. وأنه لا بد أن أضع لكل هذا نهاية .

ولكن كيف .؟ أقتلها .. أم أقتلك .

وما ذنبك .؟ وتلك هى طبيعتك .. وما ذنبها وتلك شيمتها .؟؟

أقتل نفسى ..؟

ــ أجل .. هذا هو خير حل .. وأبسط علاج .. إن الانتحار كما قلت لك ليس سوى انتقال من حال إلى حال .

إنى سأقدم على الانتحار بمجرد انتهائى من لوحتها الأخيرة الأخيرة !! لا .. لا .. لا .. أظن . عليك أنت أن ترسم اللوحة الأخيرة .. لى .. ولها .

وإلى اللقاء فى عالم أفضل .

المخلص

(.....)

وتركت الجواب يسقط من يدى .. وأحسست أنى أكاد من فرط الدهشة والذهول أجن ..

يا للصاحب المجنون . إنى ما لقيتها قط وما رأيتها إلا فى رسومه .. وما أوحى بقصصها إلى سوى لوحاته .

يرحمه الله .. ليته قال لى .. ليته نفس عن نفسه قبل أن يقدم على فعلته .

شفاء من حب

إنى لم أعد أحبها .. لقد شفيت تماما من حبها . وليس أسهل على من أن ألفظها بحملها لفظ النواة . ولا أظننى أكون قد فعلت معها أمرًا إدًّا .

أين الشفاء وقد برح الداء وعز الدواء ..؟
كم كنت أتوق إلى الانطلاق من هذا الأسر .. والفرار من ذلك السجن .. حب ..؟ من قال إن هذا حب ..؟
هذا القيد الذى يسلب الإنسان حريته ويفقده إرادته .. هذا المرض المزمن الذى يلقى المرء صريعا لا حراك به ولا سلطان له على نفسه .. كأنه طفل غرير .. أو عجوز فى أرذل العمر لا يعلم — بعد علم — شيئا ..
كم تمنيت ألا أحبها .. فقد كنت أعلم أنها لا تستحق منى ذلك الحب .. ولكننى كنت أحس أننى مشدود إليها بقوة خفية .. لا قبل لى بالتخلص منها .. وإنى أشبه فى الواقع كمن تحت تأثير منوم مغناطيسى .. يأتمر بأمره ويتحرك بإرادته .
كنت أحبها حبا جنونيا .. ملك على نفسى .. واستولى على مشاعرى .. حبا عاتيا .. يجرف فى سبيله كل خطيئة ، ويغتفر كل ذلة ، ويتجاوز عن كل هنة وسيئة .
ولم أك أعرف حقيقة مشاعرها ، أكانت تحبنى ؟ أم كانت تكرهنى ،؟ أم كنت لديها شيئا لا وجود له ؟ شيئا تافها لا يستحق منها الحب أو الكره ؟
لم أفهمها قط ، وزاد جهلى بها وشكى فى مشاعرها جنونى بحبها ، فلو أنى

استقررت منها على حال ، لهدأت مشاعرى الملتهبة ، وسكنت عاطفتى المتأججة ، ولكنى كنت أشبه ببركان دائم الثورة والفوران ، أغلى بأحاسيس مختلطة مستعرة من الشك والحيرة والحب والبغض والغفران والانتقام ..

كنت أحبها ، وأتمنى لو قضيت العمر كله راكعا عند قدميها ، واضعا رأسى على ركبتيها ملصقا شفتى فى راحتها .

كنت أخاف عليها من النسيم ، وكنت على استعداد لأن أضحى من أجلها بكل شىء ، وأفتديها بكل ما ملكت وكانت بسمتها تشرق فى نفسى وتضىء جوانحى .

وكنت أفعل كل هذا ، عندما أحس منها إقبالا ، وعندما تمنحنى لحظات رضى وتهبنى هنيهات وفاء وإخلاص .

ولكنها كانت تعود فتتنمر وإذا بها تنكرنى وتصدنى ، وتقبل على الآخرين من دونى فأحس بالغيرة تنهش قلبى ، وبالثورة تتأجج بين جوانحى وأتمنى لو استطعت أن أنشب فى عنقها الأبيض العاجى أظافرى ، وأن أمزق جسدها الأهيف الفارع إربا ، وأن أمسك بجدائلها الذهبية فألفها على يدى ، وأضرب بجسدها الأرض فتتهشم عظامها ويتمزق جسدها .

كنت أريد أن أفعل بها كل هذا ، وشرا من هذا ، ولكنى كنت أكبت ثورتى ، وأكتم مرجل غضبى ، وأجعله يحرقنى بدلا من أن يحرقها ، لا عن جبن ، ولا عن خشية عاقبة ، ولا عن خوف من أن يقول الناس إنى وحش أو حيوان ، فما كنت فى تلك اللحظات آبه لأى اعتبار أو تقدير ولكنى لم أكن أفعل ، لأنى ما زلت أحبها رغم تأكدى من خيانتها ، ورغم ثورتى عليها ، ومقتى لها ، وبغضى إياها ..

كنت أشعر — فى ثورتى — أنى أود أن أقطع أوصالها إربا ولكنى كنت أحس أيضا ، أنى لو مزقت أعضاءها لعدت فجمعتها ثانية ، وربطتها بشغاف قلبى ، ونفخت فيها من حبى روحا ، وبعثت فيها من وجدى حياة .

كنت أتمنى لو استطعت أن أمزق صدرها ، وأخرج قلبها من بين أضلعها .. ولكنى أحس بالحنين يدفعنى أن أضعه بين أضلعى أنا ، وأن أحميه حتى يظل ينبض وينبض .

خمس سنوات ، وأنا على هذه الحال من التلهف والشوق والحب والبغض . خمس سنوات كرهت فيها الحياة ، وكرهت نفسى الراضية بهذا الأسر الذليل .

كنت أسائل نفسى ، أما من نهاية ؟ أما من هدوء وسكينة ؟ لقد بت أتوق إلى الراحة ، وإلى الاستقرار ..

خمس سنوات وأنا أعدو وراءها مبهور الأنفاس ، كالتائه الضال ، لا أكاد أقع إعياء حتى تلقى إلى بقطرات وصل ، وفتات حب ، تقيم بها أودى ، وتعيننى عن أن أواصل العدو واللهث والزفر ، وأنهض لمتابعتها ، كأنى مشدود إليها بحبل لا أستطيع الفكاك منه .

ألم أقل إن ما بى لم يكن سوى مرض عضال ، وداء مزمن ، داء أفقدنى الحجا وسلبنى الإرادة . فأضحيت كمدمن الخمر أو المخدر ، لا يملك سوى الإدمان عليها ، كلما عب منها زاد ظمأ إليها ، وكلما أنهكت قواه وحطمت جسده كلما ازداد تعلقا بها وشوقا إليها ؟

وقد يكون لى العذر فى إدمانى على حبها ، لو أنها بادلتنى الحب ، أو لو كان إعراضها عنى مجرد دلال ، أو لو كنت واثقا من حقيقة خلقها ، موقنا بنقاء سريرتها وبياض قلبها . ولكن ما عذرى فى التعلق بها ، وأنا لم أعرف لها قصدا ولم أفهم لها حسا ، ما عذرى فى عَدْوى خلفها ، وأنا موقن أنى أعدو وراء أمل كاذب وسراب خلاب ؟

كان جنونا منى ، لا أكثر ولا أقل ، كان بى من حبها ما يشبه ذلك المرض الذى يصاب به الناس فى المناطق الاستوائية والذى يتركهم ممعنين فى العدو والتدمير حتى يسقطون صرعى ، ما كان هناك فرق بينى وبينهم ، سوى أنى كنت أدمر نفسى بدلا من أدمر غيرى .

وأقبلَت عليّ ذات مرة ، ومنحتنى نوبة من نوبات العطف التى تبل بها حرارتى ، أو على الأصح تؤجج حرارتى .

وألثم فاهـــا كى تزول حرارتى فيشتـد ما ألقـى من الهيمـان

أقبلَت على تمنحنى ما سميته قطرات عطف وفتات حب ، وأحسست فى هذه المرة أنها تغدق علىّ ، وتمنحنى من حبها أكثر مما تعودَت أن تمنح ، وتهبنى من حنينها ومشاعرها ما بدد ظلمة اليأس ، وأشعل فيها ذبالة الأمل الخابية .

وحلا لى الحب بعد طول مرارة .. وصفت الكأس بعد طول كدر .. وبدأت أتذوق متعة الوصل البرىء والهوى العذرى .. وخيل إلى أنها استقرت على حال ، وأن ما كان بها من إعراض وصد لم يكن سوى عبث وطيش أو من يدرى ؟ ربما كان وفائى لها وإدمانى على حبها قد علماها كيف تحبنى .

ولم يكن لقاؤنا بالعسير .. فقد كانت بيننا صلة قرابة وكنت أتردد على دارهم . كأنى أحد أهل الدار .

وهكذا بدأت أستسيغ طعم الحياة . وشعرت بالاستقرار بعد طول تخبط وترجح . وعزمت فى نفسى على أن أتقدم لخطبتها من أبيها .

ونويت أن أجعل الأمر مفاجأة لها . وكنت قد غبت عنها بضعة أيام لسفر قصير فصممت على أن أذهب إلى أبيها رأسا وأن أفاتحه فى الأمر وأنهيه معه . ثم أسوق إليها النبأ .

وقصدت الدار .. واتجهت إلى غرفة أبيها .. فأدهشنى أن أجده ينظر إلىّ بوجه عابس متجهم .. وبدا لى أن فى صدره ثورة مكبوتة .! وأقرأته التحية فلم يجب .. وهززت رأسى فى عجب متسائلا :

ـــ ما الأمر ؟

ووجدته يضغط على نواجذه ويقول فى غضب مكتوم :

ـــ أنت أدرى ..!

ـــ بأى شىء ؟

— بما فعلت ..

— أنا ..؟ ماذا فعلت ..؟

— أنت إنسان وضيع .. وكان يجب أن تحترم شرف العائلة ، التى تأويك كفرد منها .

وأحسست بالأرض تميد بى ودارت الدنيا من حولى . وخيمت غشاوة على بصرى وقلت فى صوت خائف وَجِل :

— لست أفهم ما تعنى ؟

ووجدته ينهض من مقعده ويصيح قائلا :

— بل تفهم جيدا .. ولولا ثقتى من حسن نيتك . وأن فعلك لم يكن أكثر من طيش .. ولولا رغبتى فى تجنب الفضيحة .. ويقينى .. من أن الأمر يمكن علاجه .. لقتلتها وقتلتك . لقد اكتشفت أمها الأمر . وعلمت أنها حامل .. وعندما ضيقت عليها الخناق . أنبأتها أنك السبب . وأنكما اتفقتما على الزواج .

وأحسست بأنى أنهار وخيل إلى أنى أغوص فى أعماق بحر بعيد الغور متلاطم الأمواج . وشعرت بأن قدمىّ لا تقويان على حملى فارتميت على أقرب مقعد .

من يصدق كل هذا الهذيان ؟

أهى حامل ؟

هذه البريئة الطاهرة .. التى لم أكن أرى فيها أكثر من زهرة تتفتح فى أكمامها .. امرأة حامل ؟

وممن ؟ منى أنا .. الذى كان أقصى ما أتوق إليه هو تقبيل يديها ؟

أنا الذى لم أقرب شفتيها إلا مرة واحدة خلت فيها أننى حصلت على كنوز الأرض .

أهذا هو سر إقبالها الأخير علىّ ؟. أبعد أن هجرها الخاطئ لم تجد متكئا سواى ولم تجد من تلقى عليه الخطيئة غيرى ؟

أهذا هو جزاء إخلاصى فى حبها وإصرارى على الوفاء لها ؟ ودفنت رأسى بين

كفى وغرقت فى لجة من التفكير .

وانتابتنى نوبة من الحقد عليها .. وودت كما كنت أود فى نوباتى السابقة أن أمزقها وأحطمها وأسحقها سحقا .

أحسست أنى أمقتها مقتا شديدا . ولكنه كان مقتا . لا يفترق كثيرا عن مقتى السابق لها . ذلك المقت الذى يستر وراءه جرثومة الحب الكامنة . والحنين المتوارى .

كنت أعلم أنها خائنة مخادعة وأنها غادرة ظالمة .. وأنها ألصقت بى التهمة ظلما وعدوانا وأنها قد اتخذتنى درعا تتقى به شر ما كان يمكن أن يوقعه بها أهلها .

وفكرت فى أن أرد كيدها . وأن أنكر التهمة التى ألصقتها بى . فقد كان هذا هو العمل الطبيعى الذى يمكن أن يعمله أى رجل .. فما من رجل حر يقبل أن تلصق به خطيئة غيره . وأن يأخذ على عاتقه حماية امرأة خاطئة .

هذا هو ما كان يجب أن أفعله ببساطة .. وبلا تفكير .. ومع ذلك ، فقد وجدتنى أفكر .

ماذا يمكن أن تكون نتيجة إنكارى ؟

إن أفضل ما أنتظره هو أن يصدقوا إنكارى .. وأن تثبت براءتى . وتلقى عليها كل التبعة وكل الجرم . وأى جرم .؟ جرم لا علاج له .. ولا برء منه . وفى عائلة صعيدية محافظة وأب وإخوة تتأجج فى نفوسهم النخوة ، ويستعر الشرف !

أليس من المحتمل جدا ، أن يتهور أحدهم ويقتلها .؟

أجل .. إنها قد تقتل . ومع أنى أود أنا نفسى أن أمزقها فإنى أعرف ماذا يعنى قتلها بالنسبة إلى !

إن الداء المزمن فى نفسى داء حبها — سيزداد استفحالا . إن موتها .. واعتقادى أنى السبب فيه — لأنى كنت أستطيع إنقاذها — سيؤجج حبى .. ويورثنى الحسرة والندم مدى الحياة .

يجب على أن أنقذها .. يجب على ألا أتخلى عنها .. يجب أن أحتملها وأعينها حتى النهاية .

وبدون أن أدرى ما أنا قائل وجدت لسانى ينطق معترفا بالذنب .. متحملا العبء .. وقلت إنى أريد الزواج فى أقرب وقت .

والتقيت بعد ذلك بالأم .. فتلقيت منها ثورتها ..

وتحملت غضبها ثم أنبأتها .. أنى على استعداد للزواج فى الوقت الذى يحددونه .. ثم غادرت الدار دون أن ألقاها .

ولم أحاول أن ألقاها وحيدة بعد ذلك .. بل كنت أتجنب الحديث معها والنظر إليها .

لقد أحسست وأنا أرقبها من بعيد .. وقد بدت الذلة فى عينها وطأطأت الخطيئة رأسها .. أنى أصبحت صاحب اليد العليا عليها .. وأحسست كذلك بشيء أهم من ذلك . هو أن الداء المزمن الذى أذلنى طيلة الأعوام السابقة .. والذى قيدنى فى أسرها . قد بدأ يخف .. وأن الوثاق الذى كان يجرنى فى ركابها قد تفكك ، وأن الشفاء من حبها .. قد حدث أو كاد .

وتم الزواج .. وشعرت بعد إتمامه بأنى قد أديت واجبا علىّ نحوها .. نحو المخلوقة التى أحببتها خمس سنوات وأنى قد أعنتها على حمل عبئها ، وأنى لم أخذلها فى مصابها ..

بقى علىّ أن أتم خطتى .. وأؤدى واجبى نحو نفسى .. فأطلقها .. وأعيدها .. كما هى ، بحملها .. إلى أهلها !

أجل .. هذا هو ما صممت عليه عندما قلت أن أحمل عنها الخطيئة .. وأن أتزوجها ، فما أظن هناك ما يدعو لأن أحمل نفسى الخطيئة إلى ما لا نهاية ، وأن أقبل امرأة تحمل فى جوفها ابنا من غيرى .. إن ما فعلته كان كافيا لإنقاذها . لقد أنقذت شرفها .. وعليها أن تعود بعد ذلك إلى أهلها . وهى امرأة مطلقة .. شريفة !

ولكن أمرا واحدا .. يجعلنى حائرا مترددا .. ليس هو حبى لها — فإنى أحس تماما أنى قد شفيت منه — بل حبها لى .. واستكانتها وذلها .. لقد أنبأتنى أنها تقدر جميلى .. وأنها ستحمله فى عنقها مدى الحياة .. وأنها على استعداد لأن تكون مجرد خادمة لى .

إنى حائر .. ماذا أفعل ..؟ أأبقى عليها فى بيتى لتكون أما لأولادى وابن غيرى ..؟ أأغفر لها الخطيئة وأقبل التوبة ..؟

أم أنفض منها يدى .. ويكفى ما فعلت من أجلها ؟

إنى لم أعد أحبها .. لقد شفيت تماما من حبها .. وليس أسهل علىّ من أن ألفظها بحملها لفظ النواة .. ولا أظننى أكون قد فعلت معها أمرا إدًّا .

ومع ذلك .. فإنى أحس بميل إلى الغفران .. بل وأحس أن الغفران عن قدرة .. وعن غير حاجة .. هو الغفران الحق .. إنى أكره أن أحطم النموذج الطيب الذى صنعته منها وأشعر بميل شديد بالاحتفاظ به وإلى الاستمرار فى صقله وتهذيبه .

أجل لقد صممت على الاحتفاظ بها .. وليعيننى الله على أن أجعل منها زوجة صالحة شريفة .. وليغفر الله لها ما تقدم من ذنبها .. إنه غفور كريم رحيم .

عبثا خلقت

ما قيمة الحياة إذا كنت سأثوى فى باطن الأرض دون أن ألقاه ؟ ما قيمة العمر إذا كان القدر الساخر يأبى إلا أن يهتف بى .. « عبثا خلقت » .

الوقت خريف .. وموجة من الريح تهب عاصفة باردة ، فتودى بأوراق ترتجف على أغصانها فى صفرة وذبول وشحوب .. أوراق تترنح وتهتز ثم تعييها المقاومة ، فتتساقط متهالكة على الثرى مختلطة بأديم الأرض ..

ومن وراء زجاج الشرفة ، جلست السيدة تحملق فى الفراغ .. ترقب الريح العاصفة والأوراق المتساقطة .. وقد أمسكت بيدها كتابا استقر فى حجرها ، ثم خفضت بصرها من أوراق الشجر إلى أوراق الكتاب .. لتقرأ فيه تتمة الحديث(١) ..

« لم أر أشد حيرة من الروح تلتمس الأليف ، كما ينشد العصفور الغصن .. ويعييها المراد فتتعلل بالباطل تعلل العصفور بالغصن العاطل . ولا بد من الحبيب صادقا أو كاذبا ، كما لا بد من الطعام طيبا أو خبيثا ، يضطرنا إليه الجوع .. ويضطرنا إلى الحبيب النفس المسمى الحب ..

رب روح تهيم الدهر فلا تصادف إلفها .. تذهب على وجهها فى الآفاق فينكرها الناس .. وتنادى فيجيبها العدم .. وقد حال الزمان والمكان بينها وبين توأمها الذى نظمه الله معها قبل ميلاد الدنيا ، وقد يكون ذلك التوأم فى أقصى

---

(١) من كتاب الصور للمرحوم محمد السباعى .

الأرض أو دون المريخ أو تحت القمر ، أو وراء ذلك الجدار أو ذلك الباب .. وكأنى بهذا الورد الناضر على أغصانه . سيذبل على قبر توأمك الذى تنشده ولم تره ، وكأنى به يحمر غيظا من لؤم القضاء ، ويريد أن يقول لك : (عبثا خلقت) .. » .

وتركت السيدة الكتاب يتهاوى من بين يديها ، فيتساقط على الأرض متهالكا كما تساقطت الأوراق الذابلة .. وانطلقت من صدرها زفرة حارة .. ثم تهاوى رأسها فى استرخاء على صدرها .. وأغمضت عينيها .. وشرد بها الذهن ينبش رفات الماضى ويطوف بأطلاله .. وانبعث من أعماقها صوت يهتف مجيبا على حديث الأوراق .. أوراق الخريف المتهالكة المتهاوية .. فيقول لها :

— أجل .. عبثا خلقت .. أنا الروح الحائرة الهائمة الضائعة .. التى قضيت عمرى ألتمس الأليف .. فخذلنى الأليف .. وأنتظر التوأم فأنكرنى التوأم ..

لقد لقيته فى محيط الحياة مرتين .. يعلم الله أكان هو إلف الروح وتوأم النفس الضالة الصادية ؟

لقيته أول مرة فى ربيع العمر ، والنفس متفتحة ، والقلب مورق مزدهر .. والروح قد أينعت وباتت تنتظر القطاف ، تتلفت حولها فى تعطش ولهفة .. تعطش الواثق .. ولهفة المطمئن .. فهى تشم ريح التوأم .. وتحس أنه منها على قيد خطوات .. ليس فى أقصى الأرض أو دون المريخ أو تحت القمر .. بل وراء ذلك الجدار أو ذلك الباب .. تكاد تسمع من فرط الحنين وقع خطواته وتتوهمه فى كل قادم وطارق حتى بدا أخيرا .. هو بعينه إلف الروح وتوأم النفس الذى أصاب القلب من مرآه هزة .. فهفا بين الضلوع .. وصفق فى الحنايا ..

كنت وقتذاك أعيش وأمى وحيدتين فى دارنا التى خلفها لنا أبى بعد موته .. وكنا فى سعة من العيش .. ولم أكن أحس أن هناك شيئا ينقصنى فى الحياة فقد عوضتنى أمى عن أبى خير عوض .. وكنت وحيدتها المدللة .. التى كرست حياتها لتربيتها ..

ولم أكن أذكر الكثير عن أبى فقد مات وأنا أحبو على أربع ، وكانت أمى وقتذاك فتاة صغيرة لا تكاد تزيد على السابعة عشرة .

وهكذا لم يكن هناك فارق كبير بين عمرينا .. فكنا من النوع الذى يحير المرء إدراك حقيقة الرابطة بينهما .. أخوة .. أم بنوة .. بل إنى لم أكد أبلغ مبلغ النساء وتكتمل أنوثتى .. حتى أضحيت وإياها كأننا صنوان :

ولم يكن الحب الذى أكنه لها .. مجرد ابنة لأمها . بل كان حبا يبلغ حد التقديس .. كيف لا .. وأنا أراها أفنت من أجلى زهرة عمرها وكرست لى حياتها وأبت أن تتزوج حتى لا يشغلها عنى إنسان ؟

كيف لا أراها كل شىء فى حياتى .. وأنا فى حياتها كل شىء ؟

لقد ركزت فىّ كل بغيتها من الحياة .. ووضعت فىّ كل آمالها وأمانيها .. فأضحت لا تتمنى شيئا إلا من أجلى .. ولا تحزن إلا لأجلى .. ولا تضحك إلا لى .. ولا تبكى إلا علىّ ..

إذا ألمّ بى مرض نبا بها المضجع وأرّقها الحزن .. وإذا ضحكت ازدهرت الدنيا فى عينيها ..

لقد كنت أحس أن لها فى عنقى دينا كبيرا .. وأنها حملت نفسها من أجلى أكثر مما تحتمله أى أم .

من الذى كان يستطيع أن يجبرها على أن تبقى أرملة وهى فى الثامنة عشرة ؟ أى امرأة تحكم على نفسها بالترهب .. وتزهد فى الحياة من أجل ابنتها ؟ لقد سنحت لها عدة فرص .. وتقدم إليها خطاب عديدون فقد كانت جميلة وصغيرة .. وموسرة ، ومع ذلك لفظتهم لفظا .. حتى لا يشغلها عنى شاغل .. وحتى تهبنى .. أنا اليتيمة .. كل نفسها .

وهكذا نشأت وإياها وقد شددنا بوثاق من الحب المتين ، تستمد إحدانا من الأخرى هناءها وسعادتها .

وفى ذات يوم أصابتها وعكة .. بدت فى هيئة برد خفيف .. أخذ يتفاقم يوما

بعد يوم .. حتى استبد بها الداء .. واستحكمت العلة .

وبدأ الأطباء يتواترون علينا .. الواحد تلو الآخر .. وأنا بينهم حائرة متعبة منهكة .. حتى رأيته !

لقد أقبل ضمن من أقبلوا لمعالجة أمي .. فاستطعت أن أميز فيه .. من أول نظرة.. توأم الروح المرتقب وإلفها المنتظر .

وكيف لا يكونه .. وقد هفا له القلب ــ دون غيره ــ وشدا الفؤاد ؟ كيف لا يكونه وقد أحسست من مرآه طمأنينة وثقة .. وبدا كالملجأ فى عاصفة هوجاء .. والبارقة فى ليلة ظلماء .

لقد أقبل كلانا على الآخر . كأننا نلتقى بعد طول فرقة . وكأن بيننا سابق ود وقديم ألفة .. وجلس بيننا يفحص الداء ويصف الدواء .. ويهدئ من نفسينا .. وقد بدا لى أنه ليس غريبا بيننا .. بل واحدا من أهل الدار .

ولقد أضحى كذلك فعلا بعد بضعة أيام .. فقد كان يزورنا من تلقاء نفسه ليطمئن على أمي .. وكنت أجد فى نفسه صفاء وفى قلبه رقة .. ووجدتنى أندفع فى حبه بلا حرج ولا خشية .. كأن حبه شيء واجب عليّ .. وبت أنتظر مجيئه بفارغ الصبر .. فإذا تأخر .. أسرعت فى طلبه بحجة أن أمي فى حاجة إليه .

وهكذا أضحيت عاشقة .. بعد أن كنت عاشقة تنتظر . ووجدت فى صاحبى الغصن الذى أستقر عليه .. والقادم الذى طالما سمعت وقع أقدامه وشممت عبيره .. وطاف بى الدجى طيفه .

وأخذت أمي تبل من مرضها وكدت أكره لها الشفاء خشية أن أفقد الإلف .. لولا أنه لم يقصر علاقته بنا على المرض .. ولم يعتبر نفسه بالنسبة لنا مجرد طبيب .. بل صديق . أو قريب .. أو كما كنت أراه توأما حبيبا .

واستمرت تجمعنا ثلاثتنا فى الدار جلسات بريئة ضاحكة ولم يكن ما بيننا ليتعدى النظرات فما سنحت الظروف لأحدنا حتى يفصح عما بنفسه ..

وفى ذات يوم جلست وأمي نتحدث فى أمور شتى .. ووجدتها تعرج فجأة

— ولأول مرة — على مسألة زواجى . سائلة إياى عن رأيى فى الزواج .

وأحسست بقلبى يخفق بشدة .. إذ بدا لى أنه قد حدثها فى أمر زواجى . وأنها سألته التريث حتى تأخذ رأيى .

ولم أستطع أن أجيبها بصراحة ، وأن أقول لها إنى أتلهف على زواجه ، فقد كرهت أن أبدو لها أنانية ، وأن أرد على طول تضحيتها وزهدها فى الحياة من أجلى .. باللهفة على الفرار منها عند أول فرصة تسنح لى .

وأطرقت برأسى برهة .. ثم أجبتها قائلة :

— إن الوقت لم يحن بعد .. إنى لا أرغب فى فراقك أبدا .

وربتت على ظهرى وطبعت على رأسى قبلة ملؤها الحنان ثم قالت :

— هذا أمر لا بد منه .. ثم إنه لا يسعدنى أكثر من زواجك .. واستقرار حياتك .

وأحسست من قولها بفرحة شديدة .. وأجبتها وأنا أسند رأسى إلى صدرها .

— أمرك يا أماه .. سأفعل كل ما تحبين .

ومضت فترة صمت قصيرة ثم فوجئت بسؤالها :

— ما رأيك فى ابن خالك ؟

— ابن خالى ؟

وحمل سؤالى أقصى ما يمكن من نبرات الدهش والعجب ثم أردفت مستوضحة :

— من حيث ؟

— من حيث الزواج .

من حيث الزواج ؟ أية مفاجأة هذه ؟. لقد كان كل ذهنى وإحساسى مركزا فى توأم النفس .. فلم يطف ببالى إنسان غيره .. لا ابن خالى .. ولا غير ابن خالى .

وأحسست بخذلان شديد وخيبة أمل كبيرة .. وأجبت متلعثمة فى صوت لم

أستطع أن أخفى ما به من مرارة وألم .

— ابن خالى ؟.. لم أفكر فيه كثيرا .. ثم إنه ليس هناك ما يدعونى إلى التفكير فى الزواج .. دعينا الآن من هذه المسألة .

— لا .. لا .. يجب أن تفكرى فيها جيدا .. إنك لم تعودى صغيرة .. ويجب أن أطمئن عليك .

وانتهى الموضوع عند هذا الحد .. وبت ليلتى مؤرقة مسهدة .. حائرة قلقة .. لا أدرى ماذا أفعل .. هل أخبرها أنى أحب صاحبى ولا أريد الزواج من غيره ؟؟ ولكن هبه لم يتقدم لطلبى .. ماذا أفعل .؟ أليس من الأفضل أن أتعلل بالانتظار .. حتى نستطيع التفاهم .. أو حتى يتخذ هو خطوة حاسمة ؟

ولم يطل بى الانتظار . فقد اتخذ الخطوة الحاسمة .. أحسم وأسرع مما كنت أتوقع وأنتظر .. ففى اليوم التالى علمت أنه قد تقدم .. لا لخطبتى أنا .. بل لخطبة أمى !

أجل .. لقد سألتنى أمى فى الصباح عما قررته بشأن ابن خالى .. فأجبتها بأن الوقت لم يحن بعد .

ولكنها ضمتنى فى عطف وأنبأتنى بأن الطبيب سألها الزواج ولكنها لم تجبه وسألته الانتظار حتى تزوجنى وتطمئن على مستقبلى ؟

لقد كان تصرفها حكيما وكان حديثها بسيطا ومنطقيا .. ملؤه العطف والحنان .. ومع ذلك .. فلا أظن هناك طعنة يمكن أن توجه إلى إنسان أقسى من طعنتها التى أدمت قلبى .. وتركتنى ألهث وأترنح كالطير الذبيح !

إذن .. لقد كان هذا هو سر لهفتها المفاجئة على زواجى .

ولكن مالى أحس منها بمرارة وألم .. ما ذنبها هى فى كل ما حدث .. لقد فعلت من أجلى أقصى ما يمكن أن تفعل ورفضت أن تتزوج .. قبل أن تزوجنى .. ماذا يمكن أن يطلب منها أكثر من هذا ؟.

إن الخطأ خطئى .. خطأ الروح الهائمة الضالة .. المتعللة بالباطل المستقرة

على غصن عاطل .. خطأ النفس الصادية العادية وراء سراب .

ماذا أستطيع أن أفعل .. وماذا يستطيع أى إنسان غيرى أن يفعل .. إذا ما وضع مكانى .. سوى تلقى الضربة فى صمت واستسلام .. أأستطيع أن أثور على أمى الحبيبة الحنون فأتهمها بأنها سلبتنى توأم النفس وصنو الروح .؟

أأستطيع أن أثور على صنو الروح وتوأم النفس .. لأننى أحببته وتعلقت به .. ووضعت فيه كل أملى .. وهو واجد بغيته فى ناحية أخرى .. مُلْقٍ دلوه .. فى دلاء آخر ؟

لا .. لا .. ليس هناك من يلام .. سواى .. والظروف الخرقاء الحمقاء .. وما من علاج للفعلة الهوجاء .. سوى الصمت وطأطأة الرأس .. والرضوخ والاستسلام .

وتزوجت ابن خالى .. إرضاء لأمى .. وردا للدين الذى أحاطت به عنقى .. فما وجدت هناك معنى للمعارضة أو الوقوف فى طريق يعد أمنية لها .. وهى التى حرمت نفسها طوال هذه المدة من أجلى .

وتزوجت هى كذلك .. تزوجت من الرجل الذى كنت أحس أنه توأمى الذى نظمه الله معى قبل ميلاد الدنيا .. والذى لم أجسر أن أقول لها أو له أو لأى إنسان آخر .. إنى أحبه . ما الفائدة ؟

ومرت بنا الأيام وسار بنا زورق الحياة .. فأضاف إلينا من خضمها ما أضاف وأخذ منا ما أخذ .

وكان أول ما أضيف إلى الزورق .. بنتا أنجبتها من زوجى ..وكان أول ما أخذ زوجى نفسه .. وهكذا وجدت نفسى بعد بضع سنين أرملة ذات طفلة .. تماما كما كنت وأمى .

واستمرت الأيام فى كرِّها وفرِّها .. واستمر زورق الحياة فى سيرة ، فأوصل أمى إلى نهايتها .. وعقبها زوجها بعد فترة قصيرة ، حتى لكأنهما كانا على موعد فى الحياة الأخرى .

وسار بى الزورق .. إلى خريف العمر .. فى هدوء ويسر .. وبقلبى جفاف ويبس لم تهب عليه ريح حنون .. ولم يطف به طيف أليف .. ينتابنى الحنين بين آونة وأخرى .. فتهيم روحى فى الآفاق .. فلا تستقر على قرار .. تهفو فينكرها الحب وتنادى فيجيبها العدم .

إن الزورق قد خلف الربيع والنفس يائسة بائسة .. وأنا قانعة بأن أكون أما .. والتوأم تائه ضال .. حتى لقيته مرة ثانية !

هذه المرة كانت .. قبيل الخريف .. لقيته .. ففجر فى القلب اليابس ماءه بعد طول جفاف .. وأنضر الروح الذاوية بعد طول ذبول .. وإذا بالربيع الذى ولًّى .. كأنه ما ولى وما فات .

فى هذه المرة كان حبى أشدَّ عنفا وأكثر قوة .. لقد كان أشبه بنيران أصابت الهشيم ووجدت نفسى أجد ما افتقدته طول العمر .. وأعثر على ما أوشكت أن أيأس من العثور عليه .

لو صح تقمص الأرواح ، لاستطعت أن أجزم بأن روح التوأم السابق قد هبطت فى الإلف الجديد ، فما شدا القلب إلا لهما ، وما ترنم الفؤاد إلا فرحة بهما .

وهكذا أصابنى الحب ثانية بعد أن التقيت به بضع مرات عند إحدى الصديقات ، وأحسست بالنشوة وأنا أجده يتابعنى بنظراته ، فلا أكاد أخلو إليه حتى يهمس لى .

ـــ ما أعجبك .. كلما زدت إلى وجهك النظر .. وجدت به حسنا جديدا ، لقد أبصرتك أول مرة .. فلم يسترع انتباهى منك شىء وفى المرة الثانية أحسست بوجهك لمحة جمال .. وفى الثالثة أسرنى منك جمال هادئ .. كنسيم الصيف . ساكن كصفحة غدير .. وفى الرابعة .. لم أنظر إلى شىء سوى وجهك ولم أحدق فى غير عينيك .. لقد تملكنى منهما سحر عجيب .

ولم أجب .. فقد أغرقتنى كلماته بسعادة كبرى .. وملأنى حديثه العطرى

بالمتعة والنشوة .

وزادت بيننا أواصر المعرفة وتوثقت عرى المودة ودعوته إلى الدار مرة ثانية وثالثة .

وفى الرابعة .. حضر هو من تلقاء نفسه ..

ليخطب منى ابنتى !

وكانت الطعنة هذه المرة .. أقسى من الأولى وأشد إيلاما لقد بددت من نفسى الثقة وأفقدتنى الإيمان .. لقد أذبلت منى كل ما نضر .. وأيبست كل ما ازدهر .. لقد كانت الريح التى جعلتنى أهوى إلى الثرى وأختلط بأديم الأرض ..

ولم أستطع أن أقول لا .. وأنا أرى فى عينى ابنتى فرحة وألمح فيهما لهفة ..

ولم أستطع أن أؤنبه على . أننى أحببته .. فأحب هو ابنتى .

لم أستطع أن ألوم إنسانا . سوى نفسى .. والقدر الذى خدعنى بغصن عاطل .. وسراب خلاب .

أترانى صادفت فى المرتين توأم نفسى .. ثم سلب منى ؟

أم أن توأم النفس ما زال فى أقصى الأرض أو دون المريخ أو تحت القمر أو وراء ذلك الجدار أو ذلك الباب ..

ما قيمة الحياة إذا كنت سأثوى فى باطن الأرض دون أن ألقاه .. ما قيمة العمر إذا كان القدر الساخر يأبى إلا أن يهتف بى .. « عبثا خلقت » .

حالة يأس

وساقتني قدماى إلى هنا لألقاك .. عابر سبيل .. ألقيت إليك بأثمن ما حاولت الاحتفاظ به .. لقد أضحى عندى بلا ثمن .. إنى يا سيدى فى حالة يأس .

حدثنى صاحبى قال :

صادفتنى على مضيق الحياة .. فى ساعة يأس منها وحنين منى .. ووهبتنى نفسها وقصتها .. فى لمحة كومض البرق .. وافترقنا فتركتنى حائرا نادما .. أسائل نفسى : ترى لو وهبتنى قصتها قبل نفسها .. أكان مصيرها معى مثل ما حدث ؟

عندما أحاول أن أجيب عن هذا السؤال .. وأنا أجلس هادئ النفس بارد الحس .. أكاد أجزم .. أنى كنت لا شك رادعها .. ومعيدها إلى رشدها .. ورافض هبتها التى وهبتنى من نفسها وجسدها .. ولكنى أعود فأسائل نفسى : ترى لو لقيتها ثانية .. وامتحنت أمام جسدها الحار الفائر . وعرضت للتجربة مرة أخرى .. أكنت أرفض المنحة وأعرض عن الهبة ..؟ أكنت قائلا لنفسى — كما أقول الآن — إننى دخيل متطفل .. وإنى بالنسبة لها لست سوى عابر سبيل سرق ما ليس له .. من يدرى ..؟ أنا رجل كغيرى من الرجال .. مَن مِن الرجال يستطيع المقاومة أمام جسد معروض ؟ ..

لقيتها ذات ليلة .. لا تسلنى .. من . ولا متى . ولا أين .. فما أقصد بحديثى هتك ستر . أو سرد فضيحة .. وماذا يفيد التحديد .. والقصة مكررة معادة .. تحدث هنا وهناك وفى كل مكان وزمان .؟

لقيتها على الشاطئ ذات ليلة — أى شاطئ وأى ليلة — مهمومة مكروبة .. حزينة يائسة .. ترمق الفراغ والظلمة بعين تائهة وذهن غارب شارد .. وتحملق فى الماء كأنها فقدت فى جوفه عزيزا لديها .. وشيعت وراء أمواجه حلما جميلا ومتعة ضائعة ..

كان المكان قد خلا إلا منى ومنها .. هى على حالها تلك من الشرود والذهول .. وأنا مرهف الحس متأجج المشاعر بى شوق مكبوت إلى الضم واللثم .. وإلى الحديث الناعم والأنفاس المعطرة ..

لا أكتمك القول إنى كنت أشبه بذئب يبحث عن صيد وأنى كنت فى لهفة وحنين .. وهى حالة لا شك فى أنها تصيب كل الرجال .. فى بعض الأحايين .. أو بعض الرجال فى كل الأحايين ..

كنت فى حالة شوق إلى امرأة .. وقد عدت إلى ذلك المكان الخالى عودة المكدود الجائع .. يخلد إلى الراحة ليهدئ من ثورة جوعه ثم يعاود الصيد مرة أخرى ..

ووجدتها هناك .. على غير موعد .. ولا سابق انتظار .. مطرقة صامتة .. ولمحت شبحها .. فى ضوء السماء الشاحب .. ولم أميز سوى الخطوط الخارجية التى تحدد هيكلها فى ظلمة الليل .. فبدت لى مستوية الجسد ممشوقة القد .. وأوحى إلى ضيق خصرها أنها لا بد أن تكون امرأة جميلة ..

وحتى لو لم تكن جميلة أكان هناك أسهل علىّ من أن أقنع نفسى — وأنا على حالتى تلك من اللهفة والشوق — أنها أجمل نساء العالم . ألم تكن الظروف التى أنا فيها — أنا وهى وحيدين فى ظلمة الليل وسكونه — بكافية لأن تدفعنى إلى الإقبال عليها .. أيا كان نصيبها من الجمال ؟

وهكذا وقفت برهة ألم أطراف جرأتى .. وأرتب فى ذهنى الخطة التى بها أقنص الصيد .. ثم اقتربت منها وألقيت إليها بالتحية فى صوت كسوته ما استطعت من رقة .

ولم تجب .. بل رأيتها تنظر إلىّ نظرة سريعة عابرة ثم عادت إلى شرودها وكأنى غير كائن ..

وتأملتها عن قرب .. وجهها .. وجسدها .. فأقسمت ألا تفلت منَ بين يدى .. لقد بدت لى فى جلستها وسط الظلمة .. جميلة رائعة .؟

وأيقنت من إعراضها .. وشرودها .. وسيماها الأبية أنها صيد صعب المراس .. قوى الشكيمة وأنها لن تقع — إذا وقعت — إلا بعد طول أناة وكثير جهد ..

وعدت أرتب فى ذهنى طريقة الهجوم .. وصممت على أن أنفذ إلى نفسها بالرقة واللين ..

وبدأت الحديث .. وهى معرضة واجمة صامتة .. لا تلتفت ولا تجيب ..

وفجأة وجدتها تلتفت إلىّ وتسأل فى مرارة :

— ماذا تريد منى ..؟

وأجبتها فى صوت حنون :

— لم أنت حزينة شاردة ؟ هل أستطيع أن أدفع عنك بعض أحزانك ؟

— تدفع عنى بعض أحزانى ؟ أنت ! وما شأنك ؟ أهذا كل ما تريد ..؟

ورأيت فى عينيها نظرة تحد .. وهى تسألنى : « أهذا كل ما تريد » .. ووسوس الشيطان فى صدرى أن أكون جريئا .. وأن أقبل تحديها .. من يدرى .؟ قد تكون الوقاحة أجدى معها من الرقة .. لم لا أجرب ؟

ووجدتنى أجيبها بنفس التحدى :

— أريد منك ما يريد الرجل من المرأة ..

ومضت فترة صمت وهى تحملق فى الفراغ والظلمة . وأنا أرمقها فى لهفة وقد سرت فى جسدى رجفة شوق وعرانى اضطراب شديد .

وسمعتها تجيب وكأنها لا تعنينى :

— خذه ! خذ ما تريد !

وتلاحقت أنفاسي .. وجمدت فى مكانى برهة .. وبدا لى أننى واهم فى سماع ما قلت ..

أبمثل هذه السهولة والبساطة .. قد سلم الصيد ؟ أهكذا تكون الشكيمة القوية .. والمراس الصعب ؟ الذى يحتاج إلى طول أناة وكثير جهد .. ؟ لا .. لا .. إما أن أكون واهما .. أو تكون ساخرة هازئة ..

وتلفت حولى فوجدت المكان يغمره الصمت . ونظرت إليها فوجدتها صامتة تنتظر . بارزة الصدر . حلوة القسمات .

وتلاحقت أنفاسي كأنى أعدو فى سباق .. وأحسست بالدم يتصاعد إلى وجهى وبالحرارة تسرى فى جسدى وبلا وعى مددت يدى إليها وضممتها إلى .. وتلاصق جسدانا فى السكون الشامل والظلمة السائدة .. وبلا أدنى مقاومة .. أخذت ما أريد .. لتعجب كما تشاء !

لتعجب من هذه السهولة والبساطة والجرأة والسرعة .. التى تم بها الأمر فما كنت أنا نفسى أقل منك دهشة . وأنا أجلس بجوارها أحملق فى الماء .. وأرمقها من آن لآخر وهى مطرقة فى ذهولها وشرودها وحزنها ويأسها .. وأبصر الدمع يترقرق فى مقلتيها ثم ينحدر على صفحة وجهها .

ومددت يدى فأمسكت بيدها ضاغطا عليها فى رفق وأحسست بنفسى تتأرجح بين شتى المشاعر . الندم والعجب والعطف والحزن وسألتها فى صوت خافت :

ــ ما بك ..؟

ــ حالة يأس .

ــ مم ؟

ــ من كل شيء .

ــ حتى من رحمة الله ؟

ــ منذ لحظات لم يكن قد تبقى لى سواها .. أما الآن !

ثم ضحكت ضحكة صفراء مريرة ساخرة وأردفت تقول :

ـــ فما عاد لى أمل فيها . أوتظن الله يغدق رحمته على من كفروا به ويئسوا منه ؟

ـــ دعى ما لله لله .. خبرينى ما سبب يأسك ؟

ـــ وما شأنك أنت .؟ عابر سبيل قد وهبت ما ليس لك .. دعنا نفترق .. كأننا لم نلتق .. وانس ما كان كأن لم يكن .. لقد كنت حمقاء يائسة .. فأصبحت حمقاء بائسة خاطئة نادمة .. لا فائدة .. يجب أن ندع القدر .. يفعل ما يشاء .

ـــ لم لا تخبريننى عما بك فقد أفعل لك شيئا .؟

ـــ لقد فعلت الذى تستطيع فعله . أو ما يستطيع أن يفعله أى رجل غيرك .

وبدا لى فى قولها كثير لوم وتأنيب وقلت أتمتم معتذرا :

ـــ إنى جد آسف .. لم أكن أريد أن أحزنك .

ـــ لا داعى لأن تأسف .. لو لم تكن أنت لكان سواك.لقد كنت أريد أن أثأر .. وأن أنتقم .. لقد أطار اليأس صوابى وأفقدنى رشدى .. حاولت أن أكون زوجة مثالية ولا أحيد عن الطريق المستقيم .. وأن أخمد مشاعرى وأحطم قلبى .. وأن أرضخ لمشيئة القدر وأن أكون بما وهبه لى راضية قانعة .. ولكنه أبى علىّ ذلك .

قد يكون خطئى من أول الأمر .. عندما قبلت الزواج منه ولكن ماذا كانت تستطيع فتاة مثلى أن تفعله بإزاء رغبة أبويها ومنطقهما .. لقد تقدم لخطبتى .. وهو فى نظرهما زوج نموذجى .. كريم الأصل ضخم الثروة قوى الجاه . آية حمقاء تلك التى ترفض زواجه .؟

هل كنت أستطيع أن أقنعهما بأنى لن أتزوجه لأنى أحب صاحبى الذى مضى عليه عامان يدرس فى الخارج ، وبقى عامان آخران على عودته ؟

هل كنت أستطيع أن أقنعهما أو أقنع أى إنسان برفض هذه الزيجة.

« اللقطة » .. لأنى أنتظر إنسانا أربعة أعوام ..؟ هل أستطيع أن أقنعهما بأنه لم ينسنى .. وأنه لن يعود ومعه زوجة من هناك ..؟

لكى أنصف نفسى .. حاولت .. فثاروا فى وجهى واتهمونى بالسخف والطيش والبلاهة والجنون .. وهددونى بالطرد .. وأنبأونى أنهم أدرى منى بهذه الأمور وأنى عندما أتزوج وأعقل .. سأدرك مبلغ سخافة تفكيرى .

وهكذا انتهى بى الأمر إلى الزواج منه .. وصممت فى نفسى على أن أكون زوجة مخلصة وأن أقوم بواجبى نحو الشريك الذى اختاره لى القدر خير قيام .. وأن أدفن مشاعرى فى جدث الماضى ، وأهيل عليها تراب النسيان ، حتى لا تطل على حياتى الهادئة المستقيمة فتثير فيها الزوابع والعواصف .. وتجعلنى قلقة .. لم أمتع بماضىّ ولن أهنأ بمستقبلى ..

أجل .. لقد صممت على الاستقرار .. وعلى قطع كل صلة لى بمن أحب ..

ولقد كان الأمر علىّ جدَّ عسير .. ولكنى احتملته وأقنعت نفسى أنه خير لنا أن نحب ما نوهب من أن نبكى على ما ضاع ..

وبدأت فعلا أعتاد حياتى معه .. حياة راضية قانعة . لا تخلو من المتعات السطحية ، المتكررة ، التى تهيئها حياة الثراء لأصحاب الثراء .. والتى أغنتنى — إلى حد ما — عن المتع الشاعرية العميقة .. متع الحب .. التى لا يهبها لنا إلا مخلوق واحد .. يبدو لنا كأن الله قد خلقنا وإياه من نفس النسيج أو من نفس النطفة .

وسارت الحياة فى طريقها الطبيعى .. هادئة منتظمة وزاد مر الأيام انهيال تراب النسيان على جدث الماضى . وزادت المشاعر المدفونة المكبوتة خمودا وركودا . حتى كان ذات يوم .. فإذا بالأجداث تنبش وإذا بالثرى تثيره الرياح .. وإذا بالميت المدفون قد وقف على قدميه سليما صحيحا .. وإذا بالمشاعر الراكدة الخامدة تتأجج فتضحى لهيبا مستعرا .

لقد رأيته .. وكانت مجرد رؤيته تكفى لأن تفعل بى كل ما حدث .. حتى

لقد هممت لولا بقية من مقاومة وحياء بأن أرتمى بين أحضانه أمام زوجى وأمام الناس .

وسألنى أن ألقاه على حدة ، وترددت قبل أن أذهب فقد رأيت أنه لا فائدة من التقهقر والالتواء ، وأننى يجب أن أتغلب على هذه التجربة العسيرة التى أمر بها ، وأن أعود فأدفن مشاعرى التى أيقظتها لقياه ، وأحجها مرآه .

وقلت لنفسى . لو أنه عاد قبل زواجى . لما ترددت فى أن أضرب بكل شىء عرض الحائط فى سبيله . أما الآن وقد أضحيت زوجة ، وأضحى أى تصرف منى يخدش شرف إنسان لم يسئ إلى . فإننى يجب أن أكبح جماح نفسى وأبعده عن طريقى .

وذهبت للقائه . حتى أقنعه بما توهمت أننى أقنعت به نفسى ، وكان اللقاء عسيرا على . بذلت فيه أقصى ما تستطيع امرأة أن تبذل لتقاوم مشاعرها ونزعاتها .. كنت أتمنى لو ارتميت بين أحضانه . ولكنى مع ذلك تباعدت وتماسكت لإحساسى بأنى زوجة إنسان آخر .. وأن فى عنقى واجبا نحوه .

وعاتبنى عتابا صامتا . وشرحت له الظروف التى اكتنفت زواجى .. ووجدته يطرق برأسه فى مرارة .. ثم يسألنى عما أنوى فعله الآن .. فأجبته :

— لا شىء .. يجب أن نرضخ لفعل القدر .. يجب أن يسير كل منا فى طريقه ..

فقال فى إصرار وحزم :

— بل يجب أن نصلح فعل القدر ، إن من الغباء أن نرضخ لفعل خاطئ . فى إمكاننا إصلاحه .

يجب أن تطلقى من زوجك . ألست تحبيننى كما أحبك ؟

— لا فائدة .. ليس أمامنا سوى الرضوخ والفرقة ..

وهكذا صممت على أن يبعد كل منا عن طريق الآخر وأنا أتحرق شوقا إليه .. لقد كنت أشبه بمهجرة صادية .. تريق الماء .. وهى تتلهف على قطرة منه !

وافترقنا بعد أن أنبأنى أنه سيسافر مرة أخرى .. وأنه قد أتى من أجلى وأنى قد خيبت أمله .. وحطمت قلبه وسألنى أن ألقاه مرة ثانية قبل أن يرحل ..

وعندما حان موعد الرحيل خرجت لتوديعه .. ولكنى لم أجرؤ على الذهاب إليه . لقد كنت أخشى الانهيار .. وظللت أتلكأ فى الطرقات حتى فات الموعد ثم عدت إلى الدار دون أن ألقاه ..

ودخلت الدار وصعدت متثاقلة إلى غرفة نومى .. لأجد الرجل الذى حطمت من أجله قلبى ووأدت مشاعرى ، على فراش واحد مع الخادمة .

وأحسست بالمبادئ تنهار وبالفضيلة تتهاوى وخيل إلى أنى أسمع الشيطان ساخرا هازئا ويصيح بى :

ـــ هؤلاء هم الرجال .

وغادرت الدار فى صمت ويأس ، يأس جنونى قاتل وتمنيت لو استطعت اللحاق بالحبيب الراحل الذى حطمت قلبه .. ولكن لم أجد فائدة .

وساقتنى قدماى إلى هنا لألقاك .. عابر سبيل .. ألقيت إليك .. بأثمن ما حاولت الاحتفاظ به .. لقد أضحى عندى بلا ثمن .

إنى يا سيدى فى حالة يأس .

هل علمت ما بى ؟

* * *

وافترقنا بعد ذلك فلم نلتق ، ترى أما زالت تهب نفسها لكل عابر سبيل ؟ أم أنها قد اكتفت بذلك الثأر ؟

لقد نصحتها بأن تتجلد وتحتمل .. وقلت لها إن الزمن كفيل ببرء جرحها .. أتراها قبلت النصح .؟

ملهمة العمر

إن حياتى كلها وهم ، فلم لا أجعلها وهما جميلا ؟ لِم لا أقنع من صاحبتى بأن تكون ملهمتى ومبعث وحيى ، تنضر الورق بين يدى .. وتنبت من الكلمات زهرا ، وتبعث من السطور عطرا ؟

كان هو أول من أرانى إياها .. ونحن نسير على الشاطئ ذات صيف .. وقد اتكأت بمرفقها على الرمال وأسندت رأسها إلى كفها وتمدد جسدها فى استقامة ، وتهدل شعرها على كتفيها وسال على الرمال .

وأحببناها بعد ذلك سويا .. أنا بطريقتى وهو بطريقته ، ولم يستطع حبنا المشترك أن يوقع بيننا .. أو يفصم عرى ما بيننا من صداقة متينة .. بل بقى كل منا عاشقا لها .. وصديقا للآخر ..

والواقع أنه لم يكن هناك ما يوجب بيننا الشقاق من أجلها فقد كانت طريقة كل منا فى حبه إياها .. تختلف عن طريقة الآخر كل الاختلاف بحيث لا يمكن أن يحدث بيننا خلاف على مطلب ، أو نزاع على غاية .

كان يريد منها غير ما أريد .. ويرجو غير ما أرجو .. ويطلب غير ما أطلب .. ولم يك يغار منى ، ولم أك أغار منه .

أجل .. ما أظن أنه قد غار منى قط .. قد يكون ذلك لأنه لم يخطر له ببال أنى أحبها .. ولم يك يرى فى إحساسى نحوها أكثر من إعجاب بروعة حسنها وافتتان بمظهرها الفاتن الخلاب ... وأنى لا أشعر بأكثر من أنها حبيبته هو .. أى أنها بالنسبة إلىّ لا تعدو أن تكون شيئا متعلقا به .

قد يكون هذا ما سبب عدم غيرته مني واطمئنانه إلى .. أو قد يكون شدة حبه لى وثقته فىّ .. هو ما دفعه لئلا يلفظنى من أجلها .. برغم إحساسه بأننى أحبها فعلا .. وأنه يحاول الاحتفاظ بكلينا .. أو قد تكون شدة ثقته بنفسه واقتناعه بأن لا خوف عليه منى فى ميدان هواها .. وإحساسه بأنه أقرب إليها منى وأكثر استحواذا على مشاعرها وأنه الأساس وأنى القرع .. وأنه المحب الأصيل .. وأنا محب عابر طيار .

كان على حق فى كل ما ذهب إليه .. فلقد كانت طريقته فى حبها — كما قلت — على طرفى نقيض وطريقتى .. كان يحبها باندفاع ورغبة ولهفة .. كان يريدها هى .. ويتوق إلى وصلها .. الحديث معها والجلوس إليها .. والرغبة فى تقبيلها واحتوائها بين ذراعيه .. كان يريد الاستحواذ عليها .. وأن تضحى ملكه .. وزوجته .. وشريكة حياته .

أما أنا فما كنت أريد شيئا من هذا كله .. لقد كنت أراه كثيرا على .. أكثر مما أحتاج .. كنت فى حبى لها أشبه بالفقير الزاهد المتعبد .. الذى لا يريد من ربه سوى الستر .. لا يطمع فى مزيد من نعيم ومتعات .. بل يقنعه ما يقيم به أوده .. ويمنحه الهدوء والاستقرار والتفكير فى ربه .

أترانى كفرت بهذا التشبيه ؟.. كفرت أم لم أكفر .. لقد كان هذا هو بالضبط إحساسى نحوها .

إنى ما رغبت قط فى أن أضمها أو ألثمها .. أو أتحسسها بيدى .. بل كان أقصى ما يسعدنى هو أن أراها .. أو حتى أحس بأنها موجودة .

أجل .. كنت قريرا وأنا أحس أنها داخل هذه الكابينة أو وراء تلك الصخرة أو وسط هذه الجمهرة من الناس .. أو حتى مجرد أن أعرف أنها قد حضرت من الدار إلى الشاطئ . فإذا لم أرها .. ولم أحس وجودها .. فإنى أيضا قرير هانئ .. ما ضرنى لو غابت عن مرأى البصر .. وهى مستقرة فى مرآة الذهن ؟ .. ما ضرنى .. وهى ما استطاعت أن تغيب عنى قط .. فهى حاضرة حاضرة ..

وغائبة حاضرة .. إذا حضرت فكلى أعين .. وإذا غابت فطيفها فى خيالى .

كنت أحمدها على كل صنيع .. وكل فعل .. ولم أكن أطمع منها فى شىء .. فإذا ما وهبتنى شيئا . كلمة رقيقة أو ابتسامة حلوة .. أحسست بفيض من السعادة يغمرنى ويفيض بى .

كنت أذكرها .. ولا أرجو منها أن تذكرنى .. فإذا ما ذكرتنى .. وجدت فى ذلك .. إغراقا فى الكرم .. وإسرافا فى المنح والإغداق .

كيف أحس بالغيرة عليها من صاحبى — أو من غيره وقد كنت فى حبى لها أشبه بالعابد المتبتل ؟.. أيغار العبد على ربه من حب غيره من العبيد !؟

كيف أحاول أن أخص نفسى بها . وأنا أحس أن كل إنسان يجب أن يحبها ؟

كيف يمكن أن أستحوذ عليها وأنا أرى فيها نعيما مشاعا كالشمس والهواء ؟

هذه كانت طريقتى فى حبها ! وتلك كانت طريقته .. كنت واهما وكان جادا .. كنت أتطلع إليها وكان يريدها .. كنت أحلق إليها بذهنى .. وكان يتحسسها بيده .. كان الفارق بيننا كالفارق بين السابح فى الهواء .. والسائر على الأرض .. وبين الحالم واليقظان .

ولم يكن هناك شك فى أنه بطريقته فى الحب أضحى أقرب إليها منى .. بل أضحى هو كل شىء وأنا لا شىء .. هو المحب وأنا على هامشه .. هو صاحبها وأنا صاحب صاحبها .

وأقسم غير حانث .. أن هذا ما ساءنى قيد أنملة .. وما أوغر صدرى ضد صاحبى .. فقد كنت أرى فيه أمرا طبيعيا وكنت أحس أنه هو صاحب الحق عليها . أما أنا فقد كنت قانعا بأحلام الهوى .. ومتع الأوهام .. إن حياتى كلها وهم فلم لا أجعلها وهما جميلا ؟؟ لِم لا أقنع من صاحبتى بأن تكون ملهمتى ومبعث وحيى . تنضر الورق بين يدى .. وتنبت من الكلمات زهرا وتبعث من السطور عطرا ؟

وتوثقت العلاقة بينه وبينها وكان يقص علىّ أولا بأول كل ما يحدث له

معها ..

قص عليّ كيف كلمته وكيف سبحا سويا .. وقص عليّ كيف جلسا وحيدين على الصخرة وتناجيا وتناغيا ، وتبادلا أحاديث الحب الساحرة ، وكلماته العطرية،وحدثني — كأنني لا أعرف — عن جمالها ورقتها وسحرها وفتنتها ..

ومرت الأيام .. وثلاثتنا مغرقون فى هذا الحب المثلث العجيب ، هما تزداد بينهما أواصر الحب ، وأنا قانع منها بالسلام السطحى واللقاء العابر الذى أناله كصديق لصاحبها .

وفى ذات يوم أحسست وجوما من صاحبى .. وبدا لى أنه على غير عادته من المرح والسرور .. وضايقنى وجومه فقد كنت أكن له حبا عميقا ، وكنت أحس من حزنه بحزن أضعاف حزنه .

وأقبلت عليه أمازحه ، سائلا عما به ، محاولا التفريج عن همه ولكنه استمر فى إطراقه ، قائلا إن به صداعا بسيطا ولكنى أدركت أن ما به أكثر من صداع فى الرأس .. وقلت له ضاحكا :

— صداع فى الرأس أم فى القلب ؟

ووجدته يهز رأسه ويقول فى نبرات حزينة :

— الذى فى القلب لا يسمى صداعا .. بل صدعا .

— إلى هذا الحد ؟

— إنى أحس منها فى هذه الأيام تحولا وبرودا ؟

— قد تكون واهما .. لا تحمل الأشياء أكثر من حقيقتها .

— أبدا ، لابد أن فى الأمر شيئا ، إنى فى حيرة شديدة . لست أدرى ما أصابها .. هل هناك إنسان آخر ؟

— لا تكن سخيفا .. قد يكون ما بها ملل منشؤه فرط إقبالك عليها .. اتئد قليلا فى حبك .. حتى تشوقها إليك .. اهجر أنت حتى تصلك هى ..

ــ لا .. لا .. لا فائدة لقد جربت . إنها طريقة خطرة !! وأخشى إن هجرت أن تمعن فى الهجران فأفقدها . ثم إنى لا أطيق هجرها ، فكيف أفعل مالا أستطيع عليه صبرا .

ــ على أية حال .. لا داعى لأن تحزن نفسك بهذه الطريقة .. أؤكد لك أنها تحبك كما أحبتك دائما .. ولكن الحب طبيعته مد وجزر .. لا تنتظر أن يكون الحب وصلا دائما وسعادة مقيمة .. بل يجب أن تصيبه هزات ورجات .. وإلا خبا أواره وخمدت جذوته .

ــ أنت فيلسوف واهم حالم ! لا تدرك من الواقع شيئا ، إنى أدرى بها منك .

وانطلقت من صدره زفرة حارة يائسة . ولم أجد ما يقال له خيرا مما قلت ، فتركته لنفسه علّ الحزن يتطاير منها بمضى الوقت .

ولكن الحزن لم يتطاير .. بل استمر صاحبى فى وجومه وإطراقه .. وبدا لى أن هناك فعلا حالة فتور بين المحبين قد تصل إلى حد القطيعة ، فقد كانت تمر بنا .. فلا يصيبه منها سوى تحية عابرة .. نتقاسمها سويا !

وفكرت فى أن أحاول أن أصلح ذات البين بينهما ، وأن أسائلها عما بها .. فقد يكون هناك سوء تفاهم أفلح فى إزالته إذا ما جمعت بينهما . واستقر بى الرأى على هذا .. وتركت للمصادفة أن تمكننى من تنفيذه .. ولكن المصادفة لم تتح .. فقد استدعى صاحبى من إجازته إلى القاهرة .. لدواعى العمل .

وحمدت الله وقلت إن هذا خير ما فعلته الظروف .. فإن هذه الفترة من الفرقة لا شك ستفعل فعلها .. وتمحو ما بين الصاحبين وتعيدهما إلى سابق حبهما .. وانتظرت أن يعود صاحبى يوم الخميس لقضاء عطلة الأسبوع فقد كنت واثقا أنه لا يستطيع على فرقة صاحبته صبرا .

ولكن لم يكد يمضى على سفره يوم واحد حتى وصل إلىّ منه خطاب .. بداخله مظروف مغلق ورسالة قصيرة جاء فيها ما يلى :

عزيزى .

قد تدهش إذا ما رأيتنى أكتب إليك ولما يمض يوم على فراقنا ولكنى أرجو أن تؤدى لى خدمة لا أظن سواك يستطيع تأديتها . وما كنت لأكلفك عملها . لولا عجزى عن عملها بنفسى .

لقد حاولت الاتصال بصاحبتنا قبل السفر ولكنى لم أستطع ، فقد كانت على حالها من البرود والجفاء .. ولم تتح لى فرصة أن ألقاها وحيدة . فقد كانت تجلس باستمرار فى الكابينة مع أمها وأخواتها ، وعندما نزلت إلى البحر لم تحاول أن تذهب إلى الصخرة كما تعودت أن تفعل .

لست أدرى ما بها .. فهى لا تعطينى فرصة التفاهم . وأحس أنى أوشك أن أجن .

ولقد بدا لى أن خير طريقة للتفاهم هو أن أكتب إليها ، وفعلا كتبت ، ولكنى لم أعرف كيف أوصل إليها الخطاب فإن من المستحيل أن أرسله إلى البيت ، وفكرت فيك ، فإنى لا أثق فى إنسان سواك ، ولم أشك فى أنك لن تعدم وسيلة توصل بها الخطاب إليها ، فهى تعرفك خير معرفة .

إنى أخشى أن أكون قد ضايقتك . أو حملتك مالا قِبَل لك به . على أية حال ، لو وجدت فى الأمر أية غضاضة . فمزق الخطاب .. وأؤكد لك أنه لن يغضبنى هذا .

المخلص

(.....)

وضحكت .. فقد كان كثيرا على ، أن أعمل حامل رسائل العشاق ، ورسولا بين المحبين . ولكنى لم أمزق الخطاب طبعا ، فقد كان ذلك آخر ما يخطر لى ببال .

كيف بدا للأحمق العزيز أنى أفعل هذا الفعل ، فأتركه يتقلب على جمر

الغضا ، دون أن أحاول أن أوصل رسالته إلى من يحب .

وهكذا استقر بى الرأى على أن أوصل الرسالة ، بل على ألا أفعل شيئا أبدا ولا يهدأ لى بال أو يستقر لى قرار حتى أوصل الرسالة .

وبدأت أفكر ، فقد كانت المسألة مشكلة عسيرة ، أولا لأننى إنسان خجول ولأنى أخيب الناس فى الغرام العملى ، وكل ما يتصل به من مناورات وحركات ، ويدخل فى ذلك طبعا ، إيصال رسالة لمعشوقة ، معشوقة نافرة هاجرة معرضة غضبى .

ومضى اليوم الأول وأنا فى الشاطئ صائل جائل ، لا يهدأ لى قرار ، ولا أشك فى أنى لففت حولى كابينتها ما يقرب من المائة مرة ، دون جدوى ، لأنها لم تكن قد حضرت إلى الشاطئ فى هذا اليوم .

وفى اليوم التالى حضرت ، ولكنى وجدتها كما قال صاحبى فى رسالته « محشورة » داخل الكابينة وسط ثلة من النساء والصبية وكان عسيرا على — بل مستحيلا — أن أحاول التقدم إليها بالرسالة وسط كل هؤلاء . ومع ذلك فقد ظللت أروح أمامها وأغدو ، وقد وضعت الرسالة فى جيبى وأطبقت عليها بيدى خشية أن تطير أو تضيع .

ووجدتها ترمقنى فى كل روحة لى وغدوة ، وقد بدا عليها الكثير من الدهش ، ولا أشك فى أنها كانت معذورة فقد كان بى — من فرط اللهفة — مظهر العشاق الثقلاء.. الملحين ، وأنا ما تعودت أن أفعل هذا معها ، بل كنت أعشقها — كما قلت — عن بعد ، وبحيث لا تكاد تشعر أنى أحس بها .

ووجدت أن اليوم يوشك أن ينفد ، ولما أفعل شيئا . فبدأت أنتقل إلى حالة أكثر جرأة من مجرد الغدو والرواح حول الكبينة .

وأخرجت الرسالة من جيبى وبدأت ألوح لها بها ، ولم أشك فى أنها أدركت أنى أود أن أوصل إليها الرسالة فقد زادت فى وجهها علائم التعجب .

وأخيرا وجدتها تغادر الكابينة فتتجه إلى أقصى الشاطئ وتستقر فى كابينة

خالية لإحدى صديقاتها .

وهكذا سنحت لى الفرصة أخيرا .. وأحسست أن قلبى يخفق بشدة وعنف ، فقد كانت المرة الأولى التى أخلو فيها إليها ، وأصابنى من الوهم والارتباك والخشية ما يصيب عبدا أمام سيده .

وسلمتها الرسالة فى صمت ، ووقفت أنتظر ، ورأيتها تفضها فى عجلة واضطراب ، ثم أخذت فى قراءتها .

وبدأت أرقب المشاعر التى ترتسم على وجهها أثناء القراءة ، فلمحت فيها خليطا من دهشة ، ومتعة وذهول ، كأنما قرأت فى الرسالة شيئا لذيذا عجيبا لم تكن تتوقعه قط .

وأخيرا طوت الرسالة ، ثم أطرقت برأسها مفكرة .. وبعد برهة رأيتها ترفع إلى عينين حالمتين تشعان بأمل جميل ونشوة ممتعة وسمعتها تهمس :

ـــ أنا أيضا أحبك كما لم أحب إنسانا ، ولا أستطيع أن أفكر فى أن أتزوج رجلا سواك .

أنا ؟

تحبنى أنا ؟ ولا تستطيع أن تتزوج سواى أنا ؟

وسرت فى جسدى هزة ورجفة ، كأنما قد مسنى تيار كهربائى .

إن المعبودة الساحرة ، قد ظنت بلا شك أنى صاحب الخطاب ، فإن اسمينا الأولين متشابهان ، ولا شك أن صاحبى قد أمضى الرسالة باسمه الأول .

ولم أنبس ببنت شفة فقد كنت كإنسان صعق ، لا أستطيع حتى أن أميز حقيقة مشاعرى ، أأفرح لأنها تبادلنى الحب ولأنها تحبنى كما لم تحب إنسانا ، أم أحزن على صدمة صديقى وعلى صدمتها عندما تعرف أنى لست صاحب الرسالة .

على أية حال لقد أحسست بموجة حزن جارفة .. ووجدتنى أغالب دمعتين تهمان بالقفز من مقلتى .

وأجبتها فى همسة حزينة :

— أنا لست صاحب الرسالة ، لقد كلفنى صاحبها بأن أحملها إليك .

ورأيتها تحملق فى الرسالة فى ذهول شديد ، وعلت وجهها الجميل سحابة معتمة من حزن عميق وخيبة شديدة وسمعتها تهمس :

— لست أنت !

— أجل لست أنا صاحب الرسالة ، إنى فقط حاملها ..

ورأيت أصابعها تضغط الرسالة فتمزقها ونهضت من مقعدها وهى تقول :

— قل لصاحبك ، إن ما بيننا لم يكن سوى افتتان عابر . انصحه بأن ينسى كل ما كان بيننا .

وبذلت جهدى لكى أسكت ذلك البكاء الذى كان يجيش فى صدرى .

وقبل أن تولينى ظهرها منصرفة .. استطعت أن أهمس لها :

— إنى حقا لست صاحب الرسالة ، ولكن كل ما بها صحيح بالنسبة إلى ، إنى أحببتك أيضا كما لم أحب إنسانا بل أحببتك أكثر مما يحب الإنسان الإنسان ، أحببتك كما يحب العبد ربه . كل ما جاء بالرسالة صحيح عدا شىء واحد ، هو الزواج بك ، إنى لا أستطيع الزواج منك ، من أجله هو !

وافترقنا بعد ذلك وضربت بيننا أيدى الزمن ، فلم نلتق إلا لماما ، ولم أحس قط أنى نادم على ما بذلت من تضحية .. بل إنى كثيرا ما أسائل نفسى ، أترى فيما فعلت ، أية تضحية ؟

إنى لم أخسر بتضحيتى شيئا . لم أخسر صداقة ، ولم أخسر حبا إن حبها باق فى نفسى على مر الأيام ، لا سلطان للزمن عليه . لا يخمد له أوار ولا تنطفئ له جذوة .

إنى أذكرها كحلم جميل .. وذكرى ممتعة ، أجتر منها الهناء كلما أعوزنى الهناء وأستعين بها على الحزن إذا ما ألم بى حزن . وأستلهمها الوحى إذا ما نضب الوحى وعز الإلهام .

ربيع دائم

إنهما سر هذه الخضرة المستمرة والربيع الأبدى الدائم . إن مثلهما لا يموت .. لقد ثوى جسداهما فى باطن الأرض ليخرجا على سطحها كل هذه الحياة الفياضة الجياشة .

نسيم الليل يا روضة فيك أم خفق القلوب ؟..
وحفيف الدوح فى روضك أم همس الحبيب ؟..
حدثينى يا روضة .. كم من العشاق ضمت حناياك .. وكم من المهج والأفئدة وسدتها ندى ثراك ..؟
ما سر خضرتك الدائمة .. ونضرتك التى لا تمتد إليها يد الذبول ؟..

هل سرت أنفاس عيسى فى الفلاة
فنفخن الروح فى أرض موات
وجعلن النبت يزكو من رفات
وبعثن الطير يشد هادلا
فى أريك الأيك مثنى ورباع ؟

أنفاس عيسى تلك التى سرت فيك .. أم أنفاس الأحبة ؟؟ أهى التى نفخت الروح فى أرضك أم زفراتهم الحارة ؟

ومن الذى أنطق الطير على أيكه والورق على غصنه والماء فى غديره ؟ من الذى أنبت الزهر .. وبلل بالدموع خدوده ؟

أنا يا روضة شاعر عاشق،وهل يكون العاشق إلا شاعرا أو يحيا الشاعر بلا عشق ؟

حدثينى يا روضة بسرك .. أحدثك بسرى .. إنى على سرك أمين وما أمنت على سرى مثل صدرك الحنون .

حدثى يا روضة إنى منصت إليك .. إلى همس نسيمك .. وحفيف أوراقك وخرير غديرك وشدو طيرك .

* * *

إن السر فى حناياى يا شاعر .. ولمن غيرك أخرجه .. وما فهم لغتى سواك ؟

إن أشعارك تنم عنى .. كأنها عبير زهورى .. فكيف لا أحدثك وأنت رسولى .. ومنشد لحنى ؟

هل تسمعنى يا شاعر .. سأدع نسيمى .. أو كما تسميه .. خفق القلوب وأنفاس العشاق .. يبدأ الحديث ..

استمع .. إن النسيم يتحدث ..

* * *

إن السنين تمر علىّ وأنا أضرب فى الأرض عاصفا جامحا أصخب وأضج .. أثير الزوابع وأرفع الأنواء . قلقا هائجا لا أستقر على حر ولا قر .. أهدر فى الفضاء نائحا صائحا . حتى أصل إلى هذه البقعة .. فإذا بى قد سكنت وهدأت .. والصياح والنواح قد صمت .. وبات هبوبى العاتى سريانا هادئا ناعما .. وانقلبت العاصفة فى جوفى .. إلى نسيم عليل وأحسست بالراحة والطمأنينة وإذا بثورتى الجامحة قد ذهبت .

أجل يا شاعر .. إنى لا أكاد أطوف بالروضة حتى تصيبنى رقة وسكينة وأمس دوحها فى لين وأداعب أوراقها فى رفق .. وأمسح بكفى الهادئة على سطح غديرها فأجرى ماءه وأجلو بريقه ..

وكيف أستطيع أن أفعل سوى ذلك .. وأنا ما زلت أشم عطر أنفاسهما بين الخمائل وأسمع همسهما بين الرياض .

أتراني واهما ؟

لا .. لا .. إن السنين لم تمح الآثار .. إنها باقية على الزمن .. خارجة عن سلطانه .. خالدة ثابتة ما بقيت الأرض والسماء على الأرض .

إن هذه الآثار تستمد عبيرها من أنفاسهما .. لقد ثويا فى جوف الأرض .. ولكن هل يصعب على الجذور أن تصل إلى مستقرهما لتستمد منهما الشذى والعبير ..

إنهما سر هذه الخضرة المستمرة والربيع الأبدى الدائم.إن مثلهما لا يموت .. لقد ثوى جسداهما فى باطن الأرض ليخرجا على سطحها كل هذه الحياة الفياضة الجياشة ..

أجل .. إنى أبصرهما فى كل دوحة .. وورقة . وزهرة فما كان كل هذا ليرفل فى حلل الجمال .. لولاهما ..

إنى أذكر كيف رأيتهما أول مرة وأنا أهب هنا فى ثورة من ثوراتى الجامحة . فتملكنى الدهش ووقفت أمامهما ممسكا أنفاسى خشية أن أقلقهما ..

كانا يجلسان فى صمت وقد أمسك كل منهما بيد الآخر . وبدا لى كأنهما تمثالان للهناءة والنعيم .. أو كأنهما يجدان فى مس كفيهما كل ما يبغيان فى الحياة ..

وسرنى منظرهما وبدأت أتمهل فى الروضة وأطوف حولهما فى هدوء منصتا إلى همساتهما الرقيقة .

وسمعته يقول :

— يخيل إلى وأنا أجلس بجوارك أنى لست على قيد الحياة .. إن دنيانا لا يمكن أن تهب للإنسان مثل هذا النعيم .. لا بد أن نكون محلقين فى السماء .. ولا بد أن يكون الله قد أدخلنا جنانه .

ـــ أنا أيضا أحس بمتعة غير محدودة .. وليس هناك ما يقلقنى إلا خوف زوالها .. لأنى مثلك لا أثق بالحياة كثيرا .. وما دمنا أحياء فإن نعيمنا لا بد مسترد .. كم أتمنى لو كنا كما تقول نحلق فى السماء .. فتستقر روحانا فى هناء دائم بلا خوف من المنتظر المجهول ..

ـــ ولكن ما الذى نخشاه من الحياة .. ما دمنا واثقين من نفسينا .. وما دام كل منا لا يريد سوى صاحبه .. لقد أضحى كل شىء أمامنا مذللا ولم تعد هناك أية عقبة فى سبيل زواجنا ..

ورأيته يرفع يدها إلى شفتيه فيمسها مسا رفيقا ثم يردف قائلا :

ـــ لا يجب أن نقلق أنفسنا بخوف مجهول .. ما دام كل ما أمامنا سهلا معبدا . دعينا نمتع بالحاضر الممتع والماضى الهنيء .. هل تذكرين لقاءنا أول مرة .. فى مكاننا هذا ؟؟ وكيف كنت تبدين قلقة مضطربة كأنك سارقة ..؟

ـــ أولم أكن كذلك .. ألم نسرق من لقائنا متعة فى غفلة من القدر .. أولم نزل نسرق حتى الآن .. ألا تحس أن هناءنا أشبه بحلم « فى الدجى أو خلسة المختلس » ؟!

ـــ لقد سرقنا أجمل ما يمكن أن يسرقه إنسان .. سرقنا الحب الذى لا يورث ندما ، ولا يعقب حسرة .. سرقنا سرقة بريئة طاهرة .. كنت وقتذاك تكرهين أن تقولى لى أنك تحبيننى ، كنت تعتبرينها جريمة لا تغتفر .. وكنت دائما تزعمين أن لقاءنا كان محض مصادفة .. وأنك عندما أتيت إلى هنا كنت واثقة أنى غير موجودة ..

ـــ كنت حمقاء صغيرة .. كنت أعتقد وقتذاك أن الحب خطيئة . وكنت أكره من نفسى أن ترتكب الخطيئة ومع ذلك فقد كنت منساقة إليه بلا وعى ولا إرادة .. كنت أحب أن أراك .. ولا أدرى لم .. ولا أكاد أخلو إلى نفسى حتى أجدنى أفكر فيك .. شاعرة من مجرد التفكير بمتعة ونشوة .. ومع ذلك فقد كنت أكره أن أعترف لنفسى بأنى أحبك .

ـــ كل هذا .. وكنت تتركيننى حائرا معذبا .. أسائل نفسى : أتحبيننى .. أم لا تحسين بى ..؟ أحاول أن أجمع الأدلة حتى أثبت لنفسى أنك تحبيننى .. فلا أكاد أقتنع .. حتى أرى منك ما يجعل كل ما جمعت ينهار فأعود كما كنت حائرا حزينا شاردا .. حتى كان ذات يوم قلت لك إنك تحبيننى .. وإنك لا تحتملين من أهلك مجرد التفكير فى أن يزوجوك من سواى .. لأنك تحسين أن كلا منا جزء مكمل للآخر ..

ـــ كيف جسرت على أن أقول لك هذا .. أنا الأبية ؟! التى كنت أكره لنفسى أن أنزلق إلى هاوية الحب .. ولكنى أذكر أنى كنت لا أستطيع مقاومة حبك .. ووجدت أن أهلى يتحدثون عن مسألة زواجى ويحاولون أن ينتقوا لى الزوج الصالح .. كأن الأمر يهمهم وحدهم .. وكأنى قاصرة لا أملك من أمر نفسى شيئا .. ووجدت المسألة تتحرج .. وبدأ تفكيرهم يخرج إلى الطور العملى .. وأخذ أبى يبت فى أمر الخطّاب العديدين الذين كانوا يتقدمون إلىّ .. ويقارن بين هذا وذاك .. وأنا حائرة معذبة .. أشعر أن حياتى بدونك خير منها العدم .. ومع ذلك لم أجرؤ على أن أقول لك إنى أحبك .. ولم تحاول أنت التقدم لخطبتى .. وخرجت يومذاك فى الموعد الذى أعرف أنك تأتى فيه إلى هنا .. وصممت على أن أبوح بكل شىء .. فقد كانت تلك خير وسيلة أنقذ بها نفسى .

ـــ نفسينا .. فقد كنت أنا أكثر منك حزنا وحيرة وقلقا .. حتى اعترفت لى بحبك فبددت من حولى سحب الشك وظلمات الحيرة وأنرت لى الطريق وجعلتنى أتقدم إلى أبيك ونفسى مليئة بالثقة .

وكنت أعلم أننى قد أكون أقل قدرا من بقية خطابك .. ولكنى لم أشك فى أنك ستكونين لى .. رضى أبوك أم لم يرض .

ـــ الحمد لله .. الذى جعله يرضى .. إن الفضل لأمى .. فقد أدركت أنى أميل إليك . ولم تعدم وسيلة لإقناعه . فهى شديدة التأثير عليه .

ـــ ماذا تخشين إذن من المجهول المنتظر ؟ هل تخشين حياة تجمعنا إلى الأبد

سويا ..؟

ــ أبدا .. إنى فقط .. أستكثر على نفسينا مثل هذا النعيم .. إنى أتصور حالنا وقد ضمنا بيت واحد.. لا نفترق عن بعضنا لحظة واحدة. نسقى حديقته ونجمل حجراته. وأتصور أولادنا.. يملأون البيت تغريدا.. أية حياة تلك..!؟

ــ أجل .. أية حياة .. بل أى فردوس يهبط من السماء ليجعلنا فى الأرض ؟

وأبصرتها تستند برأسها على صدره ، فمسست وجهيهما برفق وغادرتهما وأنا أتراقص على الأوراق نشوان ثملا .

ثم تعودت أن أبصرهما بعد ذلك فى نفس الجلسة .. نموذجا لعاشقين سعيدين . وعلمت من أحاديثهما أن يوم الزفاف يوشك أن يحل .. وأنهما قد أعدا له العدة .. وعلمت كذلك أنهما قد اتفقا أن يكونا وفيين للروضة التى احتضنت حبهما وهو وليد وألا يهجراها قط ..!

ومع ذلك فقد هجراها .. وبدا لى أنهما قد نسيا وعدهما فقد مضت الأيام وأنا أفتقدهما حيث تعودت أن أراهما ..

ولم أدر ما حل بهما .. حتى كنت ذات يوم .. أطوف بالمدينة فى زوبعة متربة .. حملت فيها ما استطعت من الثرى لألقيه على رؤوس البشر .. وسريت من إحدى النوافذ قبل أن يستطيع صاحبها إغلاقها .. فإذا بى أصادف منظرا عجيبا .

لقد وجدتها مستلقية على فراش فى ركن الحجرة .. شاحبة الوجه ذابلة الجسد وقد جلس هو بجوارها يحنو عليها حنو الأم على رضيعها ، وشممت فى جو الحجرة رائحة المرض والحزن واليأس .

وخفضت من حدتى وسرى إلى الحزن فصارت هباتى عويلا وأنينا .. وسمعته يهمس إليها وهو يتحسس شعرها فى رفق وحنان .

ــ أنت بخير إن شاء الله .. ستشفين قريبا وسنتزوج ، ونمضى شهر العسل فى روضتنا الحبيبة ..

ورأيتها تفتح عينين كليلتين أضناهما المرض ، وأطفأت بريقهما العلة .. وأجابت فى خفوت :

— روضتنا الحبيبة ..؟ كم أود أن أراها ولو مرة واحدة قبل أن أذهب .!

— إنك لن تذهبى أبدا .. لا تتحدثى بمثل هذه اللهجة اليائسة.كلنا نعرف أنك سليمة .

— بل كلكم تعرفون أنى راحلة .. فإذا لم تكونوا تعرفون فأنا أعرف .. إن لى أمنية واحدة .. قبل الرحيل .

— إنى أفعل لك كل ما تريدين ..

— خذنى إلى الروضة مرة واحدة .. أريد أن أمتع فيها بلقاء أخير .

وتركت الحجرة من نافذة مقابلة ونفسى مثقلة بالحزن ، واندفعت فى العويل والنواح والأنين والبكاء .. أصدم النوافذ وأقرع الأبواب وأضرب رءوس الشجر وأنزع الأوراق .. وهطلت دموعى فأغرقت الأرض وفاضت بها الغدران .

وتملكنى الإجهاد فعدت أطوف بالروضة متثاقل الخطى مهموم النفس .. فإذا بى أجدهما قد اتخذا مكانهما حيث تعودت أن أجدهما وهما ينتفضان كالريشة فى مهبى ..!

وكفكفت دمعى رفقا بهما وهدأت من ثائرتى .. وخففت من حدتى ، وهببت عليهما ناعما عليلا كما تعودت أن أفعل بهما فى سابق اللقيا ، وحملت لهما من عبير الزهور ما أنعشهما .. ومنحهما قوة وجلدا ..

ورأيت منها صحوة ولمحت فى عينيها بريقا .. وسمعتها تهمس :

— كم أنا سعيدة .. إنى على استعداد لأن أرحل الآن بين هذه الخضرة النضرة .. والربيع الدائم .. والحب الأبدى ..!

وأغمضت عينيها .. وتراخت أطرافها .. وشعرت برجفة وهزة ، فقد أحسست أن صحوتها كانت صحوة أخيرة وأن بريق عينيها قد خبا إلى غير عودة ..

ونظرت إليه فلمحت فى بصره زيغا وفى وجهه تقلصا .

وانحنى عليها يضمها فى لهفة وجنون .. وسمعته يناجيها بأعذب ألفاظ الهوى وأرق كلمات الغرام ..

ورأيته قد ترك جسدها فوق كوم من العشب الطرى . ثم أقبل على فأس ملقاة يحفر بها الأرض ..

واستمر يحفر . ويحفر حتى هبطت الشمس من مغربها وأدلهمّ الليل ، ثم رأيته يسحب الجثة فيرقد وإياها فى جوف الأرض ..

ومرت الأيام والجسدان راقدان .. الميت والحى .. وأصابه النحول والذبول .. وهو صامت لا يتكلم .. راقد لا يتحرك .. وتملكنى عليه حزن عميق .. وددت لو استطعت حمله من حفرته وإنقاذه من هذا الذهول والجنون .

وخطر لى خاطر وجدت فيه رحمة به ، وإنقاذا له من هذا الموت البطىء .. وبدأت فى تنفيذه .. فأخذت أعصف بشدة وعنف .. ملقيا الثرى داخل الحفرة .. حتى غطيت الجسدين وواريتهما التراب ..

ومنذ ذلك اليوم وقد أقسمت أن أحقق أملهما .. واتفقت مع الروضة على أن يبقى كل ما بها فى خضرة نضرة وربيع دائم ..

ذلك يا شاعر هو سر الروضة .. وسر ربيعها الدائم .. هل تحدثنا بسرك كما حدثناك بسرنا ..؟

* * *

وأطرق الشاب برأسه ، واستغرق فى تفكير عميق .. وبعد برهة رفع رأسه وهمس للروضة قائلا :

ـــ أيتها الروضة ما أشبه سرك بسرى .. إن النسيم ما باح لى بجديد .. إن قصة عاشقيك هى قصتى .. ليس بين الاثنين فرق كبير ..

وأجاب النسيم فى عجب :

ـــ كيف .. أيها الشاعر ؟ إنك ما زلت على قيد الحياة .

ـــ وهى أيضا ما زالت على قيد الحياة .. وتلك هى الكارثة .. إننا لم نستطع أن نجعل من حبنا ربيعا دائما.لقد كانت بدايتنا واحدة .. وإن اختلفت النهاية .. لقد كنا نجلس كعشاقك وكنا نحلم بالفردوس الذى سيجمعنا على الأرض ونتصور بيتنا المقبل وأولادنا الذين سيملأونه تغريدا .

ولم نمت أيتها الروضة .. بل تزوجنا .. وتبددت الأحلام وتطايرت الأوهام .

مضى شهران .. وبدأ الحمل .. والقىء .. ثم وضعت .. وهبط الأولاد الواحد تلو الآخر .. فملأوا البيت صراخا وإزعاجا وأمراضا .

وبين آونة وأخرى .. أذكر أننى شاعر وأننى عاشق فأعود إليك أيتها الروضة .. أعود وحيدا ..

أيتها الروضة .. أليس من سخرية الحياة .. أننا لا نحصل فيها على ربيع دائم .. إلا بالموت ..

في موكب الهوى

إهداء

إلى الخرد الغيد ..

الهيف القدود ..

الداميات الخدود ..

الفائرات النهود ..

إلى الصائلات بالجفونِ ..

المكرّات بالعيون ...

الساقيات من الشفاه رضابا ..

الموقدات فى الضلوع لهيبا ..

إلى الملهمات المشرقات ..

الناضرات الزاهرات ..

إلى اللاتى دفعننى فى ركب الغرام ..

وقدننى إلى موكب الصبابة والهيام ..

أهدى كتابى هذا :

وهل أنا بإهدائى إلا معيدا إليهن بعض هِنَتهنّ ..

أو مهديا إليهن صُنع فِتْنتهنّ ..

« يوسف السباعى »

مقدمة

« كيف أكتب عن سواك والذهن قد خلا إلا منك ؟

كيف أكتب عن سواك ، ونفسك ملء نفسى ؟ وصورتك ملء ناظرى ، وصوتك ملء أذنى ؟.

إنى أمسك بالقلم على الورق فيقف فى جمود وحزن واكتئاب فلا يكاد يمر بنا طيفك حتى تصيبه هزّة ، وإذا به قد شدا وترنم وصفق وهفا ، وسطر على الورق أنغاما وألحانا » .

أيتها الملهمة المجهولة .

يا ساقية النعيم .. يا منبع الرجاء .

يا حلوة الروح .. يا مهدية الأمل .

أيتها الملهمة المجهولة .. التى لا تغرب لها شمس ، ولا يأفل لها نجم .. ولا يغيض على الزمن وهجها ، ولا يخبو على السنين بريقها .

أيتها الملهمة المجهولة .. ما أوفاك وقد عزّ الوفاء ، أنت لا تغيبين ولا تزولين .. أنت دائما حاضرة تطوفين بالذهن كما يطوف الحلم بالنائم . أشتم ريحك فى عبق النسائم ، وأسمع صوتك فى هديل الحمائم .

قد ألقاك فى حسناء هيفاء ، فتندفع حمياك فى رأسى ، وتملك علىّ نفسى ، وتؤجج شعورى وحسّى .

أفكر فيك فأشعر نحوك بحنين لذيذ .. وأحس فى نفسى سكينة ممتعة .. وأرى فى الحياة شيئا غير ذلك التكرار الممل ، والسآمة الموحشة ، والفراغ المعتم .

إنى أحس روحك فى الحسناء .. فلا أجدها غريبة عنى ، بل أبصر منها إلف روح ، وتوأم نفس .. يجمعنى وإياه ود قديم ، وحب سابق .

وقد تختفى الحسناء من محيط حياتى ، ويغيب عنى طيفها وتزول ذكراها ، ولكنك لا تغيبين ولا تزولين ، فقد أرهف السمع فى سكون الليل .. فأسمعك فى صوت حنون ، يحمله إلىّ النسيم بعد الرقاد .. وأنا مغمض العينين ، شارد الذهن ، مرهف القلب .. وأعرفك فيه فتصيبنى من نبراته نشوة ، ومن ألحانه هزّة .. ويكاد الفؤاد يثب للقياك ، ويهتف لعودتك .

وقد يضيع الصوت بعد ذلك ، ويتبدد مع الريح .. ثم أظل فى شوق إليك .. وأبحث عنك فى الوجوه الحسان ، والعيون الساحرة ، والشفاه المعسولة .. وانصت إليك فى كل لحن شجى ! ونغم شهى .. وأتنسم ريحك فى كل عبير فواح وعطر ذكى .. حتى أهتدى إليك فى قلب مرهف أو روح شاعرة .

إنك تنتقلين من صورة إلى أخرى ، ومن فاتنة إلى فاتنة .. ولكنك لا تتخلين عنى قط .. فما مرت بى لحظة من لحظات العمر .. تركتنى فيها خالى القلب ، خاوى الفؤاد .. بلا حب يملأ على فراغ الحياة .

وعندما أذكر الحب .. أعنى به .. ذلك الحب الذى يمثلنا ، ويغير المرئيات فى نفوسنا .. فيخلع عليها جمالا ليس فيها .. ذلك الحب المجنون الذى نستعذب فيه الألم ، ونستلذ منه العذاب .. الذى يجعل القلب يخفق لصوت دون غيره من ملايين الأصوات ، والفؤاد يرجف من صورة دون غيرها من ملايين الصور .

ذلك الحب الذى يجعلنا نحصر تفكيرنا فى خيال جميل لا نكاد نبصر فى الخليقة سواه . أو نحس غيره .

إنى لم أعدم فى حياتى لحظة واحدة .. ذلك الحب الذى يجمل الحياة فى نفوسنا ..

إنى لم أعدم قط .. الملهمة المجهولة .

أجل أيتها الملهمة .

إنى قد أراك .. فى ذوائب مسترسلة .. أو فى لحن جميل .. أو فى رسالة شاعرية .

أنت دائما تهتفين بى .. من قريب أو من بعيد .. قد أراك وقد لا أراك .. قد أتحدث إليك ، وأتحسس كيانك ، وأمس شفتيك ، وأشم أنفاسك .. وقد أرنو إليك عن بعد .. فى حنين ولهفة .. دون أن تشعرى بى ، أو تحسى وجودى .

ولكنك .. وصلت ، أم هجرت .. دنوت ، أم نأيت .. كائنة فى الذهن ، ساكنة فى الفؤاد .

تحركين القلم ، وتنضرين الورق .. ولولاك يا حلوة الروح .. لجف النبع ونضب المعين .. ولما جاشت الروح فى الأسطر ، وتنفست الكلمات .

« يوسف السباعى »

دمية ...

ما ظننت أن نورك الذى سحرنى .. هو نور قلبى الذى انعكس عليك .. فأبداك ساحرة مضيئة .. حتى انطفأ ضوء قلبى .. أو تحول عنك .. فإذا بك خابية مظلمة .. وإذا بسحرك قد ذهب .. وإذا بك دمية كغيرك من الدمى .

أمسكت الفتاة بالرسالة وفضتها ببطء وبدأت القراءة :

عزيزتى :

هل يدهشك أن أكتب إليك ؟

أنا نفسى فى دهش شديد ، فما دار بخلدى أن أكتب إليك فى يوم ما ، وما كنت لأدرى ، وأنا أمسك القلم لأكتب إليك .. لم أكتب ؟ وماذا أكتب ؟

ماذا أكتب .؟ وأنا ما كتبت إلى امرأة من قبل ؟ لقد كتبت كثيرا عن النساء ، وكتبت عنك ضمن من كتبت .

كتبت عنك فى زمن مضى .. عندما كنت لا أستطيع أن أكتب إلا عنك . وكيف أكتب عن سواك ، والذهن قد خلا إلا منك ؟ كيف أكتب عن سواك .. وقد كانت نفسك ملء نفسى .. وصورتك ملء أذنى ؟ كان القلم يقف على الورقة فى جمود وحزن واكتئاب .. فلا يكاد يمر بنا طيفك حتى تصيبه هزّة ، وإذا به قد شدا وترنم .. وغنى ورقص .. وسطر على الورق أنغاما وألحانا .

هل تعرفين المصوّر العاشق الذى لا تجرى ريشته إلا بصورة صاحبته .. والذى لا يمل من أن يقضى عمره فى رسمها ؟ كذلك كنت .. وكذلك كان القلم .. كلانا عاجز عن كل شىء ، إلا عن الكتابة عنك . لهذا كنت أكتب عنك .. فى زمن خلا .. زمن كنا فيه نفسا واحدة .. وكان كل منا يحس أن لا غنى لأحدنا عن صاحبه .. ولا عيش له بدونه .

ترى لم أكتب إليك الآن ، وقد تبدّد ما بيننا وتفرق ؟

لم أكتب إليك وقد أضحينا « كلانا غنى عن أخيه حياته ، ونحن إذا متنا أشد تغانيا » .

إنى واثق أننى لم أكتب إليك لأقول إنى أحبك .. لسبب واحد ..

هل أكتب إليك لأقول إنى لا أحبك ؟

لا أظن .. فإن من الحمق أن يكتب إنسان لآخر .. لا لشىء إلا ليخبره أنه لا يحبه .. ولو كان الأمر كذلك لتحتم علىّ أن أكتب للملايين غيرك الذين لا أحبهم .. لأبلغهم أنى لا أحبهم !

لم إذن أكتب إليك ؟

أتريدين الحق ..؟ إنها نكسة .

هل تذكرين ما قلته لك عن الحب ، وأنه يصيب الإنسان كما يصيبه البرد .. وأنه يأتيه من حيث لا يدرى .. فيبدأ زكاما سهلا .. ثم نزلة شعبية ، ثم التهابا رئويا يتركه صريعا محموما ؟

كذا بدأ معى حبك .. وتركنى صريعا محموما .. حتى منّ الله علىّ بالشفاء ، فبرئت من حبك ، وأنقذت من نيرك ، وأطلقت من إسارك .. وفررت بنفسى عن دائرة نفوذك وسلطانك ، وأضحيت حرا طليقا ، وانطلقت أنعم ببدائع الله من زهر وعيون وشفاه .. وأتسلى عنك بغيرك من بنات حواء ، وتلاشت صورتك فى قلبى وأخذت ذكراك تضمحل فى رأسى ، حتى لتكاد تمحى .. وأكاد أنساك .. لولا حنين يعاودنى فينكأ الجرح بعدما برىء ، ويثير

الذكرى بعدما هجعت . فإذا بى يا صاحبتى أصاب بنكسة .

تلك هى سبب كتابتى !!

* * *

ترى من كان السبب فى كل ما حدث ؟ أنا ..؟ أم أنت ؟ أم الظروف الحمقاء الهوجاء .. الساحرة العابثة .. التى أبت إلا أن تمهد للقائنا خير تمهيد ؟ من ناحيتى أنا .. لا أشك أن الظروف قد أحكمت إعدادى للقائك .. وأعدت مشاعرى وتفكيرى إعدادا دقيقا لاستقبالك ومواجهتك .. فلم تدفع بك فى طريقى إلا بعد أن أرهفت حسى .. وهيأت نفسى ، بحيث يخيل إلى أننى لم أكن أصلح وقتذاك ، إلا لشىء واحد هو لقاؤك ؟

أجل . إن الظروف الحمقاء هى المسئولة عن كل ما حدث ، فقد أحكمت لقائى بك فى اللحظة المضبوطة .. ولو التقيت بك قبل اللحظة التى التقينا فيها أو بعدها .. لما خدعتنى أوهام الذهن وأضواء القلب ، ولما رأيت فيك أكثر من حقيقتك ، دمية تافهة !!

هل تذكرين رواية عرضت على الشاشة البيضاء .. بعنوان « أنترميزو » أو « فترة راحة » ؟.. لقد كانت تلك الرواية .. هى أحبولة القدر لإيقاعى فى شراكك .. ووسيلة الظروف الخرقاء التى أعدتنى بها للقائك .

كان موضوع الرواية يتلخص فى أن بطلها وهو موسيقى فنان ذو زوجة وابنة ، يلتقى بمدرسة البيانو التى تقوم بتعليم ابنته .. وينسج الهوى شباكه حولهما ، فإذا بهما كليهما متدله حبا بالآخر .. وتأجج بينهما نيران الحب ، وتجد الفتاة نفسها مندفعة فى حب يائس .. حب رجل ذى زوجة وابنة ، حب قد يدمر حياته وحياتها .. فتحاول أن تكبت حبها .. وتفر من طريقه .. ولكنه يتعلق بها .. ويفران .. ويهجر الرجل بيته وامرأته وابنته .. لينعم بحبه ، ويخلو العاشقان فى وكرهما الجديد .. صورة واضحة للهوى الجارف ، والحب المتأجج ، وتستمر حياتهما هانئة سعيدة ، حياة مثالية لعاشقين .. حتى يزورهما

ذات يوم صديق قديم ، فيخلو إليها ويطلب منها أن تترك الرجل يعود إلى بيته رحمة به وبزوجته وابنته .

وتفكر الفتاة العاشقة الوالهة .. كيف تترك صاحبها وكيف تقوى على فراقه .. ثم ينتهى الأمر بها إلى قبول التضحية .. وإلى أن تقنع نفسها أنها دخيلة فى حياة الرجل ، وأن دورها بالنسبة له ليس إلا دور عابر . وأن ما قضاه معها ليس إلا فترة راحة استجم فيها من عناء حياته .. وأن عليها بعد ذلك أن تعيده إلى طريقه المثلى ، وتنصرف عنه حاملة حبها المستعمر فى حناياها .

وهكذا تفر الفتاة دون أن تبيح لنفسها حتى فرصة توديعه .. خشية أن تضعف .. ويتلقى الرجل الصدمة ، ثم يعود إلى امرأته .. وفى عودته يجد ابنته قد أصيبت فى حادث صدام ، فيحملها ويذهب إلى الدار .. ثم يستقر به المقام بعد ذلك فى بيته ، وتشفى ابنته ، وتعود حياته إلى مجراها الطبيعى .

تلك هى القصة التى سلطتها علىّ الظروف .. لتعدنى للقائك .. وقد تكون القصة عادية .. وقد تكون غير ذات أثر كبير فى نفس غير نفسى ممن شاهدوها ، أما فى نفسى فقد كان لها أثر وأى أثر !!

لقد أبكانى فى الرواية موقف واحد .. هو موقف الفتاة العاشقة بعد أن قبلت التضحية .. وتركت الرجل وقد كبتت لوعتها فى فؤادها ، ولم تمنح نفسها حتى فرصة وداعه .

قد يكون بكائى حمقا .. ولكن من منا لا يخلو من الحمق ؟

وانطلقت بعد مشاهدتى الرواية .. وقد أرهف حسى وهاجت مشاعرى .. فلقيتك ولقيتك أنت . أجل لقد هيأتنى الظروف ، وأحكمت إعدادى . ثم دفعت بك إلىّ .

وكان لك شبه شديد بالفتاة التى أبكتنى واستولت على مشاعرى . أو هكذا خيل إلىّ الوهم .. وكان لى أيضا شبه بالعاشق .. فقد كان فنانا ذا زوجة وابنة ، وكنت كذلك .

وتعاون عليّ الشباب ، والسحر ، والقلب المضيء ، والذهن المنطلق فى بيداء الخيال ، المحلق فى سماء الوهم .. فأرانى التراب تبرا ، والشوك زهرا ، والرماد جمرا ، والماء القراح خمرا .

وأنت ..؟ أنت أيتها البرّاقة الخادعة ما ظننت قط أن بريقك بريق زائف .. وأن ضوءك يشع من سطحك لا من قلبك .. ما ظننت أن نورك الذى سحرنى .. هو نور قلبى الذى انعكس عليك .. فأبداك ساحرة مضيئة .. حتى إذا انطفأ ضوء قلبى .. أو تحوّل عنك عدت خابية مظلمة .. وإذا بسحرك قد ذهب .. وإذا بك دمية كغيرك من الدمى .

وأنا ..؟ المصاب بقلب دائم اليقظة ، دائب اللهفة .. قلب فنان .. لا يكف عن العشق لحظة .. لا يستطيع أن يحيا إلا فى جو من الشوق والحنين .. ولا يتنفس إلا هواء مشربا بالحب الجنونى المتلهف .. فهو يجد عنصر الحب ألزم له من عنصر الأكسجين .. وإذا لم يجد من يهيئ له الحب ، صنع له من الوهم حبيبا .

كيف كنت أستطيع وقتذاك أن أقنع نفسى بأنك لست جادة فى حبى ؟ . وأنت تسيرين إلى جوارى يدك فى يدى ، نجوب الطرقات الخالية ، تعصف من حولنا ريح الشتاء ، فأسألك أن نبحث عن مقر نأوى إليه خشية عليك من عصف الريح ، فتنبئينى وابتسامة الرضا تعلو شفتيك أن مقرك بجوارى يبعث فى جسمك الدفء ، وفى صدرك الهدوء ، وأنك ما دمت معى فأنت آمنة من كل شيء ، قريرة بكل شيء ، وأنه ليس أحب إلى نفسك من أن تسيرى بجوارى حتى آخر العمر .

كيف لا أندفع فى حبك ، وقد كنت أتوهم البراءة والإخلاص فى كل لفتة لك ولمحة .. أمسك يديك وأنظر إلى عينيك فألمح فيهما أشعة طهر تجعلنى آبى إلا أن أشبهك بالملائكة وأربأ بك أن أقارنك بغيرك من بنات حواء .

كيف لا أندفع فى حبك ؟ وأنا أسمع همساتك فى أذنى كأنها السحر تهتف بى

أنك حائرة .. فى أمرك وأمرى ، تتمنين أن تلقينى فى كل لحظة ولكنك تخشين على نفسك من كثرة اللقاء .. تخشين أن أملّك وأهجرك ، وتحسين من مجرد الفكرة مرارة أليمة ولوعة قاتلة .

كيف كنت أستطيع بعد كل هذا ، إلا أن أندفع فى حبك ؟

لقد اندفعت فى حبك ، واندفعت أنت فى حبى ، أو هكذا أوهمتنى .. وبدأت القصة التى شاهدتها تتجسم فتصبح حقيقة ، وأعاننى الوهم ، والهوى ، والمظهر الخداع على أن أجعل منك مخلوقة طاهرة نقية ، وأن أضعك فى مصاف الملائكة ، وأن أجعل منك ملهمتى ومبعث وحيى .

لقد اندفعت فى حبك حتى خيِّل إلىّ أنى أوشك أن أصل إلى فترة الراحة أو « الأنترميزو » التى وصل إليها بطل القصة ، ولكنى رأيتك تنثنين فجأة وتقلبين ظهر المِجنّ ، وتبدين على حقيقتك ، زائفة تافهة .

رأيتك على حقيقتك دمية تعبث بها الأيدى .. خوًّا لا قلْبا لا يستقر لها قرار .. مخدوعة مغرورة .. خلوًّا من كل ما ظننته بك من جمال النفس ، وسمو الروح .. ليس بك إلا جمال القشور ، وفتنة المظهر .. لا تبغين من دنياك إلا مزيدا من مديح ، ومزيدا من إطراء .

ولا أكتمك أنى صدمت ، وأن الصدمة كانت شديدة الوقع على نفسى ، وأن صدك قد آلمنى وتحوّلك عنى قد فطر نفسى ، واكتشاف حقيقتك قد عصر قلبى اعتصارا ، ولكنى استعنت بالصبر والتجلد ، وقاومت صدك بصد مثله ، وجمودك بالجمود والهجران ، وصممت على أن أقتلعك من قلبى اقتلاعا .

وأعاننى الله على البرء من حبك ، واستطعت أن أنساك ، أو أكاد ، حتى أضحيت بالنسبة إلىّ دمية كغيرك من الدمى .

لا أظننى آسف على لقائك كثيرا ، فلقد خرجت من حبك متعادل الكفتين ، كفة المتعة وكفة الألم .. فبقدر ما أعطيتنى من متعة فى حبك ، حملتنى شقاء فى هجرك ، وألما فى التجلد على فراقك .

هل علمت لم كتبت إليك ؟

مجرد نكسة .. أو حنين ، استعنت بالكتابة على إطفاء حرقتهما . شفانا الله منهما ، كما شفانا منك » . (....) .

* * *

وسقطت الرسالة من يد الفتاة ، وبدا عليها شرود شديد ، وترقرقت فى عينيها دمعتان .. سالتا فى صمت على صفحة وجهها .

وبعد لحظة أمسكت بقلم وورقة وجلست تكتب :

عزيزى :

لقد أعانتك قدرتك على الكتابة على أن تفضى بكل ما فى صدرك .. وعلى أن تستعين بالكتابة — كما تقول — على أن تطفئ حرقة فى نفسك . ترى ماذا أفعل .. وأنا لا أجيد الكتابة ؟ وبم أستعين على إطفاء حرقتى وبرء جراحى ؟

كل شىء يستطيع المرء احتماله .. إلا أن يتهم ظلما فلا يملك رد التهمة . سأكتب إليك .. فما أظننى أستطيع أن أحتمل مرارة التهمة . سأكتب إليك .. فقط .. لأرد التهمة .. ولأقول لك إنى لست بدمية .

سأكتب إليك لأقول إنى أحبك .. وإنى لست خدّاعة ولا تافهة ولا برّاقة ، وأن الضوء يشع من قلبى .. فلا ينفذ إلى سطحى ، وإنى أكبت حبى بين الضلوع ، وإنى أتجلد وأنشد الصبر ، فلا أستطيع التجلد ولا الصبر ، ولا أستطيع أن أنساك .

سأكتب إليك لأشكرك على نسيانى ، ولأقول لك إنى لست حُوَّلا قُلَّبا لا يستقر لها قرار .. لأننى قد استقر لى قرار عندك .. فما أحببت فى حياتى سواك ، ولكن ما الفائدة فى أن أهبك فترة راحة ، كما وهبت بطلة القصة حبيبها ؟

من يضمن لى أنى سأكون من قوة الإرادة بحيث أعيدك مرة أخرى إلى بيتك وزوجتك وابنتك ؟ من يدرينى أنى سأستطيع قبول التضحية فأنزع نفسى

منك ، وأفر من طريقك ، بعد أن أكون قد استوليت عليك ، واطمأننت إلى جانبك ؟

إنى أستطيع المقاومة الآن ، وأستطيع التضحية بك من أجل بيتك وحياتك الهادئة .. ولكنى بعد ذلك قد لا أستطيع .. إنى أعلم أننى دخيلة فى حياتك ، وأن دورى أمامك ليس إلا دورا عابرا ، وأننى يجب أن أدفن حبى فى صدرى .. وأنأى نفسى عنك .

لقد كنت أستطيع أن أهبك فترة راحة ، ولكنى أخشى على نفسى منها .. أخشى أن تضعف مقاومتى فأودى بك من أجل نفسى .. أخشى أن أستمرئ المرعى .. وأستعذب المورد ، فلا أستطيع تركه ، والخلاص منه .

أنا ما تمنيت شيئا غير أن أبقى إلى جوارك حتى آخر العمر .. ما كنت خادعة فى قولى ولا خالبة ، ولكنى فضلت ألا أكون عبئا عليك .. يثقل كاهلك ، وينقض ظهرك .. فضلت أن أترك إلى جوارك المخلوقة التى سبقتنى إلى جوارك .. والتى لها عليك من الحق أكثر مما لى عليك .

إنى أحبك ، ولهذا رحمتك من حبى ومن نفسى .

هل علمت أننى لست بدمية ؟

سامحك الله ..!!

* * *

وطوت الفتاة الخطاب ووضعته فى الظرف .. ثم شرد بها الذهن .

وبعد لحظة امتدت يدها إلى الخطاب فمزقته إربا وقذفت به من النافذة وهمست لنفسها .. ما الفائدة ؟ ما الفائدة فى أن أنكأ جرحه وأعيد نكسته ؟ يجب أن أساعده على الشفاء وعلى النسيان .. يجب ألا أرد التهمة .. فخير له ألا يرى فى .. أكثر من دمية !

حديث كرمة

وسكتت الريح ، فهدأ الحفيف ، وساد الصمت لحظة .. ثم عادت الريح تعبث بأوراق الكرمة برهة .. وكأنى بها تسألنى قائلة : ماذا أعادك إلينا بعد طول غيبة ؟

ترى أين ولى السرور وذهب الغرام ؟

أما السرور فقد أقفر منه المكان . أما أغانى الغرام فقد أضحت أنات حزن وزفرات شجن تبعثها الريح من أطلاله الزائلة ورسومه الحائلة .

قصدت الدار بعد طول نأى .. وساقتنى قدماى إلى ربوعها بعد طول هجران .. ووجدت نفسى أندفع إليها برغبة لا تقاوم .. وبى حنين عجيب إلى أن أوقظ الذكرى الهاجعة وأثير الشجن الكامن .

دفعت الباب الحديدى .. فأرسلت مفاصله صريرا كأنه الأنين .. ودلفت إلى الحديقة الخربة المقفرة ، وقد بدت عليها وحشة القبور .. وخيم سكون مخيف لا يشوبه إلا نعيق بوم .. أو نعيب غراب .. أو صوت نافذة تحركها الريح فتحدث بها طرقات منتظمة خافتة .. كأنها دقات الزمن بين الرسوم الدارسة .

كانت الحديقة على ما بها من خراب ووحشة . ما زالت تحمل آثار عهد باد .. وزمن ولىّ وانقضى .. آثار لم تستطع كف الخراب أن تمتد إليها .. فبقيت كما هى .. خضراء مورقة .. تهمس فى أذنى بقصة قديمة .. وتدفع فى رأسى ذكرى خلتها امحت .. وتتلقانى بابتسامة قد تكون باهتة شاحبة .. ولكن فيها لنفسى كثير عزاء .

تلك هى « التكعيبة » لشد ما هرمت وشاخت .. فتآكلت عروقها ..

وتهاوت قوائمها .. وانفصمت عراها .. وأخنى عليها الذى أخنى على لبد .
اقتربت من الكرمة .. وتحسست أوراقها المتدلية فى رفق وحنين .. وهبت الريح فحركت الأوراق ومست إحداها وجهى وشفتى فكأنما تحمل إلىّ تحية الغائب ! .

واستغرق بى المقام على مقعد خشبى .. طالما ضمنى والصاحب الغائب .. عندما كنا فى مشرق الحياة ومطلع العمر .. وعندما كنا نعيش على المنى ونطعم بأحاديث الحب الوردى والغزل العطرى .

جلست ، وقد شرد بى الذهن ، وكأن ما انصرم من العمر لم ينصرم .. وكأن الزمن الذى ولىّ ما ولىَّ وما ضاع . وكأن كل شيء قد عاد إلى ما كان عليه .. حتى الحبيب الغائب النائى ، وكأنه ما نأى وما غاب !.

لقد حنَّت علىَّ الكرمة العجوز كما قد حنَّت من قبل .. وسرى النسيم بين أوراقها فحمل إلى مسمعى حفيفا كأنه همس الشفاه .. إن الكرمة تذكرنى كما أذكرها .. وإنها تستعيد لنفسها قصة غابرة .. وكأنى بها تهمس من خلال الحفيف لتروى القصة قائلة :

إنى أعرفك أيها العائد بعد طول نأى .. أعرفك تماما رغم ما فعلت بك الأيام .. أعرفك رغم تثاقل خطاك .. ورغم ذهاب خفتك ومرحك .. أعرفك رغم أنك لم تقبل علىّ قافزا متوثبا .. ورغم أنك حتى الآن لم تمتط ظهرى ولم تتسلق قوائمى .. ولا قطعت أوراقى ، أو قطفت عناقيدى .

إنى لأذكر أول مرة أبصرتك فيها .. كان ذلك منذ زمن بعيد .. ومع ذلك فإنى أذكره كأنما حدث بالأمس .. وكنت وقتذاك صبيا عابثا لاهيا .. تقطن فى الدار المجاورة ، وكان الوقت إبان الظهيرة .. والكل رقود فى مضاجعهم .. والسكون سائد .. لا صوت ولا حركة .. حتى « عم فضل » البواب قد أوى إلى حجرته الصغيرة بجوار الباب .. وفجأة أحسست بك تهبط علىّ كأنك شيطان صغير .. بعد أن تسلقت السور الكائن بين الدارين .. ثم قفزت منه

إلىّ .. ووقفت برهة تنصت فى حذر وخوف لتتأكد من أنه ليس هناك من يراك أو يحس بك.ووصل إليك شخير « عم فضل » فبعث الطمأنينة فى نفسك ، وأخذت تتسلل فوق ممعنا فى تمزيق أوراقى فى عجلة ولهفة حتى جمعت منها قدرا كبيرا عبأته فى حجر جلبابك الأبيض .. ثم هممت بالقفز عائدا إلى السور عندما وصل إليك صوت يصرخ بك ضابطا إياك متلبسا بجريمة سرقة « ورق العنب » ونظرت إلى أسفل .. فوجدتها تنظر إليك بعينيها الخضراويين .. وشعرها الذهبى .. وجسدها النحيل .. وقد بدت فى عبوسها كأنها هرة غاضبة . وترددت برهة .. وتحيّرت فيما تفعل .. هل تقفز هاربا وتتركها تصرخ كما تشاء دون أن تأبه لها ؟ ولكن العاقبة ستكون وخيمة .. فهى تبدو من نوع عنيد ، وستستمر فى الصراخ حتى توقظ الأهل فيفتضح أمرك .

هل تقذف إليها بالورق لتسكتها وتفوز من الغنيمة بالإياب ؟ خسارة .. هل تهبط إليها « وترنها علقة » حتى لا تعود بعد ذلك إلى التدخل فيما لا يعنيها ؟ لا .. إن هذا سيزيد من صياحها .. ويزيد من سوء المصير ووخامة العاقبة . إذا فليس هناك خير من أن تحاول الاحتيال عليها واكتساب صداقتها .

ولم يطل بينكما الحديث ، حتى أقنعتها فى نهاية الأمر أنك ستحضر لها من « ورق التوت » ما يعادل « ورق العنب » الذى سرقته .. وسرّها الأمر ، واعتبرته صفقة رابحة .. إذ كانت فى حاجة إلى ورق التوت لتطعم به « دود القز » الذى كان وقتذاك شغلها الشاغل .

ووفيت بوعدك لها ورأيتك تتسلق شجرة التوت فى حديقتك فتملأ من أوراقها حجرك ، ثم تعود به لتسلمها إياه .

وهكذا نشأت بينك وبينها أول علاقة .. علاقة تجارية بحتة .. وعقدت بينك وبينها معاهدة صداقة تقضى بتبادل ورق العنب وورق التوت .. واستمر اللقاء بينكما كل ظهيرة .. فى « عز القيلولة » .. لإجراء عملية التسليم والتسلم .

وكانت لهفتك على أوراقى تحيرنى .. فماذا يمكن أن يفعل صبى مثلك بورق

العنب ؟. حتى سمعتها تسألك ذات يوم نفس السؤال الذى كان يجول بخاطرى .. ووضح لى الأمر عندما سمعتك تجيبها بأنك تبيعه « لأم أحمد » الطباخة وتوفر عليها مشوار السوق .

وبدأت أحس نحوكما بعطف عجيب .. وبدأت تسلينى أحاديثكما البريئة .. ومناقشاتكما التافهة .. وسرّنى أن أجد التآلف بينكما يزداد ، وأن أرى عرى الصداقة والمحبة تتوثق فلا يضحى الأمر بينكما مجرد تبادل أوراق ومنافع . بل إنه أخذ يتطور حتى أضحى تبادل مشاعر وعواطف .. عواطف رقيقة طاهرة نقية .. تشع من القلوب المضيئة الصافية البيضاء التى لم تشبها شائبة تكلف أو خديعة أو رياء .. وبدأتما تتقاسمان عناقيدى حبة حبة .. كأنكما عصفورتان . وهكذا وجدت الحياة قد سرت منكما إلىَّ .. وخيِّل لى أنكما قد أضحيتما قطعة منى .. وأنى لم أعد بالنسبة إليكما مجرد ورق عنب . بل أضحيت وكرا جميلا آويكما كما تأوى فراخ الطير إلى أوكارها .

ولأول مرة أحسست بكره للخريف لأنه يجردنى أوراق ويتركنى عارية لا أستطيع أن أهيئ لكما المأوى والستر .. وخشيت أن أفقدكما ، وعجبت لنفسى كيف أطيق الحياة بدونكما وكيف استطعت أن أحتمل مللها وسآمتها .. وكيف يمكن أن أقضى الشتاء الطويل دون أن تدفئنى أنفاسكما أو تسلينى أحاديثكما اللطيفة وهمساتكما الممتعة ؟ وحلّ الخريف .. فتساقطت عنى الأوراق .. ولكنكما لم تذهبا عنى .. ولم تهجرانى .. بل زادت بينكما هنيهات اللقاء وما حال بينكما وبينى قارس قر ولا عاصف ريح .

كيف يحس مثلكما بالقر .. وقلبيكما يشعان بالحرارة ؟!

ومرّ الخريف ، ومرّ الشتاء .. وأنبتت التوتة أوراقها وأنبت أوراقى .. ولكنكما لم تحاولا تبادل الأوراق .. فما كان لدى أحدكما فرصة فى أن يفكر فى غير صاحبه . وكان كل منكما يجد فى حديث الآخر أقصى متعته . ومرّ بعد ذلك شتاء .. وآخر .. وآخر .. ونضجتما ، ونضج حبكما .. وشاهدت منكما من

آيات الحب والوله ما لم تشهده البيد من قيس وليلى .. كنتما تضيئان جوانحى .. وتشيعان النور والسحر فى أرجائى ، حتى لكأنى قد أضحيت وكرا للملائكة ..

كم تمنيت وقتذاك ، لو وقف الزمن فلم يتحرك ، أو لم تحولتما إلى شجرتين متعانقتين تنبتان بجوارى .. حتى لا يتفرق ثلاثتنا .. وحتى لا تحل بنا نهاية .. بل نضحى شيئا بلا نهاية .

ولكن النهاية حلَّت .. حلَّت فى ليلة سوداء غبراء قاتمة حالكة .. عندما أبصرتها تتقدم إلىّ فى خطوات متثاقلة .. وسيما الحزن عليها بادية ، وبعد لحظات أقبلت أنت فاتخذت مجلسك بجوارها . ثم أنبأتك فى صوت باك أن أحد أقربائها الموسرين قد خطبها من أبيها .

وافترقتما ليلتذاك وفى قلبيكما لوعة ، واتفقتما على أن تتقدم أنت لخطبتها ، وأن ترفض هى أن تتزوج سواك ..

ولم أركما بعد تلك الليلة .. إلا لحظة خاطفة .. لحظة وداع ، كنت أسمع فيها بكاء القلوب ونواح الأفئدة .

ولم أدر ما حدث بعد ذلك . ولكنى فوجئت بعد بضعة أيام بأن أرى أهل الدار على قدم وساق ، وأقيمت على البيت الأعلام والزينات ، وصدحت الموسيقى ، وتعالت الزغاريد ، وانتشرت الثريات فى الدار ، وانبعث الأضواء .. فلم يعد هناك فى الدار إلا شيئان مظلمان .. قلبى وقلب صاحبتك .

ووقع بصرى عليها فأدركت أن الكارثة توشك أن تحل وعرفت من ملامحها أنها على وشك أن تزف إلى الرجل الآخر ..

أحسست كأنى عصارتى قد جفت ، وكأنما قد أمسكت بى يد قاسية شريرة فاقتلعتنى من جذورى ، ولم تستطع الثريات التى وضعت فى أرجائى أن تضىء شيئا من ظلمة قلبى .. أو ظلمة قلبها . ومنذ تلك الليلة .. والنكبات أخذت تحل بالدار .

مات عائلها فى اليوم التالى بالسكتة القلبية ، وانقلب العرس مأتما . واستبدل أهل الدار بالزغاريد نواحا وصياحا .

ثم حدثت بضعة أشياء تافهة أوهمت الناس أن الدار مسكونة بالجن .. فتفرّق أهلها وهجرها السكان ومرّت السنون دون أن يقع بصرى إلا على « عم فضل » البواب ، وهى كما ترى قفر فى قفر وخراب فوق خراب . وسكتت الريح ، فهدأ الحفيف وساد الصمت لحظة ، ثم عادت الريح تعبث بأوراق الكرمة برهة .. وكأنى بها تسألنى قائلة : ماذا أعادك إلينا بعد طول غيبة ؟.

ووجدتنى أجيب هامسا ..

ـــ لقاء عابر أثار الذكرى ، وأيقظ الحنين .. كنا نزور بالأمس مريضا فى إحدى المستشفيات أنا وزوجتى وابنتى الصغيرة .. وجلسنا مع المريض فترة .. ثم التفت حولى باحثا عن ابنتى .. فوجدتها بين ذراعى إحدى الممرضات .. وقد احتضنتها فى لهفة مثيرة .. والتفت إلى الممرضة فوجدت فى عينيها عبرات تترقرق ، وبدا على سيماها أنها تغالب البكاء ثم مدت يدها فصافحتنى وقالت : إن ابنتى تشبهنى تماما .

وسألتنى زوجتى بعد أن انصرفت الممرضة : هل تعرفها ؟ فهززت رأسى وأجبت : أجل أعرفها .

أيتها الكرمة العجوز .. كيف لا أعرفها وقد كانت هى رفيقة الطفولة وحبيبة الصبا؟.. أصابها القدر فأفقدها الزوج والثراء .. وأجبرها أن تعمل لكى تعيش .

هل عرفت .. ماذا أعادنى إليك .. بعد طول غيبة ؟

ولم تجب الكرمة .. بل أجابنى صوت حنون رقيق .. أجل ..

وتلفت خلفى .. فوجدتها .. هى ..

لا تظنوا سوءا .. فقد حلمنا برهة تحت الكرمة الحنون .. ثم افترقنا .. فلم أرها منذ ذلك الحين .

* * *

هـذه الربـوة

هذه الربـوة كانت ملعبا لشبابينـا وكانت مرتعـا
كم بنينا من حصاهـا أربعا وانثنينـا فمحونـا الأربعـا
وخططنا فى نقا الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى
« شوقى »

كم بنينا الأربع وشيدنا القصور . وكم غرسنا فيها ورود الأمانى وزهـور الآمال ، وانثنينا فمحونا الأربع وهدمنا القصور .. وانثنى الزمن فأودى بالأمانى وأذبل الزهور .

خططنا فى الرمل .. فما وعى الرمل .. وهبت الريح فمحت ما خططنا .. ويح الرمال والرياح .. لقد أضاعت العهد .. وما أبقـت على الود .. ترى ماذا فعلت ريح الزمن بما خط فى القلب ؟

لا أكتمك القول يا صاحبتى ، إن القلب شديد الشبه بالرمال ، وإن الأثر الجديد يمحو منهما الأثر القديم .. وإن كلا منهما سريع التغير والتبدل ، وإن هبة ريح تذهب بما حوى من رسوم وآثار وذكريات . فيصبح وكأنه صفحة منبسطة خالية ملساء .

لقد هبت ريح الزمن على رسوم القلب .. وبسطت عليها كف النسيان .. حتى بدا لى أن الرسوم قد امّحت .. وأن القلب قد خلا مما به .. وعاد أملس فارغا .. وخيل إلى أنى قد نسيت ما كان من أمرنا معا .. وأن غرامك .. كان غرام صيف . سريع الانقشاع .

هكذا خيِّل إلىّ يا صاحبتى .. حتى احتوانى مرة أخرى مرتعنا السابق ..

وملعبنا القديم .. ووجدتني مرة أخرى فوق الربوة الصخرية ، والرمال المنبسطة في سيدى بشر .

يا للقلب العجيب الذى ظننته خلا .. ويا للرسوم التى امّحت .. لكأنى بالزمن ما مر بنا .. ولكأنى بك تجلسين إلى جوارى وقد تلاصق جسدانا .. وأخذنا نرقب الأمواج تتصارع مع صخور الشاطئ .. ويعلو منها الزبد ويتطاير الرشاش . إنى لأذكر كيف رأيتك أول مرة .. وكنت أقضى الصيف حينذاك مع أخى الذى كان يعمل بالإسكندرية . وكان يقيم معنا صديق عزيز .

كنا وقتذاك صحبة عجيبة ، حفزنا الشباب وجنونه إلى أن نغمض عين السخط التي تبدى مساوئ الحياة .. فلم نعد ننظر إليها إلا بعين الرضا الكليلة عن كل عيب .. التى لا تبصر من الحياة إلا الناحية البرّاقة المضيئة ..

كنا ثلاثة أقسمنا أن نأخذ من الدنيا أقصى ما نستطيع خلال أشهر الصيف .. وأن نلقي عن كواهلنا كل عبء ، ونركل بأقدامنا كل هم .. وأن نضحك من كل شيء .. فإذا لم نجد شيئا .. ضحكنا من لا شيء ..

كنا نأكل ونضحك .. وننام ونضحك .. ونستحم ونضحك ، ونغازل ونضحك .. ونحب ونضحك .. ونضحك ونضحك حتى نحس أن عضلات وجوهنا قد أنهكها الضحك ، فنضحك من أنفسنا .. كنا لا نفعل شيئا إلا بالضحك .. حتى ليخيل إلىّ أن الأقدار لو أصابتنا بما يبكينا ، لبكينا وضحكنا .

كنا نكسو نفوسنا حللا قشيبة من الأوهام البهيجة الفرحة .. وكنا نعرف كيف نعطيها ما تشتهى ، حتى ولو لم تهيئ لنا الأقدار ما تشتهى .. كنا نسمى « الطعمية » كباب ، و« الفول » حمام .. ثم يسأل بعضنا : ماذا نتغدى اليوم .. كباب ، والا حمام ؟

فيجيب أحدنا :

ــ كباب .. وحمام .. حد واخد منها حاجة !!

فإذا ما انتهينا من الغداء صحنا طالبين الحلو قائلين للخادم :

— هات الخوخ .

فيهز أحدنا رأسه ويقول :

— أنا حاحلى بتفاح .

وبعد برهة يحضر الخادم .. الخوخ والتفاح .. فعلا .. ولكنهما داخل « برطمانى مربى » .. يتناول كل منا منها ملعقة .. « على الماشى » ونحن مسرورون .

هكذا كنا .. وهكذا كانت الدنيا معنا .. نضحك منها فتضحك لنا .. لا همّ ولا حزن ولا أسى .

وحدث ذات صباح والشمس لم تشرق بعد أن أقبل عليّ صاحبى يوقظنى من النوم ، ولم نتعود الاستيقاظ إلا والشمس قد ملأت الحجرة ، فسألته عما به فأجابنى :

— قم .. سنجرّب حمام الصباح .. إنه مفيد جدا .. إن اليود موجود فى الصباح بوفرة .. وكذلك الأشعة البنفسجية .

ونظرت إليه حانقا والنوم ملء عينى :

— يا أخى ابعد عنى .. من قال لك إنى أريد يود أو أشعة فوق البنفسجية ؟

ولكنه لم يتركنى ولم يغادر الدار إلى الشاطئ .. إلا ويدى فى يده . وكانت الساعة حينذاك تبلغ السادسة والنصف .. ونسيم الصباح يهب فيملأ النفس نشوة والجسد نشاطا ، وهبطنا نعدو على الرمال .. وقد بدا الشاطئ خاليا إلا من بضعة أفراد تناثروا هنا وهناك .. ونظر إلىّ صاحبى متسائلا :

— ما رأيك ؟

— مدهش .. إلا من عيب واحد .

— ما هو ؟

— قلة الحريم .

ــ بالعكس .. هذا ليس عيبا .. فإن ذلك سيتيح لنا فرصة العوم والرياضة .

ــ صدقت ..

وقفزنا إلى الماء .. كقنبلتين أو صاروخين .. وأخذنا نسبح بكل ما لدينا من قوة .. حتى وصلنا إلى الصخرة .. وشرعنا نتسلقها .

واختفى صاحبى خلف إحدى الصخور .. ثم سمعته فجأة يصفر بأصابعه صفيرا متصلا .. فعدوت إليه وأطللت برأسى من فوق الصخرة وسألته عما به فأجاب هامسا وهو يشير بأصبعه وراء إحدى الصخور . « حريم » .

وحمدنا الله الذى لا ينسى عبده .. وبدأنا نتسلل إلى الصخرة التى حملت إلينا الريح من ورائها .. الأصوات النسائية الناعمة .

وفجأة وجدنا أنفسنا أمام فتاتين ، كانت إحداهما أنت ؟

كيف وجدتك وقتذاك ؟ وكيف كان وقعك فى نفسى ؟

لكى تدركى كيف كان وقعك فى نفسى .. أخبرك أننى كنت ــ وما زلت ــ أرى للجمال نموذجا واحدا .. وإننى كثيرا ما لقيت من الصحاب سخرية شديدة من أجل هذا الرأى ، ومع ذلك فما حدت عنه قط .. وما زلت حتى الآن على استعداد لأن أعشق كل فتاة تنطبق عليها تلك الأوصاف .

كان نموذج الجمال فى نظرى هو الشعر الذهبى الذى يشع الضوء من منابته والذى يتهدل منسكبا كالذهب المنصهر .. والعينان الخضراوان المتألقتان كعيون الهرّة .. والأنف الدقيق ، والشفتان الجميلتان اللتان لم يلوثهما أحمر الشفاه بعد .. والجسد الرقيق الذى لا تبدو به ثنية ولا زائدة .

كان هذا هو ما أراه نموذجا للجمال .. وكان هذا أيضا هو أنت ! هل لى من حاجة إلى أن أخبرك كيف كان وقعك فى نفسى حينذاك ؟.

وبدأنا المشاغبة .. مشاغبة صبيانية ابتدائية .. وأخذت وصاحبى فى

« التلقيح » عليكما وتبادل النكات « البايخة » التى نجحت فى أن تزيد وجهيكما عبوسا وتجهما ، وفى إرغامكما فى النهاية على ترك الصخرة والفرار من وجهينا .

وقفزتما إلى الماء .. وسبحنا وراءكما فى شبه مطاردة .. حتى عدتما إلى الشاطئ ووقفتما تعبثان فى المياه .. وتوجهت إلى صاحبى أسأله إن كان قد آن لنا الخروج من الماء .

ومرة واحدة أحسست بكوم من عشب البحر يهبط على رأسى .. وتلفت حولى فلم أجد سواك وصاحبتك .. ووجدتكما تضحكان ، وسمعت صاحبتك تقسم لى أنها ليست هى .. وسمعتك تقولين فى ضحكة خجلى إنك آسفة لأنك لم تكونى تقصديننى .

وللمرة الثانية حمدت الله ، فقد كانت فرصة قلَّ أن يجود البحر بمثلها .. ولم أجد طريقة لانتهازها خيرا من أن أمسك بكوم آخر من الأعشاب ثم أقذفك به ضاحكا كأن بيننا سابق مزاح .. أو كأننى أصرّ على أنك كنت تقصديننى .

وهكذا استطعت أن « أجر رجلك » .. أو من يدرى ربما كنت أنت التى استطعت أن تجرى رجلى .. فقد نشبت بيننا معركة تبادلنا فيها التقاذف بأعشاب البحر .. والتقاذف بالكلمات الناعمة .. والضحكات اللينة والعواطف الرقيقة .. ثم انتهت المعركة.. فإذا بالتعارف قد تم .. وإذا بنا قد أصبحنا صديقين .

ومنذ ذلك اليوم .. أضحيت أومن بضرورة اليود والأشعة فوق البنفسجية ، وأضحيت أومن كذلك بأنهما لا يتوفران إلا فى الصباح المبكر .. حيث تكونين أنت تسبحين فى البحر وتستلقين فى الشمس تتمتعين بأشعتها .

وبدأ صاحبى يملّ الاستحمام المبكر .. ولكنى لم أمل .. بل أخذت آتى إلى البحر وحدى .. لأجدك أنت أيضا وحدك .. ولنستوى على أريكة الماء والرمل والصخر كأننا قد تملكنا الفضاء .. لا شريك لنا فيه .

واندفعنا فى الحب بسرعة خاطفة .. جعلتنى لا أشك فى أن كلا منا نصف

متمم لصاحبه .. وأتساءل كيف استطعنا العيش قبل أن نلتقى ، وأحس كأنما كنت تائها فاهتديت .. وضالاً فأويت .

كان الزمن يعدو بنا وقتذاك ، والساعات تمر كالدقائق .. أما الدقائق فما كنا نحس بها أو ندخلها فى حساب الوقت .

كنت دائما أذهب فأجدك هناك .. كأنك جنية من جنيات البحر .. فنستلقى سويا على الرمال .. نتناجى ونتهامس ، ونعبث فى الرمال ، ونخطط فيها بيتنا المقبل .. ونرتب الحجرات . ونرسم التفاصيل والدقائق .. فلا نترك مكانا لكرسى إلا بيناه .. شاعرين من ذلك بمتعة عجيبة .. ونشوة هائلة ، كأننا قد تزوجنا فعلا ، وكأننا قد بنينا الأربع ، وأقمنا القصور .

ما أقدر الذهن على خلق المتع واللذات .. كانت متعنا وقتذاك قد خلت من كل شيء .. عدا مرئيات الذهن وأوهامه .. وأمانيه وأحلامه .. كنا بارعين فى تجسيدها .. وكنا لا نملّ قط من الحديث فيها مهما طال الحديث .. سقى الله ذاك الزمن ورعاه .. فقد كان كريما بأوقات النعيم .. كان الحصول على السعادة فيه لا يكلفنا أكثر من أن ينظر أحدنا فى وجه صاحبه .. كنا نرقد على الرمل كأننا ملوك الرمل .. ونقفز فى البحر كأننا سادة البحر .

ونسبح برفق ونحن ما زلنا نتناجى ونتحادث ، فقد كان الحديث لا ينتهى بيننا قط ، حتى نصل إلى الصخرة ، فأعاونك على تسلقها حتى نصل إلى قمتها ، ثم نهبط إلى الجانب الآخر ونجلس على مقعدنا الصخرى ، نرقب الأمواج الثائرة الفائرة ، الصارخة الغاضبة .. يعلو شفتيها الزبد ويتطاير الرذاذ .. لا ينتهى لها صراع مع الصخر ، فهما أبدا فى هدير مستمر وثورة دائمة .

وهكذا مرت بنا الأيام حثيثات سراعا .. لا نكاد نحس خلالها من دنيانا إلا حلاوة اللقاء ، ومتعة الصبابة ، حتى كان ذات صباح حضرت إلى الشاطئ فلم أجدك ، ومرت الدقائق وأنا أنتظر فى قلق وضيق ، فما عوّدتنى أن تخلفى موعدك قط .

ولم تأتى فى ذلك اليوم .. ولا فى اليوم الذى بعده ، وتملكنى حزن شديد وخشيت أن تكون قد ألمت بك علة أقعدتك عن المجىء .. إذ كانت غيبتك مفاجئة لم تنذرينى بها ، وزاد من حزنى أننى لا أستطيع زيارتك .. فما كنت أجسر على ذلك ، وصممت فى نفسى إن لم تحضرى فى اليوم التالى فعلىّ أن أذهب إلى داركم وأخطبك من أبيك ، فما كنت أستطيع أن أحتمل بعدك ، وأنا أعلم أنك تقاسين المرض .

على هذا عقدت النية .. ولكنك لم تعطنى الفرصة ، فقد حضرت فى اليوم التالى ، وأقبلت عليك أشد على يدك فى شوق ولهفة وأسألك عما بك .. وأجبتنى أنه قد ألمَّ بك برد خفيف ، ولمحت إذ ذاك فى عينيك آثار سهد وفى وجهك شحوبا وذبولا .

وجلسنا برهة على الرمال ، وقد تملكنا الصمت وخيم علينا السكون ، وطلبت منى أن أستأجر « برسوار » نمتطيه فى الماء ، لأنك لا تودين السباحة .. وهبطنا إلى الماء فوق « البر سوار » .. وكان البحر هادئا والأمواج تهز القارب الخشبى هزات خفيفة ، وأخذت أدفعه إلى الداخل بالمجداف بين يدى .

ونظرت إليك فوجدت سحابة حزن مخيمة على وجهك ورأيتك تملئين صدرك بالهواء ثم ترسلينه زفيرا شديدا كأنك تخرجين من صدرك بعض آلامه .. وسألتك ما بك ، فتضاحكت وقلت لا شىء ، وبعد لحظة انقشعت عنك سحابة الحزن وعدت إلى طبيعتك المرحة الضاحكة .

وجاوزنا الصخرة مبتعدين عن الشاطئ إلى عرض البحر وكلما زاد بنا البعد عن الشاطئ زاد بك المرح والسعادة .. وطلبت منى أن أبعد أكثر وأكثر ، وقلت لى إنك تكرهين العودة إلى الشاطئ وتودين الهرب منه ، وتتمنين لو قضيت عمرك فى عرض البحر .

يا لسخرية الزمن وهزء الأقدار .. لقد حققت لك أمنيتك المروعة .. التى بدت لى حين نطقت بها .. أنها هزل وعبث يستحيل تحقيقه .

لقد أمعنا فى الدخول فى عرض البحر ، وازدادت وطأة الموج .. وفى غمضة عين انقلب البرسوار ، وأخذ الموج يدفعه بعيدا عنا .. وأنا أحاول اللحاق به عبثا .. حتى أصابنى اليأس .

وعدت إليك .. لأعود بك إلى الشاطئ .. فوجدت الوهن قد أصابك ، ووجدت وجهك قد زاد شحوبا .

وبدأت أصارع الموج والقدر ، وأذهلنى أن أسمعك تهمسين فى أذنى وأنا أحاول حملك إلى الشاطئ .. إنك لا تودين العودة .

أجل .. لقد كنت مصرّة على الهرب من الشاطئ .. وكان بك إلى الموت لهفة وحنين .

وانتهى الصراع .. بينى وبين ثلاثتكما : أنت والموج .. والقدر .. بأن هزمت شرَّ هزيمة .. فقد أنالك القدر والموج أمنيتك . وأحسست أنى أهبط وإياك إلى جوف الماء .. وأفقت أخيرا لأتلفت حولى وأسأل عنك .. وأسمع أننى وحدى الذى نجوت .. فقد استطعت أنت الفرار .. من الشاطئ .. أو من الحياة .

وأغمضت عينى .. وأنا أحس بقلبى يتفتت فى أضلعى .. وحاولت أن أوهم نفسى أن ما حدث لم يكن سوى كابوس مخيف وحلم مروع .. وتمنيت بأن أكون ما زلت فى جوف البحر .. وأن يكون الصراع بينى وبين الموت لم ينته بعد .. وأن يترفق بى فيتركك لى .. أو يأخذنى معك .

ولكنى فتحت عينى مرة أخرى .. لأجد ما أنبئت به حقيقة واقعة .. وأجد أن من العبث أن أخدع نفسى فأتناوم أو أتماوت .. وأنه لم يعد هناك شك فى أنى عدت إلى الشاطئ من غيرك .. وأن الموت قد سخر منى وأذلنى .. فأخذك منى أخذ عزيز مقتدر .

لقد تمنيت أن تمضى عمرك فى عرض البحر .. وألا تعودى إلى الشاطئ أبدا .

لِمَ لم تشركينى فى أمنيتك ما دام القدر الغصوم قد أبى إلا أن يحققها لك بمثل

هذه السرعة ؟

لِمَ لم تشركيني في مصيرك فنغيب معا . أو نعود معا ؟

ومرّت بي الأيام بعد ذلك وأنا أحس بوحشة أليمة وفراغ مرير ، كأني فقدت صنوا خلق معي .. أو كأني حطام بلا روح .

وفي ذات يوم التقيت ببعض ذويك فشكروني على محاولتي إنقاذك .. وأنبأوني واللوعة ملء نفوسهم .. أنك مت « عروسا » فقد أرادوا أن « يكتبوا كتابك » في نفس اليوم الذي غرقت فيه .. وتملكني دهش شديد .. وأحسست من قولهم برجفة تسري في جسدي .

أترى ذلك كان سبب رغبتك في الهرب من الشاطئ .. وتمنيك أن تقضي عمرك في عرض البحر معي ؟

لم حملت كل العبء وحدك ؟.. لِمَ لم تنبئيني بما سهّدك وأقض مضجعك ؟ فربما كنت أستطيع أن أفعل شيئا ..؟ لم هربت وحدك .. أيتها الأنانية الهاربة ؟.

إن السنين تمر .. ويخيل إليَّ أن ريح النسيان قد محت ما بي .. كما محت ريح الشاطئ ما خططناه بالرمال .. حتى تضمني الصخرة مرة أخرى .. فأجلس وحيدا حيث تعودنا أن نجلس سويا .. فإذا بالشوق قد هاج .. وإذا بي أهتف بالربوة .

ما لأحجارك صمًّا كلما ... هاج بي الشوق أبت أن تسمعا
كلما جئتك راجعت الصبا ... فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعة ... وتهون الأرض إلا موضعا

قربي شفتيك

قرّبي شفتيك .. واتركيهما تستقران على شفتي .. صامتين .. ساكنتين .. لا تعتذري .. ما حاجتك إلى الاعتذار .. وأنا لا أملك لك سوى الغفران .

منى النفس .. قرّبي فاك من فمي ..
قرّبي شفتيك.. فزادى فيهما وشرابي .

ما فمك .. وما شفتاك ؟ من أى نسيج نسجا ؟ ومن أية مادة صيغتا ؟ من صانعهما ؟ ومن خالقهما ؟ أوَخلقهما الذى خلقنا ؟ وصاغهما الذى صاغنا ؟

لا تتحدثى .. ولن أتحدث . هاتى شفتيك صامتين ساكنتين لا أريد منهما همس مناجاة .. ولا رنين قبل .. أريدهما مطبقتين مضمومتين .. تضغطان على شفتي وتمسانهما فى لين ورفق لا همسة ولا كلمة ، إن صمتهما أملأ لنفسى من أعذب الحديث وأجمل المناجاة .

قرّبي شفتيك .. إنى أحس بهما سحرا خفيا .. إنهما تجذبان شفتيَّ .. كأن بهما مغناطيسا لا يمكن مقاومته .

ما بهما ؟.. إن عذوبة الكون ومتعة الحياة قد تجمعت فيهما . نشوة الخمر .. وجمال الزهر .. وعبق الورد .. وحلاوة الشهد .. إنهما تطعمانى من جوع .. وترويانى من ظمأ ..

إنى أحس من مسهما دفء الشمس فى يوم قرّ .. وهدوء المضجع فى ريح صر .. وحلاوة المذاق فى عيش مر .

كم نبا بى المضجع والتهب الفراش .. كم راقبت مطلعك بمقلة أذبلها السّهر

وأرقها الجوى .. كم أذبت النفس حسرة على هوى ضاع وحب ذوى .

كنت أعجب منك ! كيف هنت لديك فجزيتنى على الحب بغضا .. وعلى المودة قطيعة .. كيف أضعت العهد وما أقمت على الود .. وكيف أصبح كل شيء لديك ذا قيمة إلاى .

أيتها الهاجرة . لا تفتحى شفتيك .. ما حاجتك إلى الاعتذار .. وأنا لا أملك لك سوى الغفران ..؟

لا تفتحى شفتيك .. إنى سأعتذر عنك لنفسى .. فحرام علىّ أن أكلفك مشقة الاعتذار .. صمتا .. واتركى شفتيك تستقران على شفتى .. إن مسهما خير شفيع لك وغافر لكل ما على الأرض من ذنوب ! ..

أنا لا أنسى كما نسيت .. أنا أكثر وفاء بالعهد وإقامة على الود .. أنا ما زلت أذكر الهوى الغابر .. والحب القديم .. ما زلت أذكر لقاءنا أول مرة فى ذلك الحفل الخيرى الساهر وقد تهاديت بين المدعوين تبيعين لهم الورد .

ما زلت أذكر كيف تعلق بك بصرى .. فما تحوَّل عنك لحظة .. وما استطعت أن أبصر فى الحفل سواك .

وسعيت إلى التعرف بك وساعدنى الحظ عندما وجدتك تجلسين بعد أن انتهيت من بيع الورد مع بعض الأصدقاء فقدمت عليهم وصافحتك مع من صافحت .. وجلست قريبا منك .

وتم بيننا التعارف ليلتئذ .. تحدثنا بضعة أحاديث عابرة تافهة .. ثم افترقنا فى نهاية الحفل .. ولكن صورتك لم تفارق ذهنى منذ تلك الليلة لحظة واحدة .

وبدأ القدر يدبر لنا اللقاء تلو اللقاء .. حتى بت أومن أنى أساق إليك بإرادة فوق إرادتى .. وأن عرى العلاقة بيننا توثقها يد خفية .

وإلا فخبرينى ما معنى أن أبقى على قيد الحياة خمسة وعشرين عاما أسعى فى الأرض بعيدا عنك دون أن تتيح لى الظروف اللقاء بك مرة واحدة خلال تلك المدة الطويلة .. فلا يكاد يحس أحدنا بالآخر ..؟ ولا يكاد يبصر أحدنا للآخر

وجها، فكأن كلا منا بالنسبة لصاحبه غير كائن، فإذا ما لقيتك تلك الليلة.. بدأ اللقاء يتوالى بيننا.. فإذا بى ألقاك فى كل مكان أذهب إليه بمحض المصادفة وبغير قصد منك أو تدبير منى.. أدخل إلى «جروبى» فأصادفك خارجة.. حتى كأن القدر يحكم لحظة خروجك ودخولى.. أفكر فى الذهاب إلى «السينما» فيستقر بى رأيى على الذهاب إلى سينما مترو.. وأذهب إلى هناك فأجد التذاكر قد نفدت فأتوجه إلى سينما ديانا.. فأجد امرأ يحاول إرجاع تذكرته فأبتاعها منه وأدخل السينما فإذا بك تجلسين بجوارى.. لا.. لا هذا منتهى التدبير من الظروف الحكيمة.

وهكذا أخذت المصادفات تسخر نفسها لجمعنا .. حتى وثقت بيننا الصلة .. ثم تركتنا ندبر أمرنا .. وكان آخر تدبير لها هو ذلك اللقاء الذى أحكمت نسج خيوطه فى بيت أحد أقاربنا .

التقيت بك هناك مع والدتك وأختك .. وعلمت أن هناك صداقة قوية بينكم وبين أقاربى .. وكنت وقتذاك حديث التخرج من كلية الطب .. وبدأت أتخصص فى الولادة وأمراض النساء .

وجرى الحديث بينى وبينكم سطحيا عابرا .. حتى علمت والدتك بمهنتى فقالت ضاحكة :

— نحن فى حاجة إليك يا دكتور .

وعلمت من والدتك أن أختك الكبرى حامل .. وسألتنى أن أتولى العناية بها .. فأجبتها مرحبا .

وفارقتكم يومذاك على أن أزوركم من آن لآخر .. لرعاية أختك حتى تحين الولادة .

وبدأت أزوركم فى بيتكم .. زيارة طبيب فى ظاهره .. مريض فى باطنه .. بيده حقيبته وبقلبه خفقة هوى ورجفة غرام .

كنت أسعى إليك محموما من فرط الشوق .. وكنت أجد فى تلك الهنيهات التى أخلو فيها بك فى الحديقة أو الشرفة دواء لعلة القلب ودواء الفؤاد .. وكنت

أصافحك فأستبقى كفك بين كفى .. وأنظر فى عينيك صامتا .. فأحس براحة كبرى ..

كانت مسة كفك .. ونظرة عينيك .. أشبه بمخدر يسرى فى دمى .. كان صفاء عينيك بعيد الغور .. وكنت أتخيل فيهما نوافذ للجنة أطل منهما على نعيم دائم وسعادة سرمدية .

وأكثرت من زيارتكم إلى حد لا يقره عقل ولا منطق ؛ ومن أين آتى بالعقل والمنطق ، وقد أضعت منى الصواب وأطشت العقل ؟ وكنت أزوركم يوما بعد يوم .. ثم كل يوم .. متعللا برعاية أختك .. وكنت أدرك فيما بينى وبين نفسى أنها حجة واهية ، وعذر مضحك .. فما كانت أختك فى حال تستحق تلك الزيارات المتكررة ، وما فكرت ذات مرة أن أزور مريضة غيرها بمثل ذلك الإلحاح .

وبدأ بيننا التجاوب .. فتخاطبنا بضغط الأيدى .. ثم بحديث العيون . وبهمس الشفاه .. وجرى التفاهم بيننا رويدا رويدا .. حتى وجدنا أنفسنا مرة واحدة .. وقد أضحى لكل منا على الآخر حقوق وواجبات .. وبدأت تسألينني إذا تأخرت يوما عن سبب تأخيرى .. وأين كنت ؟.. وبدأت أنا أطلب منك ألا تفعلى هذا .. وأن تفعلى ذلك .

وهكذا تطور الأمر بالتدريج فإذا بى أتخذ منكم لا موضع الطبيب بل موضع الخطيب .. وأضحى مفهوما فى أسرتك أن بينى وبينك شبه خطبة .. ولم أعد أجد غضاضة فى زيارتى ، وبدأنا نبنى معا قصور الأمانى .. حتى جاء يوم انهارت فيه القصور !

بدأ الأمر بجو من الجفاء حيرنى كنهه .. فما كنت أذكر أنى قد أتيت ما يستحق منكم الجفاء .. ولم أعد ألقاك فى الدار إذا ما ذهبت لزيارتكم وإذا لقيتك فلقاء بلا خلوة وإذا خلوت بك فخلوة سريعة صامتة لا تفاهم فيها ولا انسجام .

ولم تطل بى الحيرة حتى علمت بعد بضعة أيام أنك قد زففت إلى أحد الوجهاء الأثرياء .

واضيعة الهوى ! لقد صادف منك تربة جدباء .. فأنبت لى المرارة وأخرج الشوك .. واضيعة الحب !! لقد عرضت فى سوقه الخاسرة نفسى وروحى وقلبى وكل ما بى .. فما جنيت منه سوى الخيبة والخذلان .

يا ويلتا !! لقد جزيت منك على الوفاء غدرا .. وعلى الحب هجرا .. وعلى المودة سوءا وشرا .. لقد بذرت أملى منك فى مثل الهواء فما جنيت منه سوى العواصف الهوجاء والريح والأنواء .

لقد بعت هواى بحفنة من الذهب .. واستبدلت بسمو الروح والمشاعر ضعة المادة فى أرض ملؤها الشرور .

إنى أحبك يا هاجرة .. رغم هجرك وغدرك .. وشر ما فى الحب أن القلب المحب لا يستطيع أن يجاوب غدرا بغدر ولا سوءا بسوء .

إن الفؤاد يا هاجرة ليتفتت على الهجر .. فلا يزداد إلا ولعا . كالمرآة تريك صورة ثم تتفتت فتريك ألف صورة .

وانطويت على نفسى .. أشغلها عنك بتوافه الحياة واستعنت عليك بالذكرى أجترها فى باطنى لأغذى بها القلب الجائع والنفس المحرومة .. ومرّ بى الزمن وأنا أعيش على الذكرى والأوهام .. فلا أنت واصلة .. ولا أنا سال .

ومرت الأيام وأنا لا أرى منك سوى شبح أطوف به ويطوف بى .

لقد كنت أعتبرك رغم نأيك وهجرك .. شيئا أساسيا فى حياتى .. ولم أشعر قط أننى فقدتك .. فما كان هناك من يستطيع أن يسلبنى إياك .. لقد فقدتك جسدا .. ولكنى لم أفقدك روحا .

قد تتساءلين ماذا يمكن أن آمل منك .. وقد تزوجت وأصبحت ملك إنسان آخر ؟.. وقد تتساءلين لم لا أتعزى عنك بسواك والنساء كثيرات ؟

أنا نفسى لا أدرى .. ولكن الذى أستطيع أن أؤكده هو أنى كنت دائما

أحس أنى لم أفقد منك الرجاء .. وأنك ما زلت لى .. وما استطاعت امرأة غيرك أن تعزينى عنك أو تنسينى إياك .

قد يكون فى ذلك نوع من التعلق بالضائع والتشبث بالمفقود .. وقد يكون هناك وحى خفى يوحى إلىَّ أنك لا بد عائدة .. أو قد يكون بك ما لا يمكن لغيرك أن يهبه لى .. قد يكون كل هذا سببا جعلنى أنتظرو آمل .. وجعلنى أعيش على ذكراك دون أن أيأس من عودتك .. حتى فوجئت ذات يوم برؤيتك أمام ناظرى .. أنت نفسك لا طيف ولا شبح .

نظرت إليك فى دهش شديد .. وكأنى أنظر إلى ألف عام من الفرح .. والحزن .. والألم .. والبأس .. والفرج .. والضيق .. والراحة .. والعذاب .. تأملتك هنيهة .. فإذا بك كما أنت .. وإذا بقلبى يكاد يخر راكعا أمامك .

كدت أندفع فأحتويك بين ذراعى ، ولكنى كبحت جماح نفسى وحييتك فى شىء من الكلفة ، وسألتك فى أدب عما أستطيع أن أؤديه لك ؟.

ومضت فترة صمت وأنت تحدقين فى الفراغ الذى بدا من خلال النافذة وقد شرد ذهنك وبدت على وجهك صفرة وفى عينيك ألم .. وقلت هامسة : إنك تريدين أن أجرى لك عملية إجهاض .

وأخذت من قولك.. ورفعت حاجبى فى دهشة وتساؤل ولكنك لم تنظرى إلىَّ .. بل تحركت إلى النافذة فلم أبصر سوى ظهرك .. وبدا لى كأنك تقضمين أظافرك .. وأنك فى أزمة نفسية شديدة ، وخيل إلىّ أن فى جسدك رجفة ، وأنك تنتفضين كريشة فى مهب الريح .!

وأحسست اضطرابا شديدا وتظاهرت بالتشاغل فى بعض أدواتى .. ووجدت الأسئلة تتزاحم فى رأسى .. والشك يساورنى ويعصف بى .. لم تريدين الإجهاض ؟. إن زوجك ثرى وهو فى سن يتلهف فيها على الولد ؟

وسألتك فى صوت خافت عن عدد شهور الحمل .. فأجبتنى .. وزادت دهشتى فإن المسألة لم تكن هينة .. بل إنها تحتاج إلى عملية خطيرة .. وما كنت

أحس من نفسى الجرأة على أن أجرى لك .. أنت .. أية عملية .. مهما خف خطرها .. إنى أخاف عليك مس النسيم .. فكيف بقطع المبضع ؟

ومضت فترة وكلانا صامت .. وقلت لك متسائلا لعلى أقنعك بعدم الإجهاض :

— ألا بد من الإجهاض ؟.. إنها عملية خطرة ؟.

وأطرقت برأسك مجيبة ، وما زال بصرك شاردا من النافذة .. وعدت أسأل :

— هل وافق زوجك على إجرائها ؟.

— زوجى ؟ إنه لا يملك الموافقة أو الرفض ، لقد مات .

— مات !!.

— أجل .. بعد أن أفلس .. ومات أبى .. وأضحيت وحيدة فى الحياة .. إنى فى حاجة إلى أن أعمل .. ولكنى — بذلك العبء فى جوفى — لا أستطيع العمل .. إن خير ما تفعل لى هو أن تخلصنى منه .. كيف أربيه ؟ وكيف أحمل عبئه وعبئى .. لا أريد لى ابنا يتيما تشقيه الحياة .. وتذيقه مرارتها .. خلصنى أرجوك .. افعل لى ذلك الجميل .. من أجل حبنا القديم .

حبنا القديم !.. واقتربت منك .. واحتويت كفك بين كفى .. ونظرت إلى عينيك .. وقلت هامسا :

— إنى لا أجسر .. لا أستطيع .. كيف أجرؤ أن أمسك بمبضعى ؟ إن حبنا القديم .. ما زال فى نفسى جديدا .. يقظا دافئا ..

وأطرقت برأسك فى يأس .. وعدت أهمس :

— علام اليأس ..؟ إنك لن تحمل عبئه ولا عبئك .. إنى أستطيع أن أحملهما معا ، إن الولد لن يكون يتيما .. ولن تشقيه الحياة .. لأنى أستطيع أن أكون له خير أب .. إنى أحبك كما أحببتك دائما .. وأريدك الآن كما أردتك فى كل وقت .. إنى لم أنس كما نسيت أنت .

منى النفس .. قرِّبى فاك من فمى ..

قرِّبى شفتيك .. واتركيهما تستقران على شفتى .. صامتتين ساكنتين ..

لا تقولى : إنك أجبرت على الزواج .. وأن زوجك قد أنقذ أباك بأمواله ..

لا تعتذرى .. فما حاجتك إلى الاعتذار .. وأنا لا أملك لك سوى الغفران .

هل تذكرين ؟

هل تذكرين بشط النيل مجلسنا
نشكو هوانا ونفنى فى شكاوانا
تنساب فى همسات الماء أنتنا
وتستثير شجون النهر نجوانا
« عزيز أباظة »

قلت لصاحبى وقد جلسنا على شاطئ النيل فى ليلة صيف، رقيقة النسمات، لينة الخفقات، حلوة البسمات .. ليلة يستحق الرثاء فيها من لم يك عاشقا أو شاعرا أو .. أو مجنونا .. قلت له غننا لحنا فما أحق هذا الليل الجميل بلحن جميل ..

وصمت صاحبى لحظة حتى انطلق يغنى « همسة حائرة » .. وأخذت أصغي إليه .. وقد مسنى من سحر الماء والسماء والغناء ما جعلنى أحس أننى لم أعد آدميا .. بل شيئا أكثر من هذا .. ولست من دم ولحم بل من أحاسيس ومشاعر .. تذوب وتتحلل .. وتفنى فى ذلك الجمال العجيب الذى غمرنى وفاض فى نفسى ..

وعلا صوت صاحبى يردد وسط السكون الشامل « هل تذكرين بشط النيل مجلسنا ؟ » .. ثم وجدته قد توقف فجأة وحدق فى وجهى وسألنى مستضحكا :

ــ ألا يوحى إليك هذا القول بشىء ؟

وشرد بى الذهن وأجبته بصوت حالم :

ــ كيف لا يوحى إلىَّ ؟.. هذا الهوى على شاطئ النيل الذى أوحى إلى

الشاعر أن يقول شعره .. وللموسيقار أن يبدع لحنه .. وللرسام أن يرسم لوحته .. وللمثال أن يصنع تمثاله .. كيف لا يوحى إلىَّ بشىء ؟.. لقد أثار فى كل منهم إحساسا واحدا أبرزه كل منهم على طريقته الخاصة .. وعبر عنه بلغته التى يستطيع التعبير بها ، إن الأصل واحد فى نفس كل منهم .. وإن اختلفت الصور التى انعكس لنا بها .

— قل بم أوحى إليك ؟ وما الصورة التى انعكس بها فى نفسك؟ حدثنى يا صاح حدث !

واستغرقت فى الصمت برهة طويلة كان صاحبى يدندن خلالها بصوت خافت .. ثم كف أخيرا عن الغناء وشملنا سكون عميق .. إلى أن بدأت أحدثه قائلا :

— إنى لأبصره على شاطئ النيل .. فى ليلة حالمة كهذه الليلة .. وقد احتضن قيثاره وأغمض عينيه وبدا مستغرقا فى إغفاءة طويلة .. ليس به من علامات اليقظة إلا أصابعه التى تتحرك ببطء فوق أوتار القيثارة لتصدر نغما شجيا .. وإلا همسة حائرة تشدو بها شفتاه :

« هل تذكرين ؟ » ..

تذكر .. أو لا تذكر .. إنه يذكر كل شىء .. إنه ليذكر مجلسهما بشط النيل .. وبغير شط النيل .. إنه يذكر كل شىء له بها أوهى صلة أو أدنى علاقة .. إنه يذكر كيف أتى إلى القاهرة لأول مرة وبنفسه لهفة إلى المدينة الواسعة وإلى ضجيجها وأنوارها .. وكيف هبط إليها فراعه الضجيج وأذهلته الأضواء ، وأحس بالحنين إلى بلدته الهادئة وتمنى لو استطاع أن يعود أدراجه .

تذكر حجرة « أم واسيلى » فى أحد شوارع روض الفرج التى كان يسكن فيها مع طالبين من بلدته .. وتذكر مدرسة شبرا الثانوية ، وكيف كان يتحلق حوله الطلبة فى « فسحة الظهر » يرجونه أن يغنى لهم .. وما كان هو فى حاجة إلى رجاء .. إذ لم يكن أحب إلى نفسه من الغناء .. ولو لم يغنى لهم لغنى لنفسه كما

كان يفعل فى كل لحظة من لحظات يقظته .

الموسيقى .. والغناء ..! لقد كان يحس وقتذاك أنهما له من ألزم الأشياء .. بل إنهما ضروريان لحياته ضرورة الماء والهواء .

وتذكر كيف استطاع الحصول على قيثار قديم .. فأصلح أوتاره . وبدأ يقع فى أحد أركان الحجرة محركا عليه أصابعه دون سابق معرفة .. وساءه ألا يستطيع أن يجعله ينطق بما يحب .. ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى بدأت الأوتار تطيع أنامله ، وحتى أحس أن بينه وبين القيثار القديم ودّ .. وسابق معرفة .. وكأنهما التقيا بعد طول فرقة .. وسرعان ما عرف كل منهما صاحبه .

وبدأ الفتى يصطحب قيثارته إلى كل مكان : إلى المدرسة ليغنى خلال الفسح .. وإلى بيوت أصدقائه يطربهم لمناسبة ولغير مناسبة .. وفى الشوارع ليلا حيث يحلو له التجوال مع زملائه ..

وفى ذات يوم ذهب مع ثلة من أصدقائه إلى روض الفرج للنزهة فى أحد القوارب .. وبينما هو يهم بالهبوط إلى القارب إذ أبصر فتاة مقبلة على الشاطئ .. وسرت بينهما نظرة سريعة خاطفة .. ولكنها كانت كافية لأن تجعل الفتى يتسمر فى مكانه .

كانت الفتاة خمرية اللون ، حالكة الشعر .. وكانت عيناها السوداوان مبعث السحر ، ومكمن الفتنة .

ومنذ ذلك الوقت لم تفارق صورتها ذهنه لحظة واحدة فقد عاد إلى الدار ورأسه ممتلئ بها .. وفى اليوم التالى كان ينتظرها فى نفس المكان وفى نفس الموعد .. ومرت به عابرة فى طريقها إلى « الكازينو » كما مرت بالأمس .

وعرف الفتى أنها تغنى فى ذلك الملهى ، وتضاعف شغفه بها وازداد حنينه إليها .. وتعود أن يقف خارج السور فى كل ليلة ليبصرها من خلال فتحاته ، وليشنف أذنيه بسماع صوتها عندما تعتلى المسرح .

ولم يكن الفتى فى قرارة نفسه براض عن طريقة غنائها .. ولكن صوتها كان

يطربه ويشجيه .. وكان يتمنى لو استطاع أن يحملها من المسرح فيفر بها إلى تلك الناحية من الشاطئ التي تعود أن يخلو فيها إلى نفسه .. فيغني لها وتغني له .

وفي ذات ليلة اتفق مع ثلة من أصحابه على دخول ذلك الملهى .. واقتحم الفتية المكان وهم يضجون بالضحك وانتحوا ركنا خاليا ، وقد غمرتهم موجة من السرور .. وأحس الفتى بنشوة من المكان ومن أضوائه ونسائه ، وهو الذى لم يسبق له أن ارتاد مثل هذه الأماكن .. وأخذ ينقب بعينيه عن فتاته .

وطلب الفتية خمرا .. ولم يكن الفتى قد تذوق طعمها قط ولكن الرفاق تضاحكوا منه ، فاعتراه الخجل وجرع كأسه كما يجرع المريض الدواء .

وازداد ضجيج الفتية وصخبهم .. لا من تأثير الخمر .. بل لمجرد تخيلهم أنهم قد ثملوا .. أو لتنافسهم فى الظهور بمظهر الثمالى .

وخطر لأحدهم أن يطلب إلى الفتى أن يغنى .. لأن غناءه خير بكثير من ذلك العبث الذى يرونه ويسمعونه على المسرح ، واستملح الرفاق الفكرة .. وصاحوا بالفتى يطلبون إليه الغناء وسرعان ما حملوه ووضعوه فوق إحدى المناضد وأصروا على أن يغنى !.. وعلت حمرة الخجل وجهه وتولاه الارتباك .. ولكنه تبين من أصرار رفاقه أنه ليس من الغناء مناص .. فبدأ الغناء .

ودهش الناس فى أول الأمر .. واستنكروا ذلك العمل الأخرق من الفتية الطائشين ، وعلت بضعة أصوات من هنا وهناك تأمرهم بالسكوت وتهددهم بالطرد .. ولكن لم تمض فترة قصيرة .. حتى ساد المكان هدوء .. ووجد القوم أنفسهم ينصتون برغمهم إلى غناء الفتى .. وقد تملكهم الطرب .. وأخذوا يديرون وجوههم من خشبة المسرح إلى ذلك الركن الذى جلس فيه .

وانتهى من غنائه ونظر إليهم خجلا مرتبكا .. فإذا به يلمح فتاته وقد جلست بجوار رجل بدين أشيب إلى منضدة فى أحد الأركان علتها زجاجات الخمر والكئوس ، وبدا عليها كثير من الدهش وصوبت إليه نظرة ملؤها الإعجاب وكأن بينهما سابق صداقة ، فأحس بنشوة عجيبة .. وغمره من الفرح

والسعادة .. فعاود الغناء ..

رفعت الفتاة كأسها إلى شفتيها وأخذت تحتسيها ببطء وقد تعلق بصرها بالفتى ، وإلى جوارها جلس الرجل البدين وقد انهمك فى ثرثرة لا تنتهى .. دون أن تحاول هى أن تفهم شيئا مما يقول .. كانت ترقب وجه الفتى يفيض بالحياة ويزخر بالمشاعر ، وقد تدلت خصلة من شعره الأسود على جبينه وبدا به سحر يشدها إليه .. ووضع الرجل البدين يده على ذراعها فأحست بفرط ثقلها .. واقترب منها بوجهه فلفحتها أنفاسه الكريهة الساخنة .. ولمحت وجهه المنتفخ المملوء بالمسام والتجاعيد فملأها بغض شديد له . . . وأحست بنفسها تثور على هذه الحياة التى تضطرها إلى مجالسة هذه الحيوانات البغيضة .. المنتفخة الجيوب .. بينما تحنُّ إلى من تستطيع أن تهب له نفسها وتحن إلى ذراعين قويتين ووجه فتى تحس منه رغبة متدفقة وعاطفة فياضة فوارة .. فتى تشعر بجواره أنها منه وأنه منها .. فتى ما أشبهه بذلك الفتى الذى يعتلى المنضدة وقد التف حوله رفاقه وهو يكاد يفنى فى أغانيه الحلوة ، وألحانه الرائعة .

وعلا صوت الفتى يشدو بموال كأنما وضع كلماته وألحانه خصيصا لها .. ووصلت كلماته إلى أذنى الفتاة .. وقد صحبتها منه نظرات والهة لهفى .. فأحدثت فيها النغمات والكلمات والنظرات فعل السحر ، وأحست بنفسها تطير إلى عالم طالما حنت إليه .. لا تسمع فيه إلا شفاها تردد :

« يا ساكن القلب يا سابى بسحر العين

منين أجيب الدوا قول لى أجيبه منين »

وسرت بين الاثنين نظرة .. جمعت كل أحاديث الهوى والصبابة .. نظرة لا يفهمها إلى كل عاشق وله الحب قلبه .. وأضنى الجوى فؤاده .. ومنذ تلك اللحظة أحس كل منهما أنه لا غنى لأحدهما عن صاحبه .

وفى الليلة التالية عاد الفتى وحده فتسللت من الملهى حيث قادها إلى تلك البقعة من الشاطئ التى تعوَّد أن يخلو فيها إلى نفسه .. هاربة من الضجيج

والأضواء وكؤوس الصهباء .. ومن ذلك الجو الملبد بغيوم الخداع والرياء .

وجلسا متلاصقين على الشاطئ .. ونظر إلى عينيها السوداوين الصافيتين .. وقد أحاطت بهما ظلال الأهداب الطويلة السوداء .. وطلبت منه أن يحدثها عن نفسه .. فاندفع الفتى يتحدث ببساطة عن أحلامه وأمانيه .. وجلست ترقبه .. وتصغى إلى همساته .. وبدا لها وجهه أشبه بوجه طفل صغير .. بتلك الخصلة المترامية على جبينه ، والتى كان يحاول رفعها بيده من آن لآخر .. ومدت يديها فاحتوت بينهما يده .. وأحست برجفة تسرى فى جسدها .

وعندما افترقا .. لم تبارح صورته رأسها .. بسماحته وصراحته وعينيه الرزينتين ونظراته الهادئة .. وكانت تحس أن حياتها لم تعد فارغة جوفاء .. بل تملؤها لهفتها عليه ، ورغبتها فى أن تفنى نفسها فيه .

واستمر لقاؤهما على الشاطئ ، حتى كانت ذات ليلة وقد اضطجعت ، ورنت ببصرها إلى النجوم ، بينما جلس الفتى بجوارها وقد لف ذراعه حولها ، ورمى بقيثاره فوق العشب الأخضر ، وغمرهما سكون عميق ، وأحس الفتى أنه يهيم فى فردوس من النعيم وكأنما يحيا بجسد على التراب ، وروح على هام السحاب ..

وقطع الصمت همسة من شفتيها تقول : « غن لى » ، ونظر إليها فلمح فى عينيها بريقا ناعما وسحرا عجيبا .. وهمّ بأن يقول شيئا ، ولكن الكلمات لم تطاوعه . فأمسك القيثار وبدأ الغناء « هل تذكرين بشط النيل مجلسنا » ؟ . وأصغت الفتاة إليه ، وقد استلقت على الأرض ، ورنت بعينيها إلى عينيه ، ثم أخذت فى الاقتراب منه حتى أسندت رأسها إلى ساقه ، ومدت يدها فوضعتها برفق على ذراعه .

وانتهى من الغناء .. ووضع القيثار جانبا .. فأحس بيدها الدافئة تتحسس صدره ، ثم تدفعه ببطء إلى الوراء حتى استلقى على الأرض ، وأخذ ينظر إليها وقد انحنت عليه وانساب شعرها الغزير متدفقا حول وجهها وأحس بأصابعها

تضغط برفق على كتفه ، ثم أخذت تحدق فى عينيه برهة ، وقد لفتها الظلمة ، فلم يبد له منها إلا شبح وجهها ورأسها ، وقد بدت خلفها السماء الداكنة المرصعة بالنجوم .. ثم أطبقت على شفتيه فى لهفة شديدة ، وشوق جارف .

وظل الفتى راقدا فى شبه استكانة لضمتها الثائرة .. مضطرب النفس .. ولكنها ما لبثت أن رفعت جسدها فى شىء من العنف لتدفن وجهها فى الحشائش ، ثم انفجرت باكية .. واقترب منها ومسها بيده مترفقا فى شىء من الحياء .. وساد السكون برهة ، ثم قامت الفتاة عائدة أدراجها إلى الملهى .

ثم التقيا بعد ذلك بضع مرات دون أن يحدث بينهما أكثر من الحديث والغناء .. فقد فشلت الفتاة فى أن تثير فى نفسه الرغبة التى تجعلها تفنى فيه ، والتى تشعرها أنها قد أضحت ملكا له .

ثم مرت بعد ذلك بضعة أيام دون أن يتمكن من لقائها ولم تعد تخرج إليه من الملهى كما تعوَّدت أن تفعل .. وكان يعود إلى داره فى كل مرة وقد عصف الشوق بنفسه .. وشعر بحنين شديد إلى حرارة شفتيها .. وإلى يدها تتحسس صدره وتضغط على كتفيه .

وأخيرا دخل الملهى ، وبحث عنها برهة فوجدها قد جلست إلى منضدة فى ركن المكان .. وقد حف بها بضعة رجال يتقارعون الكؤوس .. وبدت فى وسطهم ، وقد أثملها الشراب .. فأحس بقلبه يخفق فى صدره .. والاضطراب يتملكه .. ولكنه اندفع متجها إليها ، ونظرت إليه الفتاة ثم مالت برأسها إلى من جلسوا حولها ، وأسرت إليهم بضع كلمات انفجروا على أثرها ضاحكين .

واقترب الفتى منها ، وقد تصاعد الدم حارا إلى وجهه .. فصاحت به الفتاة ضاحكة عابثة « غن لى أغنية الفتى الذى لا يعرف كيف يصنع بفتاته » وانطلق القوم من حوله يقهقهون .

ولم ينبس الفتى ببنت شفة ، وأحس من كلماتها بطعنة أدمت قلبه ، فاستدار فى صمت ، وغادر المكان .

سار فى الطريق مطأطئ الهامة ، قد أثقل اليأس كاهله ، وأنقض الهم ظهره .. وبدت له الأضواء والمارة من خلال دمع ترقرق فى عينيه كأنها أشباح تتراقص ، أو كأنه فى حلم مزعج ، أو كابوس مخيف ، ووصل إلى مكانه على الشاطئ ، وجلس على الحشائش ، ودفن وجهه فى كفيه ، وعصفت به نوبة من البكاء .

وأحس بعد برهة كأنما غسلت الدموع شيئا من هم نفسه وأحزان قلبه ، فنهض فى تثاقل عائدا إلى داره ، وقد أحس بالحنين إلى بلدته . وتمنى لو استطاع أن يفر إليها .

وفى ساعة متأخرة من الليل .. بدأت أضواء الملهى تخبو وأخذ رواده ينصرفون عنه . وشوهدت الفتاة ، وقد جلست فى ناحية مظلمة منه ، وقد شرد بها الذهن وبدت فى غمرة من التفكير .. لقد انقشعت من رأسها سحب الخمر ، وبدأت تذكر كأنها تتذكر حلما كيف سخرت من فتاها الحبيب وردته أمام الكلاب الضالة مخذولا محسورا .. وودت لو استطاعت أن تجثو أمامه باكية مستغفرة ، فتغرق بدموعها قدميه . لقد كانت تحس بأن كل جارحة فيها تحن إليه .. وإلى روحه الجميلة وقلبه النقى .. وإلى صراحته ونقاء سريرته .

وعندما أغلق القوم الملهى افتقدوا الفتاة لكى تعود معهم فلم يجدوها .. ولو أمعنوا البصر فى الظلمة لأبصروا شبحها يتسلل إلى الشاطئ .. حيث جلست منكمشة تنتظر ، وقد لفتها حلكة الليل .

لقد أحست فى مكانها بشىء من العزاء ، وخيل لها أنه قد يعود إليها .. ولكن الساعات مرت وهى غارقة فى حزنها ووحشتها حتى أصابها اليأس .. فعادت أدراجها تترنح وقد أنهكها الشراب والتعب والسهر ، ولم تسر بضع خطوات حتى أقبلت فى الظلمة عربة تسابق الريح . وقد أثمل الشراب سائقها فدهم الفتاة وانطلق فى سبيله .

وفى الليلة التالية أحس الفتى بقدميه تسوقانه إلى حيث تعوّد أن يجلس .. وهناك جلس على الشاطئ واحتضن قيثارة وبدا مستغرقا فى إغفاءة طويلة ..

وتحركت أصابعه ببطء على الأوتار .. وشدت شفتاه بهمسة حائرة ..

« هل تذكرين بشط النيل مجلسنا ؟ » إن المسكين لا يدرى أنها قد ثوت ببطن الأرض ، وأنها قد أضحت دفين قبر بقفرة .. وأنه سواء لديها الآن أن تذكر .. أم لا تذكر .

ولكنه لم يكد ينتهى من أغنيته الهامسة حتى أحس بشىء يلمس شفتيه لمسة خفيفة كأنه جناح طائر .. وخيّل إليه أنه يسمع همسة تحملها نسمات الليل .

« يا حبيبى .. إنى لأذكر .. وأذكر .. وأذكر » .

لقد كانت روحها تهيم حوله ، فأشجاها الحنين ، وأرسلت إجابتها مع الريح ، فأدت الريح الرسالة .

وأحس الفتى بعد ذلك بالسكينة تملأ قلبه ، وبلوعته تخف ، وبحزنه يغيض .

سلوا الربيع

... وأحسست كأن أغصان قلبى التى عصفت ريح الخريف بأوراقها، قد عادت إليها الحياة، وملأتها المشاعر.
لقد ذهب عنى الاتزان ، وتلاشى العقل والحكمة ..
لا تسألونى عما فعلت ، بل سلوا الربيع .. والهوى .. والشباب ..

سلوا الربيع فهو المسؤول عن كل ما حدث .. وسلوا ساعة من العمر لم ينسها القلب .. وموضعا من الأرض لم يهجره الفؤاد .

سلوا ذكريات طوتها السنون .. وحنينا أخمده الزمن .. سلوا أوراقا جفت .. وأغصانا تجردت .. عصفت بها ريح الخريف .. وأودى بها قر الشتاء .. سلوها كيف مسها الربيع فسرت فيها الروح .. وجاشت بالحياة .. سلوها .. وسلوا الربيع ، فعندهما الخبر اليقين .

كان الوقت قبيل الأصيل .. وقد انتهيت من الطواف بمعرض الأزهار الذى أقاموه فى حديقة الأورمان .. وخرجت من المعرض أجول فى الحديقة .. وقادتنى قدماى من حيث لا أشعر إلى بقعة نائية .. وعلى مقعد تحت شجرة ضخمة جلست وسبحت ببصرى فى الأفق البعيد .

وشرد بى الذهن جوّالا فى أرجاء الماضى .. ينقب فى ذكرياته الغابرة .. وتذكرت جلسات كانت لنا فى سالف الزمن .. حيث كان الربيع ربيعين .. ربيع الزمن .. وربيع الحياة .

كانت النسمات وقتذاك ترنما ، وحفيف الأشجار أنغاما .. كانت الأزهار تضىء الأرض كما تشرق البسمات فى الوجوه الضاحكة .

وأغمضت عينى وبدأت أنشر من طوايا الماضى كتابا حافلا بالنعيم وتذكرت كيف لقيته أول مرة ، منذ سنين خلت ، وقد وقفت أمام مجموعة من أزهار « السنانير » تتأملها بإعجاب وسمعتها تقول :

ــ مدهشة .. أظن أن هذه المجموعة من أحسن ما بالمعرض !.

وتلفت حولى فلم أجد أمام المجموعة سواى .. فلم أشك فى أن الحديث موجه إلىَّ .. فأجبتها فى دعة ..

ــ إنها مدهشة فعلا .

وأخذت الفتاة عندما سمعت صوتى .. ونظرت حولها فى دهش .. فأدركت أنها كانت توجه الكلام إلى صاحبة لها انتقلت أمام مجموعة أخرى دون أن تحس بها .

وانتقلت وإياها إلى مجموعة أخرى .. وجرى بيننا الحديث سهلا بسيطا .. حتى لقيت صاحبتها .. وأخذت أطوف معهما أنحاء المعرض .. وأنا أشرح لهما شرح خبير كأننى أحد مراقبى المعرض .. حتى انتهينا من الطواف .. وافترقنا .

وملكنى الإعجاب بالفتاة فقد وجدت فى وجهها طفولة وبراءة وطهرا ، وفى جسدها نضجا وامتلاء واستواء .. وجدت فيها نموذجا للمخلوقة التى طالما تمنيتها .. ولست أدرى كيف تركتها تنصرف دون أن أحاول معرفة شىء عنها .. اسمها أو عنوانها .. ولكنى فى الواقع إنسان خجول .. قليل الخبرة بالنساء .. ولولا أن الحديث جرى بيننا عن الأزهار .. ولولا أننى شديد الخبرة بكل شىء عنها لما استطعت أن أتحدث معها بكلمة واحدة .

وأصابنى الندم يومئذ ، ولكن الأيام سرعان ما أنستنى إياها .. حتى رأيتها بعد ذلك تسير فى شارع ٢٦ يوليو .

التقت أبصارنا ، ولم أشك من الابتسامة الخفيفة التى علت ثغرها أنها قد

عرفتنى ، ولم أعرف وقتذاك ما أستطيع أن أفعل ، وسرت فى طريقى برهة وأنا حائر متردد ، ثم استقر أمرى على أن أعود لأحدثها .. ولكن عندما أدرت وجهى وحثثت الخطى كانت قد اختفت .

وأبى القدر بعد ذاك إلا أن يدفع بها فى طريقى مرة ثالثة فألفيتها خارجة من إحدى دور السينما ومعها سيدة كبيرة — لعلها أمها — ثم لمحتهما يركبان سيارة فخمة .. واستطعت فى تلك المرة أن أعلم عنها شيئا ، فقد عرفت رقم السيارة .

ومضت بضعة أيام وأنا أشبه « بقلم مباحث » ، حتى استطعت أخيرا أن أعرف من تكون ؟.. ومن أبوها ؟ وأين تسكن ؟

ولقد أحسست بشيء من الخيبة والخذلان .. وتملكنى خوف من أن أكون مندفعا وراء سراب ، فلقد كانت الفتاة ابنة ثرى معروف ليس من السهل الوصول إليه ، ولكننى قلت لنفسى : إننى شاب فى مستهل الحياة .. وإن المستقبل أمامى زاهر متفتح .. وإنى قد أصبح فى يوم من الأيام مثل أبيها ثروة وخيرا منه ، وما قيمة المال والمكانة التى يرثها المرء دون أن يكد فى الحصول عليها ؟

وهكذا أقنعت نفسى بقيمتى ومكانتى .. وبدأت أندفع فى حب الفتاة ، وكادت المسألة تنتهى إلى لا شيء .. لولا أن القدر أبى إلا التدخل من أجلى فوهب لى من بنات المصادفات ما قرَّب بينى وبين الفتاة ، وما جعلنى أجزم أنه لا بد أن يكون لأحدنا دور فى حياة الآخر .

وبدا لى من مرات اللقاء العابرة التى وهبتها لى الظروف أن الفتاة تعرفنى جيدا . وأن مرآى يثير فى نفسها شيئا من الاضطراب والارتباك .. قد يكون مبادئ حب !

واستبد بى داء الحب .. واستحكمت العلة .. وأنا إنسان خيالى ، مرهف الحس .. فبدأت أتخذ من دارها كعبة أطوف حولها كل ليلة ، وكدت من فرط الوهم أسمع أنفاسها من وراء الجدر ، وأبصر وجهها المشرق وقد أغفى على

الوسادة .

كانت دارها — أو على الأصح قصرها — فى المعادى ، وكنت أستشعر لذة كبرى فى أن أتجه كل مساء إلى محطة باب اللوق .. فأستقل القطار وأجلس بجوار النافذة ، يلفح النسيم وجهى ، وقد شرد بى البصر والذهن فى أشباح الأشجار والدور والنخيل .. وفى آفاق الأحلام تتوالى بها صور لمستقبل ممتع سعيد .. صور لقاء .. وقبل ، وخطبة ، وزواج ، وحياة كلها رغد وهناء .

ويقف القطار فى محطة المعادى ، فأهبط منه وقد ملأنى الأمل وأفعم نفسى الرجا .. ثم تحتوينى شوارع الضاحية ، ويضمنى سكونها وصمتها ، وتحملنى قدماى إلى دار السعادة ، دار الحب والنعيم .

كنت أتطلع إلى النوافذ .. فلا أكاد ألمح بها شبحا يتحرك حتى تعرونى إذ ذاك هزة ، وأنتفض « كعصفور بلله القطر » .. ولقد يكون الشبح خادما أو رجلا ، ولكن ذلك لم يكن يغير فى نفسى شيئا ، فلقد كنت أراها فى كل ما أرى ، وأسمع صوتها فى كل ما أسمع ، من همس النسيم ، وحفيف الأوراق ، وخرير المياه ، وتغريد الطير .

وفى ذات مساء انتهيت من طوافى ، وعاد بى القطار إلى القاهرة ولم أكد أهبط منه ، حتى لقيتها وجها لوجه .

كانت وحيدة ، وكانت رؤيتها مفاجأة شديدة الوقع على نفسى . فلقد كنت أتخيلها منذ نصف ساعة جالسة وراء نافذة الدار ، ولم يكن يخطر ببالى أنى سأراها على قيد خطوات منى .

وتمالكت نفسى ، وحييتها ، فأجابت تحيتى بابتسامة رقيقة .. وشجعتنى على أن أتقدم لمصافحتها .. ووقفنا برهة نتحدث .

سألتنى : « من أين ؟ » فأجبتها : « من المعادى » وعادت تسأل ضاحكة « وإلى أين ؟ » فأجبتها مرة ثانية « إلى المعادى » واستغرقت فى الضحك وسألت فى سخرية ودهاء :

ــ هل عينت « كمسارى » قطار ؟

وعلا صفير القطار ، وصعدت إليه ، وقفزت وراءها .

وللمرة الأولى فى تاريخ سكة الحديد .. يقطع القطار المسافة بين القاهرة والمعادى فى بضع ثوان أو فى غمضة عين فإنى لم أحس مرور الزمن ، وهكذا الزمن دائما ، أسرع فى السراء من القطاة .. وأبطأ فى الضراء من السلحفاة .

وودعتها حتى باب الدار .. وعدت وأنا أحس أنى لا أسير على قدمى .. بل أطير بأجنحة . وهل هناك سعادة تعادل سعادة عاشق قد استقر قلبه بعد طول تخبط وهيمان ؟

والتقينا بعد ذلك بضع مرات .. وكان لقاء خاطفا لم يسمح لنا إلا ببضع كلمات . وأخيرا التقينا .. اللقاء الأكبر .. فى ساعة قد يهون العمر إلا إياها ، وفى بقعة قد تهون الأرض سواها .. هذه البقعة التى أجلس فيها الآن على نفس المقعد ، وتحت نفس الشجرة ، وفى نفس الساعة .. ساعة الأصيل .

الشباب وحده ساحر ، والحب وحده قوة ساحرة .. والربيع ساحر .. وساعة الأصيل ملؤها السحر .

فكيف إذا اجتمع الشباب والحب والربيع فى ساعة أصيل ؟!!

جلست وإياها وكأن موضعنا الجنة لا الأرض .. ووضعت كفها بين يدى ونظر كل منا إلى الآخر . وتناجينا وتحدثنا عن كل شىء .. عن حبنا وعن مستقبلنا ، وعن زواجنا ، وعن بيتنا ، وعن أولادنا .. وبنينا من الأوهام قصورا شاهقات ، وزرعنا من الأحلام حدائق غناء .

وافترقنا أخيرا .. وقد اتفقنا على أن أتقدم لخطبتها .

وتقدمت وبى من الأمل والحب وغرور الشباب .. ما ملأ نفسى ثقة .. وأفعم قلبى اطمئنانا .

ولكنى أخفقت ! فقد رفض أبوها بأدب ولباقة ، معتذرا بأنها ما زالت صغيرة وأنه لا يود أن يرتبط من الآن ، وأدركت أن قوله ليس سوى عذر ، وأن

السبب الحقيقى .. هو أن الثراء يطمع فى الثراء ، والجاه يطمع فى الجاه .

ولقد أصابتنى إذ ذاك صدمة .. ولكنى بقيت أتعلق بخيط من الأمل ، وهو أن الفتاة ستثور على أهلها وأنها سترغمهم على قبولى وستستعمل حقها فى اختيار زوجها .

كنت واثقا من حبها .. واثقا من قدرة الحب على فعل المعجزات .. فقد كنت أنا نفسى على استعداد لأن أفعل من أجلها المعجزات .. وأن آتى فى سبيلها « بما لم تستطعه الأوائل » .

كنت حسن الظن بالحياة وبالناس .. وكان يخيِّل إلى أنه يكفى أن يتحاب اثنان حتى يستطيعا التغلب على كل صعاب الحياة .

كنت أعتقد أنه لا يمكن أن يحول فى الدنيا حائل بين قلبين متحابين .. وأن من شدهما وثاق الهوى لا تقدر على تفريقهما قوة إلا الموت .

كنت موقنا أنها ستضرب برغبة أهلها عرض الحائط وأنها لن تسمح لأبيها بأن يتحكم فى مصيرها .. ويدمر صرح سعادتها .

ومرت الأيام وأنا حائر قلق .. أترجح بين اليأس والأمل .. وبين طيفى الخوف والجاء .. أطوف بدارها فى حلكة الليل فلا ألمح لها طيفا ولا أبصر لها شبحا .. وأذهب إلى مكان اللقاء .. الذى تعوّدت أن ألقاها فيه .. علّ الحنين الذى دفعنى إليه يكون قد ساقها إليه .. ولكنى لا أجد فيه إلا الوحشة والفراغ .

وأخيرا ، وبعد طول انتظار ، وصلتنى منها رسالة .. قطعت خيط الأمل الذى كنت أتعلق به ، ودفعت بى إلى قرارة اليأس .

فقد قالت إنها علمت برفض أهلها لى .. وأنها قد ثارت على هذا الرفض وأنبأتهم صراحة — رغم ما وجدته من غضاضة على نفسها — بما بيننا من حب ، وأنها لا تقبل زوجا سواى .

وثار أبوها وبقية أهلها ، وهددوها بالطرد والحرمان ، وأصر أبوها على أن

تختار بينى وبينه .

ولقد فكرت طويلا قبل أن تختار .. ثم اختارت أباها . اختارته ، لا لأنها تحبه أكثر منى ، بل لأن حبه أبقى لها على الأيام ، وقالت إنها لا تجسر على أن تعصى لأبيها أمرا لأنها تعرف أنه يحبها وأنه عاقل متزن .. ولقد قال لها إن حبنا سيتطاير بعد الزواج وأنها ستكون عبئا علىّ بحياة الترف التى تعوّدت أن تحياها وإن زواجنا لن يكون فيه أى تكافؤ ، وإن على كل منا أن يحتمل الفرقة حتى ينسى الآخر .

وصدمنى قولها .. وتركتنى رسالتها صريعا أتخبط فى دياجير اليأس. كيف تقول هذا ؟. وأين الحب .. وأين الوفاء بالعهد والإقامة على الود ؟ أهكذا هنت عليها .. وهان حبى .. حتى باتت تنظر إليه تلك النظرة المادية ؟

أبمثل هذه السهولة قد فرطت فى ، وأقنعت نفسها أنها لم تعد فى حاجة إلىَّ ؟ أتبيعنى وحبى بحياة الترف والنعيم ؟

لقد تملكتنى وقتذاك ثورة جامحة عنيفة .. وأحسست بإيمانى يتبدد .

ولم يكن جنون الحب واندفاع الشباب ليجعلانى أفهم معنى لهذا الكلام ، ولم أر منها سوى فتاة مادية لا تعرف معنى الحب وأن أباها رجل أنانى أعماه المال .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وتوالت السنون ، وسار كل منا فى طريقه ، ودفنت حبى بين ضلوعى ، وبرئت من ذلك الجرح الذى سببته لى .. وضربت بيننا أيدى الزمن ، فلم يعد يبصر أحدنا الآخر أو يسمع عنه إلا لماما ، وتزوجت أنا بفتاة من أقربائى ، وتزوجت هى رجلا من طبقتها الثرية الأرستقراطية .

وأقبل علىَّ الزمن فوهب لى المال والمكانة .. أو على الأصح باعنى إياها بسنوات طويلة من الكفاح .. لم تبق منى باقية ، سوى جسد واهن ورأس اشتعل شيبا .

وماتت زوجتى بعد أن أنجبت لى ابنة وحيدة وهبت لها كل ما بنفسى من حب وحنان ، ولم يعد لى هم فى الحياة سوى إسعادها .

وشبَّت الابنة وترعرعت وأصبحت فتاة مكتملة ناضجة كأنها ثمرة حان قطافها ، ولم يكن هناك ما يشغلنى إلا أن أجد لها زوجا صالحا .

ما أشد ما يتغير الإنسان ويتطور تفكيره وتتبدل نظراته إلى الحياة !! لقد ذهب عني جنون الصبا .. وحمق الشباب . وبت لا أسخر من شيء كسخريتي بالحب ، ولم أعد أعده إلا نوبات من الطيش تصيب الإنسان برهة ثم تذهب عنه ، وأننا يجب ألا نفكر فى مستقبلنا أو نقدم على عمل يتوقف عليه مصيرنا ونحن فى هذه النوبة .. نوبة الطيش ، أو ما يسمونه الغرام .

واستقر رأيى أخيرا على زوج لابنتى .. كان فى نظرى نموذجا للزوج ، فهو رجل فى مقتبل العمر لا يزيد على الخامسة والثلاثين ، عاقل رزين .. من عائلة طيبة وله مركز محترم ومستقبل باهر .

وعرضت أمره على ابنتي بعد أن طلب منى يدها .. فأنبأتنى أنها لا تريد الزواج . ولم أكن من الحمق بحيث لا أدرك أن هناك إنسانا آخر يمنعها من قبول هذا الزوج المثالى .

أجل .. لقد أدركت أنها لا بد مصابة بتلك النوبة التى يسمونها بالحب .. وبدأت أستدرجها حتى عرفت حقيقة الأمر .. وعلمت أنها تحب فتى فى السنة النهائية فى الجامعة وأنها تنتظر حتى يتخرج فيتقدم لخطبتها .

ولم أثر عليها لأنى رجل هادئ عاقل .. وصممت على أن أصبر حتى أقنعها باللين والمنطق ، وأن أحولها رويدا رويدا لأن هذا هو الحب الطائش ، وهكذا بدأت أضع الخطط وأحكم التدابير حتى أوجهها إلى الرجل الذى أريده زوجا لها .

* * *

مرّ بذهنى كل ذلك وأنا جالس فى مقعدى وقد سبح بصرى فى الأفق البعيد .. أرقب الشمس الغاربة ، ونظرت إلى الساعة فوجدت أن ميعادى مع ابنتي قد أزف .. فقد دعانا الرجل الذى اخترته زوجا لها إلى تناول الشاى معه فى

جروبى وكان هذا ضمن تدبيرى .

ونهضت من مكانى وسرت بضع خطوات فوقع بصرى على منظر كان آخر ما أتوقعه .

لقد وجدت ابنتى متمددة على الحشائش وإلى جوارها فتى حلو التقاطيع جذاب الملامح .. وهما يتهامسان كأجمل ما تهامس عاشقان ، والأزهار متفتحة حولهما كأنها قد صنعت لهما عشا طبيعيا يحميهما من عيون الرقباء .

وتذكرت الشباب .. والحب ، والربيع .. وتذكرت ساعة الأصيل .. وتبدد من ذهنى الجمود الذى أصابه ، وأحسست كأن أغصان قلبى التى عصف الخريف بأوراقها قد عادت إليها الحياة وملأتها المشاعر ..

لقد ذهب عنى الاتزان وتلاشى العقل وفقدت الحكمة .

لا تسألونى عما فعلت ، بل سلوا الربيع .. والهوى والشباب .

لقد أخذت الفتى والفتاة ودعوتهما إلى الشاى ، وضربت صفحا عن موعد الزوج الآخر .

وبعد أيام جاء الفتى وأمه لخطبة ابنتى ، ولشد ما كان وقع المفاجأة على نفسى عظيما ، فلقد كانت أم الفتى .. صاحبتى الأولى . مات زوجها ، وتبدد الثراء ، وأصبحت من الطبقة المتوسطة ، كما كنت أنا فى سالف الزمن ، وسمعت الأم تهمس فى أذنى .. ما الذى جعلك ترضى بابنى زوجا لابنتك مع الفارق الذى بينهما ؟

فأجبتها مبتسما :

لأن أباها أكرم من أبيك .

ليته ما عاد !

الحمد لله الذى جعل الموتى لا يعثون .. ماذا يمكن أن يحدث لو أن موتانا قد عادوا ، فأفسدوا علينا حياتنا التي نظمناها على أساس موتهم ، وحرمونا حزننا عليهم .. وزيارتنا لمقابرهم ؟.

لست أدرى .. من أين أبدأ قصتها الزاخرة الحافلة .. تلك التى أحسست وهى تقص علىّ بأنى عثرت على صيد قصصى ثمين .. فهى ليست مجرد قصة .. بل مادة يستطيع الكاتب أن يفصل منها مائة قصة .. تكون هى فيها بمثابة القاسم المشترك الأعظم ، ويكون الطرف الآخر أولئك الرجال الذين ألقى بهم القدر فى محيط حياتها .

لن أحاول سرد تاريخها الحافل — كما قصته علىّ — فهو شيء يطول سرده ولكنى سأنتقى منها قصة أحدهم ، أحد أولئك الذين قاموا بدور البطولة فى قصصها المتعددة ، وقد يكون مبعث اختيارى له دون غيره ، هى تلك الحرارة التى حدثتنى بها عنه ، والحنين الذى بدا لى منها إليه ، فهى تتحدث عنه مغمضة العينين ، حالمة اللهجة ، قد أرهف فيها الحس ، وهاجت منها المشاعر .

ويبدو لى أن من الخير قبل أن أدعها تتحدث إليكم لتروى لكم قصتها ، أن أقدمها لكم كما أراها ، حتى أوفر عليها مشقة وصف نفسها ، وأريحها من عناء الغرور ، ومشقة التواضع .

هى امرأة من ذلك النوع من النساء الذى كانوا يسمونه فى عهد الإغريق : طبقة الرفيقات ، ولست أعنى بقولى هذا إهانة لها ، فقد تبدو هذه الطبقة فى

عهدنا هذا ، رغم وجودها فعلا ، طبقة غير معترف بها علانية ، ولا يشرف امرأة أن تعلن الانتساب إليها ، أما فى عهد الإغريق فإننا نجد أن هذا الأمر لا يعدو أن يكون نظاما طبيعيا من نظم الحياة الاجتماعية ، فقد كانت الحياة تنقسم إلى طبقتين : طبقة الزوجات الشرعية اللاتى تحجبهن جدران البيوت ، وطبقة الرفيقات اللاتى يتمتعن بقسط وافر من نعيم الحرية والحياة .

ولم تكن الرفيقات أو الصاحبات (companions) — كما كن يسمين فى ذلك العهد — بأقل مكانة لدى الإغريق من طبقة الزوجات ، ولا كان لا نتسابهن إلى طبقتهن حط من كرامتهن ، أو خفض لقدرهن ، أو تشويه لسمعتهن ، بل — على النقيض — كن محل تقدير أهل العلم والأدب ، وموضع إعجاب الفنانين والشعراء ، إذ كن فوق جمالهن الفياض وأنوثتهن المتدفقة ، مثقفات ، مهذبات ، ذكيات ، لبيبات ، محدثات ، لبقات ، واسعات الاطلاع ، حصلن على قسط وافر من التعليم ، ونهلن الكثير من موارد الشعر والأدب والموسيقى . وكان مقرهن وقتذاك مدينة كورنته ، مدينة الشعر والهوى ، والفن والجمال ، أو الكعبة التى يحج إليها الأثرياء ومشهورو الرجال كى يرفهوا عن أنفسهم ، ولم يكن فى مرافقتهن للصاحبات انتقاص لقدرهم أو خيانة لزوجاتهم ، بل كان أمرا طبيعيا لا غبار عليه ، فقد كانت الزوجات حبيسات الدار ، واجبهن تهيئة بيت هادئ وإنتاج أبناء شرعيين .

هذه كلمة عابرة عن الرفيقات فى عهد الإغريق ، وقد أبدو فى سردها خارجا عن موضوع القصة ، ولكنى أؤكد لكم أنى لست كذلك ، فما قصدت بها سوى أن أعطيكم صورة صحيحة للمرأة التى نحن بصددها ، فاستغنيت بوصف الرفيقات عن وصفها ، فإن خير ما تصلح له — كما سبق القول — هو أن تكون رفيقة ، ولكيلا نهوّن من شأنها ، أو نبخسها حقها ، رفيقة من رفيقات الإغريق .

أول ما يمكن أن يقال عنها ، إنها امرأة بكل ما تعنيه كلمة — امرأة — جميلة

وجها وجسدا فى بلد ندر فيه جمال الوجه والجسد ، بادية الطيبة .. تستطيع التحكم فى مظهرها ، وفى مشاعرها ، رغم أن شيطان المرأة قد يغلبها على أمرها ، فيفقدها كل سلطان لها على نفسها وعلى مشاعرها ، فإذا بها ألعوبة فى يده ، أو فى يد غيره من الشياطين ،ولست أشك أن شيطان المرأة هذا الذى عجزت أن تكبح جماحه فى نفسها هو الذى صنع منها ما هى عليه ، والذى ملأ تاريخها الحافل بالحوادث والمغامرات ، وأخرجها عن طريقها المعتدل السهل الذى تسلكه كل زوج وأم ، وأثارها عن الدار الهادئة ، فدفع بها إلى أن تركب الصعب فى خضم الحياة ، فتتقاذفها الأنواء ، وتدفع بها بين القرارة والقمة ، وتذيقها الكثير من المرارة والكثير من المتع ، وتنهكها ، وتوهنها ما بين إرخاء وجذب ، وبسط وشد ، حتى تصل بها إلى حالة بادية الرضا والاستقرار ودرجة من الفوز قد يغبطها عليه غيرها ، وإن كنت أشك كثيرا فى أنها تغبط نفسها عليه .

أقول إنى أكاد أجزم بأن شيطان المرأة هو الذى حاد بها عن الطريق السهل المعبد ، ودفع بها فى هضاب الحياة ووهادها فهى كما قلت : من نوع الرفيقات المنطلقات فى رحاب الحياة ، لا الزوجات المحجوبات وراء الجدر المثقلات بقيود الدار ، ولكنها أنكرت علىّ قولى ، وبرأت شيطان المرأة من كل ما بها ، وألقت العبء كله على الظروف السيئة والقدر الساخر ، أو كما قالت على أول « لا » ؟

دعونا نسمع إليها ، وقد قبعت فى ركن من الأريكة ، وثنت ركبتيها وساقيها وانكمشت فى « طرفها » الحريرى وأخذت تنفث من شفتيها ، حلقات من الدخان المتكاثف ، وتقول فى صوت الحالم :

ــ كانت أول « لا » هى السبب فى كل ما حدث .

كنت أعطى كل ما أطلب ، وكنت أجاب إلى رغبتى .. حتى قبل أن أقول « أريد » .. كانت « لا » لا تعرف طريقها إلى شفاه من حولى ، بل كانوا لا يملكون لمطالبى ، إلا : نعم وحاضر .. حتى كان ذات يوم .. صدمتنى

منهم « لا » فكانت القاضية .

كنت فتاة مدللة .. لا لمجرد أني وحيدة أبوى .. بل لأنني الوحيدة من بين بنيهما التى غفل عنها الموت فلم يثكلهما فىّ .. كنت الوحيدة التى أبقى عليها القدر العنيد .. فكنت لديهما كل شيء ..

هكذا تعوّد أبي أن يخضع لرغباتى التى لم تكن تتجاوز الرغبات الصبيانية التافهة .. حتى إذا ما بدأت تلك الرغبات تتخذ مظهرا جديا ، يتوقف عليه مستقبل حياتى ، روعنى منه قوله « لا » .

لست أدرى من كان المخطئ ومن الذى كان يجب أن يخضع لرغبة الآخر .. أنا أم هو ؟ ولكننى أعتقد أنى حتى ولو كنت مخطئة فهو المسئول عن خطئى .. فقد عوّدنى دائما أن يرضخ لرغبتى .

كنت ما زلت وقتذاك صبية .. عندما سمعت أنهم سيزوجوننى من ابن عمى ، وكان أبي يرغب على حد قوله ، فى أن « يفرح بى » . ووقع اختياره على ابن أخيه حتى يحتفظ بى فى الدار .. وحتى لا يسبب زواجى فرقة بيننا .. وكان يجد كذلك أنه أحق بى وبماله من الغريب .. وأنه يستطيع أن يعاونه فى أعماله .

كانت هذه كلها مبررات للزواج من وجهة نظره .. أما أنا فلم أكن أجد مبررا واحدا يدفعنى إلى الزواج .. لا حب ولا رغبة .. ولا حتى مجرد استلطاف .. ووجدتنى ببساطة أقول لهم : إنى لن أتزوج .

لقد أبيت الزواج .. وكنت أعتقد أن هذا يكفى جدا لكيلا يتم الزواج .. فقد كانت تلك هى رغبتى .. ورغبتى دائما مجابة . إذا قلت لا أريد شيئا .. فلن يعارضنى فى رفضى أحد .

قلت لن أتزوج ، فقيل لى « لا » .. أبيت ، وبكيت ، وشكوت .. وتمارضت .. فقيل لى « لا » ستتزوجينه وأنفك راغم .

ومرت بى الفترة التى سبقت الزواج ، وأنا أكافح وأناضل أشبه بمحمومة أو مجنونة .. فلقد زادنى إصرارهم كرها فى الزواج ورغبة عنه ، حتى لقد حاولت

عدة مرات التخلص من الحياة ، ومع كل ذلك فقد تم الزواج ، اعتقادا منهم أننى لست سوى طفلة ، وأن رفضى مبعثه طيش زائل ، وأن الأيام كفيلة بأن ترد إلىّ صوابى وتجعلنى أنعم بالزواج ، ومرت الأيام لا تحمل فى طياتها سوى العجز والفشل . ماذا تستطيع الأيام فعله ، إزاء هذا الجحيم الذى كنت أحس أنه يلهب أحشائى ؟. وكيف يمكن أن أنعم بالزواج ، وأنا لا أرى فى زوجى سوى شيطان مريد ، لا أطيق منه مجرد اللمس ؟ .

كيف ترد الأيام صوابى ، وأنا ما ضمنى وإياه فراش الزوجية إلا وأصابنى قىء شديد .. من فرط بغضى له .. ونفورى منه ؟. ماذا تستطيع الأيام أن تفعل إزاء هذا الكره المتغلغل فى نفسى .. لقد مضت بى وهى لا تحمل لى إلا المزيد من الملل والحزن والتبرم .. كل يوم يمر يزيدنى بغضا لزوجى ، ورغبة فى الانطلاق من إساره ، حتى أصبحت لا أحتمل العبء ، وحتى لم يعد هناك مفر من أحد أمرين : إما أن أظل أرزح تحته حتى يقضى علىّ .. وإما أن ألقيه عن كاهلى .. وأنطلق من أقرب منفذ يلوح لى .

وتدخل القدر فأبدى لى المنفذ الأول ، أو المرفأ الأول أو سمه ما شئت ، فى صورة طبيب شاب يتولى علاجى من داء ألم بى .. ووجدت فيه رقة نفس .. وطيب خلق .. ولقيت منه حنوا شديدا ، وعطفا بالغا ، واهتماما يفوق كثيرا اهتمام الطبيب كمجرد طبيب .

وأحسست بنفسي تهدأ إلى جواره .. وهبطت حرارة الجسد .. واشتدت حرارة القلب .. وإذا بى أستبدل بحمى الجسد حمى الفؤاد .. وطال المرض .. وطال وجود الشرر بجوار الهشيم ولم يكن هناك مفر من أن تشتعل النيران .. نيران آكلة حامية وقودها الأفئدة المشتعلة ، والقلوب المستعرة .

وهكذا وقع المحظور ، وحدث ما لم يكن من حدوثه بد ، فما كان فى الإمكان إلا ما كان . مريضة النفس والجسد .. حبيسة دار هى والجحيم فى نظرها سواء ، أسيرة زوج ، أبغض أعدائها أحب إلى نفسها منه .. مقيت

كريه .. البعد عنه — كما يقولون — غنيمة ، تلقى بها المقادير ، وهى فى حالتها تلك ، فى طريق طبيب شاب رءوف رحيم .. مرهف الحس .. رقيق المشاعر .. متأجج العاطفة .. يلمس ما بها من علة وما أصابها من داء ، علة النفس وداء جسد ، ويحس ما هى فيه من شقاء وتعاسة ، ويرى فيها زهرة جميلة تذبل وتذوى .. وتكاد تتساقط أوراقها ، وتسير فى طريقها إلى الفناء .. فيحاول إبراءها من علتها .. وشفاءها من دائها .

أيمكن أن يلقى بها القدر إلى مصير غير الحب ؟ .

لا تلمنى .. فما أظن هناك مخلوقة مهما قويت إرادتها ، واشتدت مقاومتها ، تمر بهذه التجربة ، إلا وتندفع إلى هذا المصير .

لا تلمنى ، ولا تلمه ، ولا تلم الشيطان ، ولا النفس الأمارة بالسوء .. فقد كنت أشبه بالسفينة الضالة ، طال بها عصف النوء . فلما لاح لها أول مرفأ .. ألقت بنفسها بين أحضانه .

وهكذا اندفعت وإياه فى هوى عنيف .. وحب جارف .. لا قبل لأحدنا بمقاومته .. وعلام المقاومة ؟ ولماذا ؟

إن الإنسان فى هذه الدنيا يحاول أن يقاوم مثل هذه الاندفاعات .. أو النزوات ، خشية أن تفسد عليه حياته .. ورغبة منه فى ألا يستبدل متعة طارئة بهدوء مقيم ، وحياة هانئة مستقرة .

أما أنا .. فما فائدة المقاومة ؟

ماذا يمكن أن تخشى مثلى على حياتها المظلمة الفارغة ؟.. ماذا يمكن أن يفسدها أكثر مما هى ؟.

لقد أقبلت على المتعة الطارئة ، بنهم الجائع المحروم ، الذى لم يذق فى حياته متعة قط وأخذت أجرع منها كصاد أوشك أن يهلك ظمأ .

ويبدو لى أننى فى اندفاعى هذا لم أعبأ كثيرا بالتستر ، ولكن هبنى قد حاولت التستر !.. أمثل هذه الأشياء يمكن سترها ؟.

لا أظن .. فإن هذا النوع من الحب .. يثير وراءنا عاصفة من الغبار من العبث أن نحاول إخفاءها بل إنها قد تخفينا قبل أن نخفيها .

وبدأت الألسن تلوك حديثنا ؛ ونحن فى بلد يتغذى الناس فيه بالطعام وبسيرة الناس ، فهى تكون عنصرا هاما فى وجودهم ، ففى هتك الستور ونبش الفضائح حياة لهم ومتعة .

وهكذا شاع الأمر ، ووجدته بدأ يتطور تطورا خطيرا ، ويكاد ينتهى بكارثة كبرى .. وإذا بالحب الذى نشدت فيه عزاء عن حياة بغيضة وزواج مقيت ، قد أضحى مبعث شقاء ومورد خوف وقلق ، ووجدت نفسى أوشك أن أدمر حياة من أنقذ حياتى .

ووجدت العبء قد زاد ثقلا ، وأحسست بالحياة لم تعد تطاق . وفى ذات ليلة استقر بى الرأى على أن أركل بقدمى ما مضى من حياتى وأن ألقى عبئها عن كاهلى ، وأن أنطلق فى الحياة هاربة منهم جميعا .

هكذا غادرت الدار .. لا أملك فى جيبى إلا دراهم معدودات ودون أن يعلم أحد من أمرى شيئا ، سوى مخلوقة واحدة .. كانت أبر الناس بى وأشدهم حدبا علىّ .. مخلوقة لم يتنكر لى قلبها مرة واحدة ، فكانت تحنو علىّ مخطئة أو مصيبة ، مذنبة أم بريئة ، ما رأت لى قط هنات ولا سيئات بل كانت ملجئى فى العاصفة الهوجاء ، وملاذى فى الحلكة الموحشة .. تلك أمى .

انطلقت فى الحياة ، لا أحمل سوى بضعة جنيهات .. وبضع دعوات طيبات .. هاربة من الدار التى لم أفارقها يوما واحدا .. هاربة من مرتع الصبا وملعب الطفولة ، هاربة من الماضى بقسوته ومرارته ومتعه ولذاته .. هاربة من كل من كان لى به أدنى علاقة .. علاقة حب أو بغض ، أو عطف أو حنان ، هاربة من : الزوج ، والأب والأبناء ، والحبيب .. هاربة منهم جميعا .

* * *

وصمتت محدثتي برهة .. ألقت خلالها بعقب السيجارة من يدها ومدت ساقيها لتريحهما من عناء الثنى .. وضمت أطراف الروب حول جسدها ، وأزاحت شعرها المتهدل عن وجهها ، وأطلقت من صدرها نفسا طويلا .. ثم عاودت الحديث .

ويبدو لى أن من الخير أن اقتضب حديثها بعد ذاك فإنى — كما سبق القول — لا أريد أن أسرد تاريخها الحافل ، وهو شيء يطول سرده ، وليس من السهل وضعه فى بضع صفحات .. ولأنى كذلك لا أريد رسم الظلال والتفاصيل التى قد تلقى الضوء على شخصيتها .. حتى أجنب نفسى ما لا قبل لها به ، والمسألة كلها — بعد كل هذا — لا تعدو أن تكون قصة .

وعلى ذلك فلنمر على حديثها مرّا سريعا حتى نصل إلى القصة التى تعنينا منها لنسمع لها مرة أخرى .

انطلقت صاحبتنا فى خضم الحياة .. تتقاذفها الأنواء ، وطفا بها الذكاء والجمال والحظ الحسن .. فى محيط تلك هى خير عدته وأمضى أسلحته ، وصادفها النجاح فلم تغرق ، بل ظهرت وبرزت ، وقفزت ، وأصبحت تتمتع بالكثير مما تتشوّف إليه النساء : الكثير من الشهرة .. والكثير من المال .. والكثير من قلوب الرجال .

وكان أول قلب صادفها قلب كهل ثرى .. مفرط الثراء أغدق عليها الكثير ووهبت له الكثير .. وخرجت من الفندق الكبير بعد أن احتوتها وإياه الغرفة الفخمة وهى — على حد قولها — تتحفز وتتحدى ، وتتخيل أن كل إنسان يشير إليها ليتهمها بما فعلته وتنظر هى إلى الناس متحدية ، وهى تكاد تقول أجل .. لقد فعلت هذا . ماذا تريدون منى .؟ سأفعل كل ما أريد . لقد كانت تتحدى الناس ، وتتحدى الحياة ، وتتحدى ..

هل تقول الشرف أيضا ؟ لا .. لا داعى .. هذا شيء يتوارى سريعا فى مثل هذه الظروف ، فلا نكاد نجد له أثرا .

ومرت عليها القلوب بعد ذلك ، بعد أن اختفى القلب الأول من محيط حياتها ، قلب ثان ، وثالث ، ورابع ، ولا أظن هناك ضرورة لذكر شيء عنهم أولا لأنى أريدهم فى قصص أخرى ؛ وأخيرا لأنى — كما سبق القول — لا أريد أن أكثر من الظلال والتفاصيل .

لقد مرّت عليها القلوب الواحد تلو الآخر .. قلوب محملة بالحب وبما هو أجدى وأنفع من الحب حتى كان ذات يوم ، مرّ عليها قلب صاحبنا ، وصاحب القصة .

عذار .. لقد أطلنا وقوفه بباب القصة .

كل هذه الصفحات ولم ندخله بعد .. لندعه يتفضل ، ولندعها تتحدث عنه ، حالمة النظرات ، ملء صوتها الحنين ، وملء عينيها اللهفة والشوق .

* * *

رأيته أول مرة فى خلال الحرب فى ليلة من ليالى الشتاء ضابطا إنجليزيا برتبة (ماجور) وقد جلس فى شبرد .. أمام مائدة رص عليها الساقى صحاف العشاء .

وجلست أرقبه وقد علق ذراعه — التى أحاطتها اللفائف — فى عنقه وأخذ يتناول الطعام باليد الأخرى .. حتى لم يبق أمامه سوى شريحة اللحم .. ونظر إليها فى حيرة دون أن يدرى كيف يقطعها ليأكلها ، وهو بيد واحدة لا يستطيع أن يمسك بالشوكة والسكين ، وبدت لى فى نظراته حسرة وهو يدفعها جانبا ويلقى بالشوكة من يده .

ولست أدرى مبعث هذه الشفقة ، التى أحسست بها نحوه ، ألأنه حقا كان يستحق العطف ، وهو يجلس أمامى كطير غريب مهيض الجناح .. أم تراها نوبة من نوبات الرقة التى تصيب الإنسان أحيانا فترهف حسه ، وترقق مشاعره ، وتتركه عطوفا على الناس محبا لهم يوزع الحنان ذات اليمين وذات اليسار ؟ أم تراه القدر الذى يدفعنا إلى أن نأتى بأفعال تافهة ، قد لا يخطر فعلها ببالنا ، ومع ذلك

فنحن نقدم عليها لا لشيء إلا لتغير مجرى حياتنا ؟! أم تراه الحب الخفى الكامن الذى يحس به الإنسان — كما يقولون — من أول نظرة ؟

على أية حال ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، لقد أحسست دافعا لا يقاوم .. يدفعنى إلى التقدم إليه ، فأجلس بجواره وأتناول الشوكة والسكين ، وأسأله فى خجل أن يسمح لى بأن أعاونه على تقطيع شريحة اللحم ما دام لا يستطيع تقطيعها . وبهت الرجل ، ولست أشك أنى أنا نفسى لو فكرت فيما أقدمت عليه لبهت ، بل لأحجمت قطعا عن الإقدام عليه .. وخاصة وأنى كنت أربا بنفسى أن تهون حتى تأتى بما لم تكن تقدم عليه وقتذاك سوى « أرتستات الحرب » من مجالسة الضباط الأجانب وتصيدهن .

ولكنى فعلت ما فعلته .. بلا أقل تفكير ولا روية .. ووجدت نفسى قد انتهيت من إعداد قطعة اللحم .. وأخذت أرقبه وهو يتناولها ، كما يرقب الإنسان قطا جريحا يتناول الطعام من يديه .

وانتهى من الطعام ونظر إلىّ نظرة ملؤها الحمد .. وقال لى باسما « شكرا » . ولم يكن هناك بدّ بعد ذلك من تبادل الحديث ، حديث عام عن الجو والحرب ، وبعد برهة نهضت للانصراف ، ومددت له يدى مودعة ، وتولاه الدهش لمحاولتى الانصراف دهش لا يقل عن دهشه عندما أقبلت عليه وجلست بجواره فما كان يظن أن المسألة يمكن ألا تعدو مجرد مساعدة منى لإطعامه « بلا مقابل » .. وأن عطفى عليه ليس من باب إلقاء الشراك ونصب الأحابيل ، وما كان يتصور قط أننى سأنصرف عنه بنفس الطريقة التى أقبلت عليه بها .

ورجانى أن أنتظر معه وألا أتركه سريعا ، فمن حقه علىّ أن يرد الجميل ، وأنبأنى أن مغادرتى إياه كأنه عابر سبيل ستؤلمه كثيرا .. وأن أقل ما يمكن فعله هو أن أتيح له فرصة لقاء أخرى ، وألا أذهب عنه هكذا بلا أمل فى صداقة ، أو وعد بلقاء .

وقلت له إننى لست من النوع الذى قد يخطر بباله ، وإن محاولتى إطعامه لم تكن سوى دفعة عطف .. وإن من العبث أن ننشئ بيننا أية رابطة . وإن من الخير له ألا يأمل فى شىء أكثر من هذا اللقاء العابر .

وهكذا حاولت جهدى أن أصدّه ، وأوقف كل ما بيننا عند هذا الحد ، ولكنه ألحّ .. وألحّ .. ورفض أن يتركنى أنصرف دون أن أعطيه رقم تليفونى ، وأعطيته الرقم .

وقد يخطر ببالك .: بعدما قلت عن محاولتى صده ، أنى أعطيته رقما غير صحيح ، ما دمت حقا لا أريد أن أنشئ بينى وبينه أية علاقة .. ولكنى مع ذلك أعطيته الرقم الحقيقى لأننى رغم كل ما قلت .. كنت أحس بدافع يدفعنى إلى أن ألقاه مرة أخرى . وكنت أكره أن يختفى عن عينى فلا أراه بعد ذلك .. أهو الحب ؟.. أم القدر ؟.. أم الشيطان ؟.. أم ثلاثتهما معا ؟.. من يدرى !

والتقينا بعد ذاك مرة ثانية .. وثالثة .. ورابعة .. وأحسست أنى أندفع بجنون إلى هاوية حب عجيب ، حب إباحى منطلق من كل قيد.لقد أحب كل منا الآخر حبا جنونيا خاطفا . وكنت حرّة ، وكان حرًّا ، فانطلقنا نعب من كل المتع ، لا يقف فى سبيلنا عقبة تقاليد ، أو خشية عواقب .

كنت أشعر لأول مرة أنى محبة محبوبة ، وأنى أستطيع أن أتمتع بحبى على ملأ من الناس فى وضح النهار ، وأنى أعيش لساعتى ولحاضرى ، لا أعبأ بماض ولا مستقبل . أجنى ثمار اليوم مغمضة عينى عن مرارة الأمس وأشواك الغد .

أية سعادة يمكن أن يحسها الإنسان أكثر من هذه ؟ سعادة المحب المحبوب الذى يرتع فى حبه بلا خوف ولا خشية .

ومرّت الأيام بنا .. وبدأ يضع خططه كأننا زوجان ، وكأننا لن نفترق فى يوم ما ، وإذا ما افترقنا ففراق مؤقت إلى اللقاء مصيره ومنتهاه .. حتى كانت ذات ليلة جلسنا وأحد أصدقائه للعشاء .

وسأله الصديق بطريقة عابرة عن زوجته وأولاده .. وعن آخر أنبائهم ..

وسرى السؤال الذى ألقاه الصديق ببساطة مسرى الكهرباء . فتملكه الاضطراب.. وتملكتنى الرجفة .

وساد السكون برهة ، سكون ما قبل العاصفة ، وأجاب هو عن السؤال باختصار ، وانتهى العشاء .. وانصرف الصديق ، وهبت العاصفة . هبت العاصفة من ناحيتى فما كانت لدىّ أقل فكرة عن زوجته وأولاده ، وتلقى هو الزوبعة بهدوء .. وأقسم لى أنه وزوجته فى شبه فرقة . وأنه ينتظر أول أوبة إلى الوطن حتى يطلقها .

ومرّت العاصفة بسلام ، وليس أسهل على المحبين من تهدئة العواصف والزوابع ، فما وجد الحب إلا وجد السلام ، وهكذا استمررنا ننهل من المتع وننهب من اللذات ، حتى كان يوم حلت الفرقة ، فقد كان عليه أن يغادر مصر إلى أحد ميادين القتال .

وبكينا كثيرا ، هو الرجل الذى أشابت فوديه المعارك ، وأنا المرأة المحنكة المجرّبة ، وقف بعضنا يودع بعضا ونبكى كطفلين غريرين .. لقد حلّ بنا الغد المرير .. الذى كنا نظن أنه لن يولد .

ومن مساوئ الحياة ، أنها بقدر ما تعطيك من المتع. تعطيك الآلام ، وبقدر ما ترفعك إلى قمم السعادة والأمل ، بقدر ما تهوى بك إلى قرارة اليأس والمرارة والشقاء ، فكأنى بها تندم على ما وهبت فتسترده منا مضاعفا .

لقد أحسست بعد الفرقة برد فعل شديد ، وفراغ كبير ، وظلمة حالكة ، أشبه بالظلمة التى يحسها الإنسان بعد طول حملقة فى ضوء خاطف .

وبدأنا نتبادل الرسائل ، فحملت لى رسائله الكثير من العزاء والطمأنينة ، وكان يكتب إلى كأننى زوجته . وظلت الرسائل تترى علىّ الرسالة تلو الرسالة ، ملء طياتها الأشواق والحنين والآمال العذبة .. حتى كان ذات يوم وصلتنى إحداها ، فإذا بها تحمل لى نبأ موته .

أجل !.. لقد كنت أول من أبلغ نبأ وفاته ، باعتبار أنى زوجته .

ولم أصدق عينى فى بادئ الأمر ، أيمكن أن تضع هذه الكلمات القلائل ، نهاية لكل ما كان بيننا ؟. أيمكن أن توضح الخاتمة المروعة ، فى بضعة كلمات فى رسالة مقتضبة لا تزيد على سطر أو سطرين ؟ أوَ ينهى كل هذا الحب والأمل بمثل هذه السهولة ، ويصبح كل شىء فى لحظة واحدة لا شىء ؟

* * *

وصمتت محدثتى ، ولمحت فى عينيها عبرات تترقرق ، ورأيتها تضغط بأسنانها على شفتيها ، وأطرقت برأسها ، وبدا لى أنها تبذل جهدا كبيرا لتتمالك قواها ولتعاود حديثها ، فتهمس قائلة :

إن من العبث أن أحاول أن أصف لك مشاعرى وقتذاك ، فأنت أدرى بها فلا شك أنك أحببت ، ولا شك أنك تستطيع أن تتصور كيف يكون حبيبك ملء ناظرك ، ومنتهى أملك ، فى لحظة من اللحظات ، وفى اللحظات التالية يصبح كأنه ما كان ، يصبح لا شىء .

عندما يحاول أن ينتزع منك شيئا تملكه ، فإن جهادك فى محاولة الاحتفاظ به قد يعزيك بعض الشىء عن فقده . ولكنك عندما تتلفت فجأة فتجد أعز شىء لديك قد تسرّب من بين يديك بلا سبب ولا مناسبة ، وبلا أى أمل فى استرجاعه ، فإن ذلك أمر يبعث على الجنون . وهكذا أحسست أنى أوشك أن أجن من فرط التفكير وفرط الحزن . ووجدت أن القدر قد أمعن فى السخرية منى ، وأنه قد استرد منى أكثر مما أعطى مئات المرات ، وأنه غبننى غبنا فظيعا .. إن الجرح الذى خلفه موته فى قلبى لا يبرأ ولا يندمل .. إنى أبصر صورته فى كل ما أرى .. وأسمع صوته وهمساته تطن فى أذنى كلما خلوت بنفسى .

كل قطعة من هذا الأثاث تذكرنى به ، وما سرت فى الطريق إلا خِلت ذراعه فى ذراعى ، يتأبط أحدنا كما تعوّدت أن أسير معه .

إن الأيام لم تحمل لى فى مّرها النسيان .. إنى أعيش على الذكرى وألتمس فيها

العزاء فما خفت لهفتى عليه وحنينى إليه . بل إن الحنين ليشتد بى فى وحدتى ، فلا يكاد يطرق الباب حتى أتوهمه الطارق ، وأندفع إليه لأرتمى بين أحضانه .

إنى أتعلق بالأوهام الضائعة الزائلة .. وأعلل نفسى بآمال سرابية كاذبة ، وأقول لها : من يدري .. قد يعود إلىّ مرة أخرى .

أجل يا سيدى . إنى أعلل النفس ، بعودة الميت . تلك هى الذبالة الخابية ، التى تبعث فى حياتى بصيصا من ضوء .

* * *

وصمتت محدثتى مرة أخرى . يا لها من امرأة عجيبة .. تحيا على أمل عجيب . « من يدرى ؟ قد يعود إلىّ » ..

يا له من أمل ضائع ، ووهم كاذب .. إن الموت إذا أخذ لا يعطى ما أخذ .. إن الموتى لا يعودون قط .

* * *

ومع ذلك .. فقد عاد الميت ، وأضحى الوهم الكاذب حقيقة واقعة . لقد غادرت محدثتى فى ذلك المساء بعد أن قصت علىّ قصتها ، وتركتها كما تقول : تحيا على الذكرى ، وعلى موات الأمل وعلى البصيص الخابى .

ولم نلتق بعد ذاك إلا فى فترات قصيرة متقطعة ، لم يتعد الحديث بيننا خلالها السؤال عن الصحة ، وعن الأحوال .. حتى كان ذات يوم زرتها فى دارها وانتهينا من التسليمات والتحيات ، ثم ساد الصمت لحظة ، ووجدتها تقطعه بقولها ببساطة .. لقد كتب إلىّ .

وهززت رأسى مستفهما .. من ؟

— هو .

— لا أفهم من تقصدين ؟

وبلهجة هادئة نطقت باسمه .

وساد السكوت ، ونظرت إليها مشدوها مأخوذا ، لقد دهشت طبعا من عودة الميت إلى الحياة وكتابته لها . ولكن الذى أدهشنى أكثر هو تلك البساطة وذلك الهدوء الذى أسرت بهما الخبر إلىّ .

ووجدتها تقول فى صوت خافت :

ـــ إن عودته لا شك تبعث على الدهش .

ـــ ليست عودته فقط هى التى تبعث على الدهش .

ورفعت حاجبيها وهزت رأسها متسائلة ..

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى أن الشيء الذى يدهش أكثر من عودته ، هو وقع عودته عليك .

ووجدتها تغرق فى صمت عميق ، وبدا عليها شرود الذهن . وبعد لحظة هزت رأسها فى حيرة وقالت كأنما تحدث نفسها :

ـــ لقد قرأت خطابه ، وأنا لا أصدق عينى ، وأمسكت به أعيد قراءته المرة بعد المرة ، وقد تملكنى شعور خليط من كل شيء إلا شيئا واحدا ، هو الفرح. أجل لقد تملكنى شعور بالدهش والحيرة والحزن ، هل تصدق إذا ما قلت لك إننى أحسست أنى فقدت عزيزا لدىّ .. فقدت الميت الذى كنت أنتظر عودته .. فقدت الأحلام الغامضة ، والانتظار المبهم .. فقدت لذة الحزن . لقد أحسست أن حشد الذكريات الذى كنت أعيش عليها لم تعد لها قيمة ولا فائدة .

ووجدتنى أفكر ، ماذا أكتب له ! ماذا أكتب للحى الذى أباد الميت الذى كنت أعيش على ذكراه !

ماذا يمكن أن أفعل وإياه ، بعد أن استقرت بى الحياة فى جوار رجل آخر ، قد لا يهبنى الحب ولكنه يهبنى الاستقرار ؟

ثم أين كان هو طوال تلك المدة التى كنت أبكيه فيها وأعذب نفسى من

أجله .. ولِمَ لم يذكرنى قبل اليوم ؟

إنه يقول : إنه سيوضح لى ما حدث .

ولكن ماذا يمكن أن يكون قد حدث ، لقد مضت سنون على نهاية الحرب ، فلمَ لم يكتب إلى قبل هذا ؟

ماذا أريد منه الآن ؟ ماذا أريد منه وقد بدد أوهاما خلقتها لنفسى من ذكريات غابرة ، وأضفيت عليها جوا من الوفاء للميت الراحل .. والإخلاص للحبيب المفقود ؟

لقد بدت لى عودته أشبه بضحكة ماجنة ساخرة .. تنبعث فى مشهد مؤثر حزين .. فتضيع رهبته ، وتذهب رونقه ، وتمسخ تأثيره .

لقد عودت نفسى دور الحزينة الولهى الحالمة الشاردة ، الأمينة على العهد .. الباقية على الود .. المتعلقة بالذكرى .. المتعللة بالأوهام .

لقد تعودت الدور حتى أجدته ، وحتى أضحيت أحس منه بلذة ممتعة . كيف يعود بعد هذا .. فيهدم قصور الأوهام ، ويسلبنى متعة العيش فيها ؟ لقد فقدته مرتين : مرة عندما مات ، ومرة عندما عاد إلى الحياة .

لقد مات فخلف لى الذكرى والأحلام ، فلما بعث أضاع الذكرى وبدد الأحلام .

ولم أشعر إلا وأصابعى تطبق على الرسالة وتمزقها إربا . وأحسست أن كل شيء قد انتهى .. بينى وبين الاثنين : الميت والحى .

* * *

ونظرت إلى المرأة ولم أستطع أن أكتم ضحكة انطلقت من فمى ، وقلت لها :

ــ الحمد لله .

وهزت رأسها متسائلة :

ــ علام ؟

ــــ الحمد لله الذى جعل الموتى لا يبعثون .. ماذا يمكن أن يحدث لو أن موتانا قد عادوا فأفسدوا علينا حياتنا التى نظمناها على أساس موتهم ، وحرمونا حزننا عليهم ، وزيارتنا لمقابرهم ، واستعادوا الإرث ممن ورث ، واسترجعوا التركات من أصحاب التركات .

الحمد لله الذى جعل الموتى لا يبعثون لمجرد دعوات من الأحياء المنافقين .

حائـــرة

قد يخيل إليك أنها تعبث بنا ، وأنها كانت تتسلى بكل منا ؛ ولكنها لم تكن من هذا النوع .. أجل إنها ما كانت عابثة ولا طائشة ، بل كانت حائرة .. ذات قلب يتأرجح لا يقر له قرار .

أخرجنى الضجر ذات ليلة هاربا من ضجيج المدينة وضوضائها إلى مقهى منعزل قد لفه الفضاء الفسيح وسترته الطبيعة بحجاب من خضرة الروض ونضرة الزهر ، وكانت الليلة ليلة صيف .. والقمر الساحر توسط كبد السماء وغمر المكان بضوئه الفضى ، وقد ساد السكون إلا من حفيف أوراق تعبث بها نسمات كأنها الخفقات .. نسمات صيف قد رقت حتى حسبتها تجىء بأنفاس الأحبة نعما .

ليالى الصيف .. حياك الحيا .. ما فتن القلب مثل نسماتك وهمساتك ، وما أطرب الفؤاد كنغماتك ، ونفحاتك . أنت زمن الحب وموسم الهوى .. ما تنفس الحب إلا فى هوائك .. وما نبت غرسه إلا فى ثراك .. نجومك تشع بضوء الحب ، ورياضك تزخر بالعشاق كأنها معا كف الحب .. وكل ما فيك يبعث على الهوى ويوحى بالحب . كان المكان قد خلا إلا منى ومنه وقد أبصرت شبحه فى ضوء القمر ، وقد رفع إلى شفتيه قدحا من الجعّة يحتسيها ببطء .. وتبادلنا التحية وبضع كلمات تافهة ثم ساد السكون ، وبعد هنيهة اقترب منى بمقعده ، فاستطعت أن أتأمل وجهه بوضوح عن ذى قبل فرأيته رجلا وسيما.. نبيل التقاطيع .. وإن كنت لم أستطع أن أحدد عمره بالضبط .. ولا حتى

بالتقريب .. فقد كان من ذلك النوع الذى قد يخطئ الإنسان فى تقدير عمره عشر سنوات أو عشرين سنة .. ربما كان كهلا .. ولكنه يفيض بالحيوية ويمتلئ بالشباب .

وتجاذبنا الحديث .. وفى مثل هذه الليلة .. وفى مثل هذا المكان .. لا أظن حديث اثنين يمكن أن يخرج عن دائرة الحب . فليالى الصيف ، كما قلت ، مواسم الحب ، وإذا لم يكن الإنسان فيها عاشقا . فلا أقل من أن يكون متحدثا عن الحب .

قال الرجل وهو يهز رأسه ببطء .. لقد أدبر زمن الحب فما أظن هناك نساء يمكن أن يثرن فى النفوس الحب .. الحب بمعناه الحقيقى .. لا اللهو والعبث الذى يظنونه حبا .. لقد كانت وحدها هى التى تستطيع أن تثير الحب .. وقد أحبها كل منا حبا عميقا .

— كلا كما ؟

— أجل ! أنا وأخى .. لقد كنت أكبره بعام ، ولكننا كنا كتوأمين .. وكان كلانا يحب الآخر كما يحب نفسه .. فما افترقنا منذ مولدنا لحظة واحدة .. وكان كل منا يشارك الآخر فى كل شىء .. حتى عندما أحببنا .. أحببنا فتاة واحدة .

دعنى أولا أصف لك الدار التى كنا نقيم فيها وقتذاك .. والتى كانت موطن حبنا .. ومرتع صبانا .. إننى لأتخيلها أمام ناظرى ، وقد ظللت مدخلها شجرة التوت الوارفة الظلال ، وامتدت ساحتها الفسيحة التى كانت تفصل بين جناحى الدار وتجعل كلا منهما دارا قائمة بذاتها .. كم عدونا فى الساحة ولهونا .. كم طربنا وضحكنا .. كم جعلنا من حجرات « البدروم » مخابئ كنوز .. ومن الساحة ميادين قتال .. ومن الأشجار معاقل وحصونا .. لقد كان القلب إذا ذاك خاليا .. وكان الفؤاد حرا طليقا .

كان القلب خاليا حتى بدأنا ندخل مرحلة الشباب ، وحتى أنبأتنا والدتنا ذات يوم .. وقد جلسنا فى الشرفة المطلة على الساحة بأن « عائدة » قد عادت ،

ونظرنا إليها وهز كل منا رأسه مستفهما « عائدة .. من ؟ » .. فما كنا نذكر من تكون « عائدة » وذكرتنا أمنا بجيران كانوا يسكنون الجناح المقابل لنا ثم سافروا منذ بضع سنين ، وأردفت تقول متسائلة : لقد عادوا لسكنى الدار مرة ثانية كيف لا تذكرون ابنتهم « عائدة » ؟

والواقع يا سيدى أننا كنا قد نسيناها فعلا .. رغم أننا — بعد فترة من الوقت عندما أصبحنا لا نكاد نفكر إلا فيها أو نتحدث إلا عنها — كنا نقسم أنها ما غادرت رأسينا طوال تلك السنين وما نسيناها لحظة واحدة .. كذب فى كذب ! فإن أقصى ما كنا نحمله لها فى رؤوسنا عندما أنبأتنا أمنا أنها قد عادت .. هى صورة باهتة لصبية ناحلة شاحبة ترقبنا من شرفة دارها فى صمت وسكون .. لا نكاد نذكر شيئا من تفاصيل وجهها .. فقد كانت دائما متنائية متباعدة .

ورأيناها أول مرة بعد عودتها عند زيارتها لنا هى وأبويها .. وأذكر أننا أخذنا من مرآها وقتذاك .. فقد كانت شيئا آخر غير ما توقعنا أن نراه .. شيئا يختلف تمام الاختلاف عن تلك الصبية الناحلة الشاحبة التى كانت تقف فى الشرفة كالطائر الهزيل .. لقد كانت تبدو كأنها أميرة من هؤلاء الأميرات اللاتى نبصر صورهن فى اللوحات الزيتية القديمة .. بشعرها الذهبى المتهدل على كتفيها ، وقد زين مفرقة بوردة بيضاء قطفتها من الحديقة .. وعينيها الزرقاوين الصافيتين . وأنفها الدقيق . وشفتيها القرمزيتين تفتران بين آونة وأخرى عن صفين من اللآلئ ..

وعندما مسست يدها مصافحا ، سرت فى جسدى هزة ! وخيل إلىّ أنها قد ضغطت على يدى ضغطة خفيفة ، ولمحت فى عينيها بريقا وشاعت فى أساريرها ابتسامة حلوة .. وبدا عليها كأنها تصافح صديقا قديما سرها لقاؤه مرة ثانية ، وأقبل أخى يحييها وأحسست بقلبى يدق بشىء من العنف ، فقد بدا فى عينيها نفس البريق .. وشاعت فى قسماتها نفس الابتسامة .. وانتابنى شعور

بالضيق .. لست أدرى ما كان مبعثه .. أهو الخوف من شيء مجهول .. أم هى الغيرة من أخى الذى كنت أعتبره كنفسى ؟ لقد التقت أعيننا وقتذاك ، فخيل إلى أننى أبصر فى عينه ذلك الشيء الذى كنت أحس به .. وبدا لى كأن سحابة قاتمة قد قامت بيننا .

وصمت الرجل برهة ليعيد ملء قدحه من زجاجة الجعّة .. أو ليعيد ملء ذهنه من ذكريات غابرة نائية .. وليستعيد إلى نفسه صورة الفتاة الذهبية الشعر بوردة بيضاء فى مفرقها .. وقد وقف أمامها هو وأخوه .. فتيان فى زهرة العمر وميعة الصبا .. تفيض نفساهما بالأمل العذب والحلم الجميل .. ويتطلعان بأبصارهما إلى أفق بدت فيه شمس الحب ، وضاءة مشرقة .. وبنفسيهما قلق مبهم وجزع خفى .. من أن يمر الوقت بالشمس المشرقة فتضحى مضنية محرقة .

ورشف الرجل من قدحه رشفة طويلة .. ثم عاود الحديث قائلا :

ـــ لا أظن من السهل علىّ أن أستعيد تفاصيل الحوادث فى الأيام التى تلت ذلك .. فقد اندفع كلانا فى الحب كما يندفع جواد جامح أطلق له العنان .. أو كما تتدفق مياه نهر يهبط من فوق شلالات عالية .. حتى لقد كان اليوم الذى يمر بنا دون أن نبصرها نحس فيه أننا أصبنا بكارثة أو فاجعة .. ولكن أين ذلك اليوم الذى كنا لا نبصرها فيه .. ونحن اللذان قد حفظنا عاداتها وحركاتها وسكناتها .. عن ظهر قلب .. حتى لنستطيع أن نعرف فى أية لحظة من لحظات اليوم ماذا تفعل ، بل إننا ـــ من فرط ما كانت تشغل رأسينا ـــ لنستطيع أن نتنبأ ما تنوى فعله فى الغد .

وتغيرت عادتنا طبقا لعاداتها .. فقد كرهنا الخروج من الدار وأحببنا الجلوس مع أمنا ، وهى التى كانت لا تكاد تبصر وجهينا إلا فى أوقات الطعام .. فقد كانت أمى تحب الفتاة لأنها لم تنجب بنات ، وكانت تعتبرها كابنتها .. فكانت الفتاة تقضى معظم اليوم فى دارنا .

إنى لأبصرها أمام عينى وقد جلست فى الشرفة أمام أمى وانهمكت أصابعها

فى عمل « التريكو » ، وأخذت أشاكسها أنا وأخى بخطف « التريكو » من يدها أو بنزع إحدى الإبر .. وهى تنهرنا غاضبة .

وصمت الرجل مرة ثانية ، ورأيته قد سبح ببصره فى الظلمة المترامية ، ثم عاد يسألنى :

ـــ أظنك تتساءل .. كيف استطعنا أن نسير فى حبها سويا جنبا إلى جنب .. دون أن ينشب بيننا نزاع أو نضال ؟ وأظنك تتساءل كيف كنا نتحدث عنها عندما نخلو إلى بعضنا ؟ حسنا .. لقد حاول كل منا فى مبدأ الأمر أن يدعى أن الفتاة ليس لها فى نفسه موقع غير عادى .. حتى كانت ذات ليلة ، أصبح الأمر لا يحتمل ادعاء ولا كتمانا . كنا جلوسا فى الشرفة .. وقد لفنا جو شاعرى عجيب .. صاغه سكون الليل ، ونور القمر ، وهمس النسيم وأضفت عليه نفوسنا العاشقة الحالمة روعة وسحرا . وسألناها أن تغنى .. فقد كانت تجيد الغناء .

وترددت برهة .. ثم بدأت تشدو بصوتها العذب الحنون « وحقك أنت المنى والطلب » . لن أحاول أن أصف لك مشاعرى فى تلك اللحظات .. فأنا أدرك أن كل محاولة منى فى ذلك ستكون عبثا فى عبث ، لأنك إما أن تكون قد جربت الحب ، ومرت بك تلك اللحظات أو لحظات مشابهة .. فتستطيع أن تفهم تلك المشاعر دون أن أصفها لك . وإما أن تكون امرأ قد أقفر من الحب قلبه ، فلن تستطيع أن تفهمها مهما حاولت وصفها لك .

وتركنا الفتاة فى تلك الليلة .. وفى قلبينا جمرة تتأجج .. ولم نذهب إلى الفراش .. فقد كان من العبث أن نحاول النوم بتلك الأعصاب الثائرة .. والنفوس المرهفة .. وأخيرا قلت له فى صوت خافت !

ـــ دعنا نتكلم لنواجه الحقائق فهذا خير لنا .. إنى أحبها وكذلك أنت .. لقد دفعتنا الظروف الخرقاء إلى أن نعشق فتاة واحدة .. لقد وقع الأمر .. ولم يعد لنا فيه حيلة .. ولكن لا بد لنا أن نستقر على حال .. لا بد أن يفسح أحدنا الميدان

للآخر .

وفى تلك الليلة اتفقنا على أن نسألها فى الغد — كل على حدة — أن تختار أحدنا زوجا لها حتى لا نظل هكذا نترجح بين اليأس والرجاء .

ولما كنت الأكبر سنا فقد كان علىّ أن أكون البادئ بالسؤال ومكثت طول اليوم أتحين الفرصة .. حتى استطعت أن أخلو بها أخيرا . وخرجنا نجول فى الحديقة وقد تملكنى اضطراب شديد . وكنت أكاد لا أتمالك نفسى وأحسست برأسى يعصف بما فيه .. ولسانى يعقده الحياء .. فلا أنبس ببنت شفة .. وأنا الذى قد حفظت ما سوف أقوله عن ظهر قلب .. ولكنه تبخر من رأسى فلم أعد أذكر منه كلمة .. وأخيرا منّ الله علىّ فقلت لها إننى أحبها . ولم يبد عليها أن قولى قد فاجأها .. بل شرد بها الذهن وبدت مستغرقة فى تفكير عميق .. وطال بها الصمت دون أن تقول شيئا حتى لم أعد أحتمل .. فأمسكت بيدها وقلت منفعلا .. تكلمى .. قولى إنك تحبيننى كما أحبك .. كفى عن هذا الصمت فإنه يقتلنى .

وأخيرا نظرت إلىّ فلمحت فى عينيها دمعة تترقرق وسمعتها تقول بصوت حبيس .. إننى أحبك .. ولكننى لست واثقة .. دعنى أفكر .

وأفلتت يدها من يدى وانطلقت هاربة . وأنبأت أخى بما حدث .. وأنا أحس بشىء من الألم .. وطلبت منه أن يسألها بدوره حتى نرى ما ستقول .

وسألها أخى .. فأجابته يا سيدى تماما كما أجابتنى !.

قد يخيل إليك أنها كانت تعبث بنا .. وأنها كانت تتسلى بكلينا ولكنها لم تكن من هذا النوع .. أجل إنها ما كانت عابثة طائشة .. بل كانت حائرة .. ذات قلب يترجح لا يقر له قرار .

ومرت الأيام .. والشك يعصف بنفسينا .. دون أن نعرف أينا الرابح ..

وأينا الخاسر .. استقر الرأى بيننا أخيرا على أن نضع نهاية للأمر .. فقد كنا نشقى ونتعذب .. وكنا نرى أن اليأس قد يكون خيرا بكثير من هذا الشك المرير .. وصممنا على أن نطلب منها أن تحسم الأمر وتقول كلمتها .

ولقيتها على حدة وأنبأتها بما عزمنا عليه .. فعلا وجهها الحزن وأجابت هامسة .. لم تصران على إيلامى .. ألا نستطيع أن نبقى كلنا سعداء سويا ؟

ــ لا فائدة من ذلك .. لا بد أن تختارى أحدنا .

وبدأت أشرح لها ما اتفقنا عليه ، وكانت عائلتها ستتناول العشاء عندنا فى الليلة التالية .. فكان عليها قبل الحضور إلينا أن تقف فى شرفتها وتقذف وردتين .. وردة بيضاء للذى وقع عليه اختيارها .. وأخرى حمراء للذى كان عليه أن يخلى الطريق ويذهب فى سبيله .

وقد تقول لى يا سيدى إن هذه طريقة عجيبة أو خيالية بعض الشىء ، ولكن تذكر أننا كنا عشاقا ، وأننا كنا فى ميعة الصبا ، والصبا والحب لا يريان فى أى شىء عجبا ولا غرابة .

وفى الليلة التالية .. قبيل الموعد .. كنت وأخى نجلس فى حجرتنا وقد شملنا صمت عميق .. لقد كان كل منا يكاد يثق بأنه هو الذى سيقع عليه الاختيار .. وكان كل منا يحس بالرثاء للآخر ، وأخيرا رفعت رأسى متسائلا .. من منا سيذهب قبل الآخر ؟.

ــ كما تشاء .. لنقترع .

ولما كنت واثقا من نفسى فلم يكن يهمنى أن أذهب أولا أو آخرا .. واقترعنا فكان عليه أن يذهب هو أولا .. ووقفت أرقبه وقد ملأنى الخوف والرهبة .. وبعد أن انتظرت برهة خرجت أنا ، وكانت الساحة شديدة الظلمة أكثر مما أتوقع .. ووقفت تحت الشرفة ، ولمحت شبحها وقد اتكأ على حافتها .. ثم

مددت يدى أتلقف الوردة التى قذفت بها . وأحسست بقلبى يكاد يقفز من صدرى عندما أبصرت لونها .. ورفعتها إلى فمى ولوحت بيدى محييا ثم عدت إلى الدار .

أه يا سيدى لو عرفت تلك السعادة التى كانت تفيض بنفسى وقتذاك .. تلك السعادة التى تملؤنا عندما نعلم أننا قد سمعنا لنداء قلبنا جوابا .. وعندما نعلم أن نصف أنفسنا قد أحس هو الآخر أننا نصف نفسه .

ومرّ العشاء كأنه حلم ، وكنت أبصرها وقد جلست بيننا وقد شع من عينيها سحر عجيب ، وأخذنا نحن الثلاثة نتحدث كأننا إخوة ، ولمحت أخى وقد أخذ يعبث بيده فى الوردة الحمراء ، وأحسست له بلوعة ، وتملكنى عليه أسى وحزن .. لقد فقد المعركة .

وانتهينا من العشاء ، وعندما جمعتنا الشرفة بعد ذلك .. تبينت غياب أخى وغيابها فتسللت من الجمع . وذهبت لأبحث عنهما فلم أجدهما فى الدار ، ونزلت إلى الحديقة ، وتقدمت فى سكون ، ولم أبصر أحدا فى بادئ الأمر .. فقد حجبت السحب نور القمر ، ولكن بعد لحظة انقشعت السحب وظهر القمر ليرينى إياهما على قيد خطوات ، وكانت بين ذراعيه ، وحمل إلىّ النسيم همساتها تقول له .. لقد كانت البيضاء لك .. فقد ظننته سيأتى أولا .

وانطلقت من الرجل زفرة حارة ، ثم ساد صمت عميق قطعته بقولى :

ـــ وماذا حدث بعد ذلك ؟.

ـــ لا شىء ، حدث ما يمكن أن يحدث لكل إنسان يصاب بنفس الصدمة ، أو على الأصح لكل إنسان يعلو به القدر إلى ذرى السعادة ويسرى به فى سماء النعيم ، ثم يتركه فجأة فيهوى من حالق ويندفع إلى هاوية سحيقة من اليأس المميت .

لو أننى لم أوهب تلك اللحظات الخاطفة من الأمل البراق ، ولو أننى استمررت على ما كنت فيه من شك وحيرة ، ثم حدث ما حدث ، لاستطعت أن أحتمل .. أما أن يلوح لى بالأمنية العزيزة ، فأذوق حلاوة الفوز لحظة ، ثم أجرع فى اللحظة التالية مرارة الهزيمة ، فذلك كان أكثر مما أحتمل . أجل لقد كان كثيرا علىّ أن أنتقل فجأة من يقين بحبها لى إلى يقين بحبها له ، لقد كانت صدمة ما أظن أنى تلقيت فى حياتى أكثر منها عنفا ولا أشد أثرا .

إنى لم أحتمل البقاء فى الدار لحظة .. فذهبت أهيم على وجهى ، وصممت على الرحيل بلا عودة ، فما كنت أظن أننى أحتمل العودة بعدما تلقيت من مرارة الخيبة وألم الخذلان ، ولم أكن أتصور كيف يمكن أن ألقاها .. وكيف يمكن أن ألقاه ، وعزّت علىّ نفسى أن أجعلها موضع عطف أو محل رثاء ، وصممت على أن أكبت الحزن فى صدرى وأكتم اللوعة بين جوانحى ، وأن أحمل عبء الهزيمة.. وأرحل بعيدا حتى يمنحنى الزمن السلوى ويهب لى النسيان .

ولم يكن ذلك على الزمن بعسير ، فما أظن هناك أقدر منه على منح السلوى والنسيان .. مرت بى الأيام وأنا ممعن فى البعد والشرود .. حتى بدأ أثر الصدمة يزول ، وأحسست بمبلغ ما فى قرارى من حمق وجبن ، وتمنيت لو كنت أكثر احتمالا فاستطعت أن أبقى وأتجلد .

وأخيرا عدت إلى الدار وقد أحسست أنى شفيت مما بى وأن جرحى قد اندمل .. وصممت على أن ألقاها بصدر رحب ونفس راضية وأن أسوق لهما أطيب الأمانى ، وأجمل الرغبات ، وأن أبارك حبهما وأقتل كل ما يمكن أن يستيقظ فى صدرى من حب وحنين ..

وعدت إلى الدار محملا بكل هذه النوايا ، ولكننى لم أجد قط ما يدعوا إلى إظهارها لسبب بسيط هو أننى وجدت أخى وحده حزينا محسورا .. أما هى فقد

هجرته .. وهجرت الدار .. ورحلت هى وذويها ..

ماذا حدث ؟ كيف هجرته ، ولم أعرضت عنه من يدرى ؟ قد تكون ندمت على قرارها معه ، وأنها أحست أنها جرحتنى جرحا بالغا ، ولم ترغب فى إيلامى أكثر من ذلك ، فصممت على هجره .

أو قد تكون لم تخطئ فى الوردة، وأنها قصدتنى فعلا بالوردة البيضاء، وأن قولها فى الحديقة لم يكن إلا على سبيل العزاء عندما أحست بفرط لوعته ومرارة خيبته!

من يستطيع أن يجزم ؟.. لا أحد .. حتى .. هى نفسها .. لا أظنها إلا ما زالت حائرة حتى يومنا هذا .

رسالة راحلة

إنى راحلة من أجلك .. إنى أحبك ، وبودى لو تسللت ورقدت إلى جوارك ، وقضيت عمرى بين ذراعيك ، ولكنى لا أستطيع ، لأنى أعلم أن هذا ليس مكانى ، بل مكان امرأة أخرى .

تقلب الرجل على فراشه برهة وفتح عينيه فأبصر أشعة الشمس تتخلل النافذة ، وأحس بيده تلمس مظروفا من الورق قد وضع تحت الوسادة ، فأخرجه فى شيء من الدهش ، وأخذ يقلبه بين يديه فوجد اسمه مكتوبا عليه ، ولم يجد عليه طابع بريد ، وسرعان ما فضه وأخذ فى قراءة ما به .

عزيزى :

أية سخرية هذه التى تجعلنى أكتب إليك وأنا منك على قيد خطوات ؟ أنا أفهم أن يكتب الإنسان لصاحبه الغائب النائى ، ليقرب بكتابته نأيه ، ويرد غيبته ، وليستعين بالكلمات على إطفاء حرقته وإرواء غلته .

أما أن يكتب إنسان لآخر ، وهو يراه رأى العين ، فذلك والله أمر عجيب ، أو قل إنها إحدى السخريات .

إنى أكتب إليك كأن بيننا مئات الأميال ؟

مع أنى لو تقدمت بضع خطوات لألقيت بنفسى إلى جوارك على الفراش وضممتك إلىّ .

ولكن ما الفائدة ؟.. ما فائدة أن يلهى المرء نفسه بمتعة سرابية وأمل خلب زائل ؟ وأن يطمع فى شيء ليس له ، أو يعلق نفسه بمتاع غيره ؟

إن من العبث أن نحاول مقاومة القدر ، أو مغافلة الزمن أو محاولة اختلاس متعة قد أباها علينا .

إنى أكتب هذا لأنبئك ، قبل كل شىء ، أننى أحبك ، ولا أظن أنى بقولى هذا أنبئك بما لا تعلم ، فليس على الإنسان لكى يفصح عن حبه أن يقول : « إنى أحبك » — فالحب — كما قيل — تفضحه عيونه ، بل إن حركاته وخلجات نفسه لتنبئ بذلك عنه .

إنى ذاهبة عنك بلا رجعة ، لأنى أحبك ، ولا أريد أن أجعل من حبى ما ينغص عليك راحتك ، ومن نفسى حشائش طفيلية تفسد عليك زهرة حياتك .

لم أحببتك ؟.. وكيف ؟

أما لم أحببتك ؟.

فذلك أمر من السهل الإجابة عنه : أحببتك ، لأنك مخلوق لا يمكن إلا أن تحب .. أما كيف ؟ فذلك والله سؤال لا أدرى كيف أجيب عليه حتى الآن .. فلقد تسلل حبك إلى قلبى تسلل النوم إلى الجفون ، فهل يعرف الذى نام كيف تسلل النوم إلى مقلتيه ؟

إنى لأذكر كيف رأيتك أول مرة فى أوائل الصيف ، وقد طرقت بابنا تسأل عن « بنسيون » تنزل فيه . وكنت أعلم أن عمتى قد أخبرت السمسار أن لديها حجرة تريد تأجيرها خلال الصيف . فتركتك تنتظر على الباب وذهبت أنبئ عمتى بأن رجلا يريد أن يستأجر الغرفة . ولقيتك عمتى بالترحاب وأدخلتك لمشاهدة الحجرة ، ولم تمض لحظات حتى اتفقنا على الأجر ، ونزلت بدارنا .

ومرت بضعة أيام ، وأنا لا أكاد أبصر منك إلا شبحا يتسلل من الحجرة أو إليها ، حتى إنى ما استطعت أن أتبين ملامحك وقتذاك . فقد كنت لا تحضر إلى الدار إلا ساعات قلائل للنوم .

وكنت أقوم بالعناية بحجرتك ونظافتها . فقد كنت فى الدار أشبه بخادم ، إذ نشأت يتيمة الأبوين ، فكلفتنى عمتى هذه ، ولا أظننى عالة عليها فى يوم من

الأيام ، فلقد استغلت جهدى كل الاستغلال . فمنذ طفولتى وأنا أعمل فى الدار خادما .. أقوم بالكنس والمسح وغسل الأوانى ، فلما اشتد ساعدى علمتنى الطبخ وغسل الملابس وألقت علىّ كل أعباء الدار . ولم يكن لها سوى ابن واحد ، هو ذلك الفتى الفاشل ، الخاسر ، الأحمق ، الأهوج ، الذى لم يصلح قط لأى شىء ، والذى كان يعيش عالة عليها .

ولقد صممت العمة على أن تزوجنى منه ، ولم أبد أنا رأيى . لأنى لم أتعود قط أن أبدى رأيى فى أى شىء كان ، فقد نشأت على أن أقبل كل ما أعطى .

لم أكن أحب الفتى ، ولم أكن أحب غيره لأنى لا أعرف معنى الحب !! ومتى كان لى أن أحب أو لا أحب ؟ لقد كنت أعتبر الزواج واجبا لا بد لى من تأديته ، كالكنس والمسح والطبخ والغسيل ، وأنا ما ترددت قط فى تأدية إحدى تلك الواجبات ، فكيف أتردد أو أناقش فى مسألة الزواج ؟ وكيف أقول إنى لا أريد هذا لأنى لا أحبه ، وأنا ما فعلت شيئا فى حياتى لأنى أحب فعله ، وإنما أفعله لأنه يجب فعله ، وهكذا وطنت نفسى على زواج الفتى ، حتى ظهرت أنت فى أفق حياتى ! .

قلت لك إنه مضت بضعة أيام وأنا لا أبصر منك إلا آثارك فى الحجرة : بيجامتك المعلقة على المشجب ، ملابسك المرصوصة فى الدولاب ، وأدوات الحلاقة النظيفة المرتبة ، وفرشاة الأسنان .

كانت المرة الأولى التى أتولى فيها أمر رجل غريب، فقد كان ذلك هو أول صيف تؤجر فيه عمتى إحدى حجرات الدار . وكنت أعلم من الحالة التى أجد عليها غرفتك بعد ذهابك، أنك تحاول جهدك أن ترفع عنى عبء ترتيبها وأن تبدو منظما مرتبا، فترتب الأغطية على الفراش، وتعلق ملابسك على المشجب .

وكانت تلك المحاولات منك تثير ضحكى ، لأنك رجل والرجال لا يفهمون قط فى ترتيب الحجرات أو نظافة الدور فكنت أعيد ترتيب الحجرة . ولست أدرى ما الذى جعلنى أحس عطفا عليك فأحاول أن أقدم لك فنجانا

من الشاى قبل أن تخرج ، والتقيت بك فى ذلك الصباح وأنعمت فيك البصر وفحصتك جيدا فوقعت من نفسى موقعا حسنا ، ووجدت منك إنسانا رقيقا .

ومنذ ذلك اليوم نشأ بيننا نوع صامت من الود والصداقة وبدأت أستشعر شيئا من المتعة وأنا أنظف حجرتك وأرتب الملابس ، كما كنت أنتظر مجيئك فى الليل حتى أسألك عما إذا كنت تريد حاجة أقضيها لك .

ويخيل إلىّ أنك قد بدأت أنت الآخر تحس شيئا من المتعة عند وجودك فى الدار ، وأنك لم تعد كما كنت غريبا نافرا ، فأخذت تعود إلى الدار ظهرا لتستريح ، حتى كان ذات يوم سألتنى إن كان يمكنك أن تتناول الغداء فى الدار .

ولم تمانع عمتى بالطبع ، مادمت ستدفع ثمن ما تأكل .

وبدأت أجهز لك طعامك كل يوم .

وهكذا طالت الفترات التى كنا نقضيها معا ، وزادت صلة أحدنا بالآخر ، وكنت أجد فى معاملتك الرقيقة المهذبة خير مشجع لى على أن أزيد من رعايتى لك وعنايتى بأمرك فلقد كانت معاملتك شيئا غريبا علىّ ، لأنى تعوّدت ألا أتلقى عما أفعل شكرا ولا تقديرا .

وهكذا تطور إحساسى نحوك ، ولم أعد أرى منك مجرد ساكن أو مستأجر غريب ، وقد لا أكون مبالغة إذا قلت لك إننى بدأت أحس أن عملى الأساسى وواجبى الأول ، هو خدمتك أنت وقضاء حاجاتك ، فلشد ما كان يسعدنى أن أسمع منك شكرا أو أتلقى منك بعض تلك الهدايا البسيطة التى بدأت تهديها إلىّ .

ولم لا أكون أكثر صراحة فأقول إننى بدأت أحبك ؟

وماذا يكون الحب أكثر من هذا الذى كنت أحس به نحوك ؟.

لقد بدأت أجعل نفسى مسئولة عنك وعن راحتك ، وعن طعامك ، وبدأت أنصب من نفسى محاسبا لك على تأخرك ليلا ، أو على عدم تناول الغداء فى بعض الأيام ، ولم تعد عينى تغفل حتى أطمئن على عودتك ، وكنت أصحو من النوم فجأة وأذهب إلى حجرتك لأتأكد من أنك قد أغلقت النافذة حتى لا تؤذيك

رطوبة الليل ، وهكذا أضحيت على مرّ الأيام شغلى الشاغل ، وأخذت أتصرف حيالك دون أن أدرى كما لو كنت زوجتك .

وتقبلت منى ذلك التصرف بالرضا ، وأخذت تبادلنى اهتماما باهتمام ، وعناية بعناية ، وهل أكون واهمة أو مخدوعة إذا ما قلت حبا بحب ؟

والواقع أنى أخذت المسألة بسهولة ، إلى حد أننى لم أفكر قط أننى قد أحبك ، بل كنت أعتقد أن إحساسى نحوك إحساس طبيعى وأن كل ما أشعر به نحوك ليس مبعثه إلا طيبة فى نفسى .

إنى لأذكر كيف بدأ مرضك وكيف ذهبت إلى حجرتك ، فإذا بك ما زلت راقدا فى فراشك وكان وجهك يبدو عليه بعض الشحوب فأقبلت عليك فى لهفة وسألتك : ما بك ؟

وهززت رأسك ببطء وعلت وجهك ابتسامة فاترة ، وقلت فى صوت ضعيف : لا شىء .

ومددت يدى أتحسس جبينك ، وأحسست أن هناك تيارا خفيا سرى بيننا ، فأصابنى منه رعدة ، وظننت ما بك علة طارئة وبردا خفيفا سرعان ما تبل منه .. ولكنك ازددت سوءا فى الليل ولم يصبح اليوم التالى حتى كانت سطوة المرض قد ألحت واستفحل الداء ، وأتى الطبيب لعيادتك فأنبأنا أنك مصاب بالتهاب رئوى شديد وأنك فى حاجة إلى عناية كبرى .

وبدا الامتعاض على عمتى والتبرم ، وحاولت أن تلقى عن نفسها عبئك بأن ترسل إلى ذويك ، ولكنك رفضت أن تدعنا ننبئ أحدا وتشاورت وابنها فى التخلص منك بنقلك إلى أحد المستشفيات . وأحسست بقلبى يغوص بين جنبى ، فما كان لى عزاء عن مرضك سوى أننى بجوارك .

وأسرعت إلى الطبيب فخلوت به على السلم ورجوته والبكاء يخنقنى أن يأمر عمتى أن تبقيك كما أنت لأن فى نقلك خطورة على حياتك وأنها ستكون مسئولة عما يصيبك من جراء النقل .

وهكذا استطعت أن أبقيك إلى جوارى حتى أتولى وحدى السهر عليك .

وبدأت أخوض المعركة ضد المرض الذى أمسك بخناقك .

مرّت بى الليالى وأنا لا أذوق النوم ، حتى فى تلك الهنيهات التى كنت أذهب فيها إلى فراشى لأستلقى عليه خوفا من عمتى ، كنت أنام مفتحة العينين .

كم جلست إليك فى ظلمة الليل أتحسس شعرك ، وأغرق وجهك وجبينك بالدمع والقبل . دمع عين ما جفت مآقيها ، وقبل شفاه ما كفت لحظة عن الابتهال إلى الله لكى ينقذ حياتك .

وفى ساعة هذيان من هذيان الحمى علمت أنك متزوج .

لست أدرى ! لم صدمنى هذا الخبر ؟ ولم أحسست منه بطعنة أدمت فؤادى ؟

إنك لم تخدعنى لأننى لم أسألك عن حياتك ولو سألتك لما ترددت فى إخبارى بأنك متزوج بدليل أنك أنبأتنى بعد أن أبللت من مرضك أنك متزوج فعلا .

فماذا كنت أريد منك ؟ وماذا كنت آمل من ورائك ؟ أكنت آمل أن أكون زوجتك ؟ أنا نفسى لم أكن خالية . وكانت عمتى مصرّة على أن أتزوج ابنها ؟.. ماذا كنت أريد إذن ؟

الواقع أنى لم أفكر قط ما بغيتى منك ؟ ولم أحاول أن أسأل نفسى ماذا يمكن أن تكون نهايتى معك ؟

إن الإنسان عندما يجد نفسه وقد اكتنفته السعادة وسار به زورق الحياة هادئا مسترسلا .. لا يحاول أن يسأل نفسه عن بغيته أو مقصده .. إنه يكتفى بأن يسير قرير العين ناعم البال ويكتفى بأن يغمض عينيه فى راحة واستسلام ، ويترك الأمور — كما يقولون — تجرى فى أعنتها دون أن يجهد نفسه بالتفكير فى غرضه أو نهايته . إنه لا يحاول أن يستبق الحاضر حتى لا يفقد بهجته .. بل هو دائما يعيش للحظته .. « لا يضيق هما بأمس أو غد » ولا يحاول أن يشغل نفسه عما هو فيه من هناء ومتعة .

كذلك كنت معك .. ما حاولت أن أتعدى اللحظة التى نحن فيها ، وما حاولت أن أعرف من أنت ومن أين أتيت وإلى أين تذهب ؟. بل ما حاولت أن أزعج نفسى بمجرد التفكير فى أنك لا بد أن تذهب ، وأنى لا بد أن أفقدك .

ولم أحاول أن أفكر فى هذا بل اكتفيت بالحال الواقع ، وهو أننى معك ، وأنى أمتع برؤيتك والعيش بجوارك .

لم أفكر فى أن تكون متزوجا أو غير متزوج ، ولا خطر ببالى أن أبحث عن صلتك بالناس أو صلتهم بك . لم أحسست إذا — بعد كل هذا — بلوعة مضنية عندما علمت أنك متزوج ؟

لم أحسست أنى فقدت أعز ما أملك مع أنى لم أحاول من قبل أن أقتع نفسى أنى أملك هذا العزيز الذى فقدته ، وأن لى عليه حق الحزن إذا ما فقد.. وحق اللوعة إذا ما ضاع ؟

لقد تملكنى يأس شديد ، ومع ذلك لم يقلل يأسى من الجهد الذى كنت أبذله من أجلك ، فلقد كانت نظرات الشكر التى توجهها إلىّ فى صمت خير مشجع لى على المضى فى سبيلى ، وكان خير معين لى على احتمال اليأس .. هو تلك اللحظات التى كنت تتناول فيها يدى فتجذبها برفق وتضعها على شفتيك الملتهبتين الجافتين وما كنت أريد جزاء خيرا من هذا .. وأخيرا .. وبعد طول جهد وسهر .. بدأ الداء يجلو .. والعلة تنقشع .

وكان أول ما فهت به .. اعترافك بصنيعى ، وتقديرك لجميلى .. علام الشكر ؟ وأنا لم أفعل ما فعلت ، إلا بدافع من قلبى .

وكان ثانى ما فهت به أنك تحبنى .. وأنك أصبحت تحس أننى جزء منك ، وطلبت منى ألا أتزوج من ابن عمتى . وقلت لى إنك متزوج ، ولكنك ستفترق عن زوجتك .. فما أشعرتك قط بعطفها أو حبها ، وما رعت أمرك بل هى امرأة مظاهر وحفلات ، امرأة برَّاقة زائفة ، ليس فيها سوى جمال الطلاء .

ولم أجد فى طلبك منى ألا أتزوج من ابن عمتى أمرا عسيرا فقد كنت على

استعداد لأن أفعل من أجلك كل شيء . ولكن العسير حقا ، هو أن تنفصل أنت عن زوجتك .. وأن أختطفك منها .

أنا لا أدّعى أنى مثالية ، ولكنى مع ذلك لا يسعنى أن أقاوم رغبة القدر .. إنك لست لى ،ولن يصيبنى تعلقى بك إلا الندم والحسرة .. إنك على استعداد لأن تهجر الآن امرأتك من أجلى ، لأن حرارة صنيعى ما زالت تلهب نفسك .

وغدا .. أو بعد غد .. عندما تفتر هذه الحرارة ، وينسى الصنيع . ماذا يكون من أمرك ؟ إنك لا شك ستندم على ما فعلت من طلاق امرأتك وتزوجك إياى .

فما أنا إلا فتاة يتيمة ، تكاد تكون خادمة ، التقيت بها فى بنسيون ذات صيف وأنت غاضب من امرأتك ، فمرّضتك فى مرض ألمَّ بك .

فهل تستحق أن تتزوجها وتهجر من أجلها امرأتك ؟ لا .. لا .. يجب ألا أنتهز فرصة ضعفك فأكون سببا فى شقائك .

إنى راحلة من أجلك .

إنى أحبك .. وبودّى لو تسللت ورقدت إلى جوارك .. وقضيت عمرى بين ذراعيك ، ولكنى لا أستطيع ، لأنى أعلم أن هذا ليس مكانى ، بل مكان امرأة أخرى .

وبودّى أن أقبلك .. ولكنى أخشى الضعف .. وأخاف الانهيار ، والاستسلام .. فيجب أن أقسو على نفسى فأذهب بسرعة !

« المخلصة .... »

ملحوظة : وصلت الآن برقية باسمك .. إننى أخشى أن أفتحها فيكون فيها شيء خاص بك ، لا تود أن أطلع عليه . وأخشى أن أوقظك من نومك الهادئ ، وأنت فى حاجة إلى الراحة . سأتركها على المنضدة حتى تفتحها عندما تستيقظ .

* * *

أمسك الرجل بالخطاب ، وقد تملكه الذهول .. أتراها حقا قد ذهبت ؟! يا للفتاة المجنونة .. إنه يحبها كما لم يحب من قبل .. ولا يستطيع العيش بدونها .. كيف تصوّرت أنه لم يسألها الزواج إلا بدافع من الاعتراف بالجميل ؟ يا للحمقاء ! أتركته لأنها لا تود أن تختطفه من امرأته ؟ امرأته البرّاقة التافهة ، التى لا تكاد تحس به .. والتى لا يعنيها سوى الظهور فى الحفلات والمجتمعات!

وقفز الرجل من فراشه واندفع إلى العمة يسألها عن الفتاة ، وبحثوا فى الدار ، فإذا بالفتاة قد رحلت .. ثم بحثوا خارج الدار فلم يجدوها ، أو على الأصح وجدوها قد رحلت إلى دار أخرى .. فقد عثروا على جثتها غريقة فى أحد البلاجات .

وعاد الرجل إلى حجرته وقد تملكه اليأس ، واستبد به الضيق ، ونظر إلى المنضدة فوقع بصره على البرقية التى حدثته عنها الفتاة فى خطابها . وفضها الرجل فوجدها من أخيه ، ينبئه فيها أن امرأته توفيت فى حادث عربة !.

وتنقلت عينا الرجل بين الخطاب والبرقية ، وأرتج عليه ، فلم ينبس ببنت شفة . لقد كانت البرقية سخرية بسيطة من سخريات القدر .

دائماً معى

هل عرفت من أنا ؟ ولمَ أتسلل فى جنح الليل لأجلس وحيدة فى هذه الدار الموحشة .. إن الدار يا سيدى ليست موحشة . وإنى لا أجلس قط وحيدة .. إنه دائما معى .

كانت ليلة من ليالى الشتاء ، قارسة البرد ، عاصفة الريح ، حالكة الظلمات .. لم تترك حجب السماء المتكاثفة فى سمائها منفذا لشعاع .. فبدا الكون وقد اتشح بسواد أخفى معالمه ، ولم يبد سوى أشباح معتمة صامتة .

ووقفت وراء زجاج النافذة أرقب الطريق المقفر المظلم ، وقد تناثرت فيه مصابيح الغاز التى لم تستطع أشعتها أن تنفذ خلال الظلمة الحالكة فبدت خابية مترنحة ، ووصل إلى أذنى صفير الريح كأنه عويل وأنين ، وأحسست برجفة تسرى فى جسدى عندما وقع بصرى على ضوء يلوح من نافذة تبدو خلال الأشجار المتكاثفة فى حديقة الدار المقابلة .

واشتد الصفير ، وبدأت أستعيد فى ذهنى تلك الخرافات التى تروى عن الدار المهجورة ، وما يشاع من أنها مسكونة بالأرواح ، وكيف استمرت الدار خالية خاوية لا يقربها السكان ولا تمتد إليها يد التغير والتبديل .

ولم أحاول قط أن أصدق شيئا عما يشاع عن الدار المسكونة ، فما كنت لأومن بوجود العفاريت والأشباح ، وما كنت لأرى فيها إلا ضربا من ضروب الأوهام والخيالات ، وزاد من يقينى أننى من اليوم الذى انتقلت فيه إلى دارى هذه وأنا أراقب الدار المسكونة جيدا فى أوقات مختلفة من النهار والليل دون أن أبصر فيها شيئا غير عادى ، فما لاح لى منها قط جن ولا عفريت ، ولا رأيت فيها

إلا ظلمة فوق ظلمة وصمتا على صمت ، حتى كانت هذه الليلة عندما أبصرت ضوءا يشع من إحدى النوافذ خلال الأشجار المتكاثفة المحيطة بالدار .

ولم أستطع أن أمنع تلك الرجفة التى سرت فى جسدى — رغم سخريتى الشديدة بكل ما يقال عن الأشباح والأرواح — وتملكنى إحساس مبهم بالخوف ، ووجدت صفير الريح وقفر الطريق والضوء المتسلل من النافذة وسط الظلمات المتكاثفة قد أحاطنى بجو من الرهبة ، ودفعنى إلى توهم وجود الشبح الذى يقطن الدار المهجورة ، وإلى تصوره وقد أضاء النور وأخذ ينتقل فى ردهاتها .

ولم يستمر هذا الشعور أكثر من ثوان معدودات عدت بعدها إلى نفسى . وطردت من ذهنى ذلك الوهم الذى فرضته عليه الظلمة والوحشة وعصف الريح ، خرافات الناس .. وحاولت أن أجد سببا — غير الأشباح والأرواح — لذلك النور المنبعث من الدار .

وكان أول ما خطر لى أن زائر الليل لن يكون سوى لص يحاول سرقة الدار فقد كان أثاثها ما زال مفروشا كما هو منذ تركه صاحبه ، ووجدت أن من واجبى أن أسرع فأقبض على اللص .. أو على الأقل أنبئ الشرطة .

وترددت برهة ، فقد خشيت إن أنا حاولت إبلاغ الشرطة أن يضيع الوقت سدى ويفر اللص وقد لا يكون هناك لص أصلا ، فأضع نفسى موضع السخرية .

وهكذا صممت على أن أذهب وحدى إلى الدار لأرى جلية الأمر فإن كان الزائر لصا قبضت عليه ، وإن كان شبحا ..

وضحكت لنفسى فى سخرية . ماذا يضيرنى من أن يكون شبحا ؟. لم لا أجرب لقاء الأشباح ؟

وسرعان ما تناولت مسدسا صغيرا دسسته فى جيبى ، ثم هبطت إلى الطريق واجتزته متجها إلى باب الحديقة الحديدى ، ولم يستعص علىّ فتحه ، فقد كان مغلقا من الداخل بمزلاج يسهل لليد الوصول إليه .

ودلفت إلى الحديقة المقفرة الموحشة . ووقفت برهة أنصت فى الظلمة ، فلم يصل إلى أذنى سوى صوت الريح تعصف بأوراق الشجر .. فأخذت أتجه إلى مصدر الضوء ، حتى وصلت إلى نافذة فى الطابق الأول لم يحكم إغلاقها ، فتسلل من خلالها الضوء الذى استرعى بصرى فى أول الأمر .

ومددت يدى ببطء ففتحت أحد مصراعى النافذة .. ووقفت على أطراف أصابعى وأطللت برأسى فى حذر ، فلم يقع بصرى إلا على أثاث قد علته الأتربة ، وجدران قد خيمت عليها العناكب . وبدا لى باب الحجرة يؤدى إلى صالة بهو رحب استطعت أن أميز فيه وقع أقدام تغدو وتروح .

وقفزت من النافذة إلى الحجرة ، وسرت أسترق الخطى .. حتى وصلت إلى الباب المؤدى إلى الصالة ، ومددت عنقى فى حذر شديد حتى أرى اللص وآخذه على غرة .

ورأيت اللص ، وانتابتنى حيرة شديدة ، وتملكنى الدهش . فما كان هذا الذى رأيته يمكن أن يكون لصا .

لقد رأيت امرأة تتشح بالسواد ، تجلس فى هدوء على إحدى الأرائك أمام المدفأة التى تتأجج نيرانها وقد بدا لى ظهرها ، وانساب شعرها على كتفيها ، وأمسكت بكتاب أخذت تقلب صفحاته ببطء.. دون أن تظهر عليها بوادر خوف أو عجلة ، بل كانت فى جلستها بادية الطمأنينة كأنها ربة الدار .

ومرت برهة وأنا ثابت فى مكانى ، حائر ، دهش .

من تكون المرأة ؟ وللمرة الثانية أحسست برجفة تسرى فى بدنى ، وعاودتنى — على غير إرادة منى — فكرة الأشباح .

أية امرأة تلك التى تجازف بالجلوس فى هذه الدار المهجورة المسكونة ، وحيدة فى هذه الساعة من الليل ؟. ولم .؟ لكى تتسلى بقراءة كتاب .؟

ووجدت كل سخريتى من الأشباح قد تبددت ، وحل محلها خوف شديد . لا شك أن هذه المرأة شبح .. إنها هى الروح التى تسكن الدار . وبدأت أفكر فى

أن أعود من حيث أتيت .. حقيقة أنى لست جبانا ، ولكنى مع ذلك لم يكن بى شديد لهفة على لقاء الأشباح ، حتى ولو كنّ نساء .

وهممت بالتراجع .. عندما عصفت الريح فقرعت النافذة وأبصرت بالمرأة تنتفض فى ذعر ، وتلتفت وراها .. فيقع بصرها علىّ .

ومضت برهة وكلانا يحملق فى الآخر فى خوف ودهشة حتى استطعت أن أتمالك وأتماسك . وأستعيد بعض شجاعتى ورباطة جاشى . وأطرد من ذهنى كل ما تسلل إليه من أوهام عن الأشباح والأرواح وأقنع نفسى بأن المخلوقة التى تنتفض أمامى من الخوف لا يمكن أن تكون سوى آدمية من دم ولحم .

وهكذا بدأت أستمد الشجاعة من خوفها ، فقد أوحى إلىّ منظرها المرتعد المرتجف بأنها دخيلة على الدار ، وأنها قد تسللت إليها فى بهمة الليل ، وأن ظهورى أمامها فجأة قد أفزعها ، وأظهرها كمجرمة ضبطت متلبسة بجريمة .

ولكن أية جريمة ؟. جريمة الدخول فى دار مسكونة مهجورة لا يجرؤ على أن يدخلها إنسان ؟.

جريمة الجلوس فى دعة وطمأنينة ؟.. جريمة قراءة كتاب ؟..

ماذا تفعل المرأة ؟.. ومن هى ؟. وما صلتها بالدار ؟ وما .. وما ..؟

وأخذت الأسئلة تتزاحم فى رأسى ، وانطلق أولها من بين شفتى ، فسألتها فى حيرة ودهش :

ـــ ماذا تفعلين ؟

ولم تجب المرأة على سؤالى ، بل أخذت تسألنى بصوت خفيض مبحوح :

ـــ من أنت ؟.

ـــ خبرينى أولا .. من أنت ؟ وماذا يدفعك إلى التسلل إلى هذا المكان الموحش فى هذه الليلة العاصفة ؟. أهو مجرد الرغبة فى قراءة كتاب ؟

وكانت لهجة السخرية بادية فى سؤالى ، ومع ذلك فقد وجدتها تهز رأسها بالموافقة ، كأنما قد جاءت حقا لقراءة كتاب .

وساد الصمت برهة . ثم وجدتها تتساءل مرة أخرى بصوتها الخفيض المرتعد :

ــ من أنت ؟. وماذا تريد منى ؟.

ووجدت فى لهجتها لكنة غريبة ، لا توحى بأنها مصرية صميمة ، وكأنها من أحد الأقطار الشقيقة .

وبدأ شعورى بالعطف عليها يتسرب إلى نفسي، وأيقنت أن مثلها لا يمكن أن يضمر شرا ، وأن الإنسان لا يملك أن يوجس منها خيفة . فأجبتها فى رقة ظاهرة محاولا طمأنينتها :

ــ إنى أقطن فى الدار المقابلة ، وقد استرعى انتباهى ضوء يشع من إحدى النوافذ ، وأنا أعلم أن الدار مهجورة لا يقطنها أحد .. اللهم إلا ذلك الشبح الذى يزعمون أنه يسكنها ، فلم أشك فى أن زائر الليل لص .. أو ..

ثم أردفت ضاحكا :

ــ أو شبح .. فلما تسللت إلى الدار وجدتك أنت .! فأيهما تكونين ؟.

ولكن المرأة لم تضحك .. بل هزت رأسها ببطء ، وأجابت فى صوت خافت :

ــ أنا لم أكن قط لصة ، أتقول إنهم يزعمون أن الدار يسكنها شبح ؟.

ــ أجل .

ــ إذن أنا لا شك ذلك الشبح !.

وأطرقت برأسها برهة ، ثم أردفت قائلة :

ــ أجل .. لا أظن أن هناك شبحا فى الدار سواى .

واقتربت منها وتأملتها فوجدتها امرأة صغيرة .. خير ما توصف به هو أنها رقيقة ، رقيقة فى كل شيء ، رقيقة الوجه ، رقيقة الجسد يبدو فى قسماتها حزن دفين ولوعة مكبوتة ، ويلوح على محياها شيء من الشرود والذهول .

وعادت الأسئلة تتزاحم فى ذهنى مرة أخرى .. إنى لم أعرف بعد من تكون

المرأة ؟. وما سبب زيارتها للدار خفية ؟

وعدت أسأل :

ـــ ولكنك لم تقولى بعد من أنت ، وماذا تفعلين ؟.

ـــ أما من أنا ؟. فلا أظن أن مجرد ذكر اسمى سيعنى لديك شيئا ، إنى امرأة غريبة ضالة ، أما ماذا أفعل ؟. فإنى لا أفعل أكثر مما رأيت ! أزور الدار خلسة ، لأجلس على الأريكة ، وأقرأ.. وأفكر .. ماذا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك !. هذا هو كل ما تبقى لى منه ؟.

وبصرت بسحابة ألم خيمت على وجهها ، ووجدتها تضغط على شفتيها كأنها تقاوم البكاء ، ولمحت فى عينيها طبقة لامعة من دمع متحجر . وازداد شعورى بالعطف على المرأة ، ووجدتنى أنسى كل ما أتيت لأجله . وأنسى الظروف المحيطة بى ، ولم أعد أذكر سوى أنى أمام امرأة منكوبة تتألم ، تفيضُ نفسها بالمرارة والحزن . فأمسكت بيدها وقدتها برفق فأجلستها على الأريكة كما كانت ، وقلت لها فى عطف شديد :

ـــ لا تخشى شيئا .. حدثينى عما يحزنك ويوجع قلبك ؟ نبئينى لم تتسللين فى جنح الظلام لتجلسى وحيدة فى هذه الدار الموحشة . أخرجى بعض ما فى صدرك فقد أستطيع معاونتك .. ثقى بى .

ومضت برهة والمرأة صامتة ، وقد أطرقت برأسها وأخذت تقلب صفحات الكتاب ، وبدا عليها ذهول شديد .. حتى لقد خيل إلىّ أنها أصيبت بجنون . وأحسست بالرجفة مرة أخرى تسرى فى بدنى ، فأنا أخاف المجانين أكثر مما أخاف الأشباح .

ولكن الخوف لم يطل فقد زفرت المرأة زفرة حارة ورفعت إلىّ وجها حزينا ، وقالت فى صوت خافت :

ـــ لم تريد أن تثير الحزن الدفين ، وتوقظ الذكرى الهاجعة ؟ أنا لا أعرفك ، وأنت لا تعرفنى ، لم تريد أن تسمع قصة مجهولة ؟. لقد كنت مجهولة دائما ،

حتى منه كنت مجهولة .

أجل .. إنه ما كتب إلىّ إلا قائلا « أيتها المجهولة » . لقد كان كل منا مجهولا من صاحبه ، فما رأى أحدنا الآخر قط ، ومع ذلك فما عرفت إنسانا فى حياتى كما عرفته .!

كنت أعرف كل شىء عنه : هذه الدار .. كنت أعرفها قبل أن أراها ، قطعة قطعة .. كنت أعرف موقع المدفأة . ومواضع الصور .. كنت أعرف جلسته على هذه الأريكة فى سكون الليل . لقد كتب لى عن كل هذا .. لقد وصف لى الحديقة ووصف لى الطريق ووصف لى ما حوله ، بالتفصيل والدقة .. لقد عشنا معا ، رغم أننا لم نلتق .

كتب لى عن نفسه .. عما يحب ، وعما يكره ، وعما يأمل . وعما يرجو .. كتب لى عن طباعه وخصاله ، وعن محاسنه ومساوئه .. كتب لى عن حبه .

أجل يا سيدى .. حبه لى .. أو كما كان يسميه : حب المجهول .

كيف بدأ الأمر بيننا ؟. وكيف تطور ؟.

من كان يتصور أن هذا شىء يمكن حدوثه ؟. من كان يتصور أن هذا الحب العميق يمكن أن يحدث بيننا ؟.. بين اثنين لم يلتقيا قط ، ولا كانا يأملان فى لقاء .. اثنين تمزقت بينهما أسباب الوصال وبعدت بينهما الشقة ، ونأى المزار !!

من كان يصدق أن الأمر بيننا سينقلب إلى هوى جارف وقد كان أحدنا فى القاهرة والآخر فى بغداد !.

بدأ الأمر من جانبى ، أنا الفتاة الشرقية المحافظة المنطوية فى عقر دارها ، التى تعرف أكثر مما ترى ، والتى تحس فتكبت إحساسها وتطوى مشاعرها .. بدأ الأمر بلقاء بينى وبينه ، أنا وحيدة فى حجرتى وهو يطل علىّ من سطور إحدى قصصه .

أجل .. لقد التقيت وإياه فى عالم الوهم ، عندما بدأ يهز مشاعرى بإحساسه المرهف ، ويتسلل إلى نفسى بما لم يستطع إنسان من قبل أن يفعل .

كنت أقرأ له ، فأحس كأنه يكتب لى .. لى وحدى .

لقد أحببته من كتابته ، حبا لا أمل لى فيه ، ولا رجاء لى منه ، فما كنت أطمع قط فى مجرد رؤيته أو لقائه .

وأنا واحدة من بين آلاف قرائه .. بينى وبينه مئات الأميال .

وبدأت أنتظر كتابته كصاد فى الصحراء بتلهف على قطرة ماء ، وبدأت أنطوى على نفسى ، وأصابنى مثل ذهول العشاق وشرودهم ، دون أن أجسر أن أفضى لأقرب الناس إلىّ بشىء من مشاعرى خشية أن أتهم بالجنون .. كيف أجسر على أن أقول لهم أنى أحب إنسانا لم أره ، ولا يحس هو وجودى ؟.

ودفعنى طيش الشباب أن أكتب إليه مرة ، ومرت بى الأيام ، وقد تملكنى قلق شديد .. أنتظر فى لهفة وخشية كما ينتظر السجين حكما بالإفراج أو بالإعدام .. حتى وصل إلىّ ردّه فكان فيه شفاء نفسى ، وبلسم روحى .

كان ردّه رقيقا عطوفا زادنى تعلقا به ، وحبا له ، وأشعل فى نفسى جذوة الأمل فيما لا أمل فيه .

وكتبت له مرة أخرى ، ورد علىّ ، وثالثة ، ورابعة . حتى وصل إلىّ رده ذات مرة يقول فيه :

« أيتها المجهولة .. من أنت ؟ كيف أنت ؟.. لم تقولين إن حبى شرّد ذهنك وحطم قلبك ؟.. لم تتحدثين عن اليأس ؟.. لم لا تجعلين من حب المجهول نبراسا يهديك سواء السبيل ، هذا الحب الذى لم تلتق به الأجساد ، بل تلاقت فيه الروح بالروح ، ما أقدره على أن يضىء لنا ظلمات الحياة . « أيتها المجهولة .. اكتبى إلىّ كثيرا ، إنى أحب كتابتك وأحب حبك » .

ومرت بى الأيام وأنا أرى الحياة مشرقة باسمة ، لا عمل لى إلا التفكير فيه ..

أو قراءة رسائله أو كتبه .. أخلو بها فى حجرتى ، أو أقف فى النافذة فأرقب الأفق البعيد وقد أمسكت أحد كتبه فى يدى ، وقد شرد بى الذهن وأخذت أتصوّره مقبلا علىّ من العالم البعيد المجهول ، ويقترب حتى يصل إلىّ فيحتوينى بين ذراعيه ، ويضمنى إلى صدره .. ثم يلصق بشفتى شفتيه .. يا للأمل الحلو والأمانى العذبة !.

وبدأ طمع العشاق يشقينى ، ولم أعد أقنع منه بمجرد الرسائل ، بل بت أتوق شوقا إلى لقائه .

وعصف بى الحنين ، وأقض الشوق مضجعى .. دون أن تلوح لى بارقة أمل ، حتى ولو كانت كاذبة ، أعلل بها نفسى !

كنت يائسة من لقائه ، ولست أشك فى أن اليأس نوع من الراحة .. راحة الاستقرار على حال والاطمئنان إلى وضع مهما مرّ مذاقه وملح طعمه ، ولكنى مع ذلك لم أشعر قط براحة اليأس ، فإن يأس المحبين لا يحمل راحة ، لأنه لا يكون قط حازما قاطعا ، فإن جنون الحب لا يفتأ يبعث فى نفوس المحبين نوعا من الأمل .. الأمل المستحيل والرجاء غير المعقول ، فإذا بهم يتشبثون بأوهى خيط ، ويتعلقون بأضعف بارقة .. ويتعللون بما هم أدرى من سواهم بمبلغ خداعه ومدى زيفة .. ويأبون إلا أن يحرموا نفوسهم راحة اليأس .

وهكذا كنت أمنى النفس بلقاء .. مع علمى بأنى من لقائه على مدى الجوزاء ، ومن يقينى بأن كل ما بيننا لا يمكن أن يتعدى بحال من الأحوال مجرد حب على ورق . وغرام فى السطور . وظللت أطوى حبى فى الجوانح ، وأحبسه بين الضلوع ، أمنى النفس بلقاء المجهول .. وأدعو الله أن يرسل من لدنه معجزة تتيح لنا اللقاء .

وفى ذات يوم بسم القدر وحدثت المعجزة ، وتحقق ما سميته بالأمل المستحيل والرجاء غير المعقول .

وإذا بأبى ينقل للعمل فى المفوضية العراقية فى القاهرة ، ووجدت نفسى أوشك أن أجن من فرط الغبطة .

ومرت بى الليالى ، قبل أن نرحل إلى القاهرة وأنا ساهرة لا يغمض لى جفن ، فقد كانت أعصابى مرهفة ثائرة .

لا أكاد أصدق أنى حقا سأذهب إلى القاهرة .. بل كان يخيل لى أن المسألة كلها من صنع الأوهام .

* * *

وصمتت المرأة برهة، وسقط رأسها على صدرها، ومرت فترة سكون بدت كأنما تحاول أن تستعيد فيها أنفاسها ثم أردفت قائلة :

ــ ووصلنا إلى القاهرة ، وأنا أكذب نفسى فى كل ما أرى وأسائل من حولى فى نزق وطيش : أحقا قد وصلنا إلى القاهرة ؟

كان كثيرا علىّ أن أجد أحلامى الهوجاء المجنونة تتحقق فى غمضة عين فتضحى حقائق ملموسة ، وأن أجد نفسى قد أصبحت على قيد خطوات من الحبيب المجهول .. الذى كنت أتخيله فى أقصى العالم ، ووراء المريخ أو تحت القمر .

وأحسست بالشوق يزداد وبالحنين يتضاعف .. بعد أن أصبحت على مقربة منه .. لا يفصلنى عنه سوى دقائق معدودات .

وانتهزت أول فرصة للخروج وحيدة .. فذهبت لزيارته فى داره التى لم يصعب علىّ الوصول إليها من فرط ما وصفها لى ، وعزمت على مفاجأته بلقاء لا يخطر له على بال .

وعادت المرأة إلى صمتها مرة أخرى .. وطال الصمت فى هذه المرة .. حتى لقد رحت أستحثها بقولى :

ــ ثم ماذا حدث ؟

فقالت وكأنما تفيق من سبات عميق :

— لقد فاجأني هو بلقاء قبل أن أفاجئه . لقاء لم يخطر لى على بال قط .. لقاء ما أقساه وما أمرّه .. لقد وصلت إلى الدار .. فوجدته خارجا منها .. ناديته فلم يسمع .. صحت به فلم يأبه لى .. لقد كان يا سيدى محمولا على الأعناق .. مسجى فى نعشه .. لا يسمع لأحد ، ولا يسمعه أحد .

لقد أصابه مرض لم يمهله حتى أراه .

كان هذا يا سيدى هو أول لقاء بيننا ، وآخر لقاء .

هل عرفت من أنا ؟ ولمَ أتسلل فى جنح الليل لأجلس وحيدة فى هذه الدار الموحشة ؟

إن الدار يا سيدى ليست موحشة ، وإنى لا أجلس قط وحيدة .. إنه دائما معى .

نهاية شقاء

كلهم يريدون الثمن .. من شفتى ، ومن جسدى .
كلهم ينظرون إلىّ بأجسادهم .. لقد تعاون جمالى مع شرودهم على الإيقاع بى .
لا تنكر قولى .. فأنت أولهم .

كانت الفتاة حديثة العهد بتعلم السواقة ، وكانت لا تفتأ تقرع الكلاكس كلما لاح لها عابر طريق على بعد مئات الأمتار ، ولم تكن تعترف بأن الكلاكس يستطيع وحده أن يقوم بواجب الإنذار ، فكانت تقدم إليه المعونة بصوتها ، صارخة فى المارة أن يحذروا وأن يحاسبوا ، وأن يأخذوا بالهم ، ويفتحوا أعينهم ، لاعنة أباهم إذا استدعى الأمر . وكانت لا تفتأ تجذب الفتى الجالس بجوارها من ذراعه بين آونة وأخرى سائلة إياه فى كل تقاطع مرور : « أين العسكرى ؟ » .. وهل الطريق مفتوح أم لا ؟.

وسلم الله ، واستطاعا أن يجتازا زحام البلد بسلام ، ووصلا إلى كوبرى قصر النيل ، ولفحت وجهيهما موجة من نسيم الليل رطبة ندية ، فأحسا منها بشىء من الانتعاش ، وأزال عنهما بعض ما أحدثه ضجيج المدينة من توتر وإرهاق .

واجتازا كوبرى الجلاء ، ولفا حول الميدان ، ثم دلفا فى الطريق الموازى للنيل وسمعها تقول ضاحكة :

ــ هذا طريق العشاق دعنا نجتازه بسرعة ، حتى لا أتهم فيك .

ومدّ ذراعه فلفه حول كتفيها وأخذ يتحسس بأصابعه ذراعها العارى ، ووجدها تحاول التخلص من ذراعه فأبعده عنها وهز رأسه قائلا :

ـــ أنت مخلوقة عجيبة ، ألم أقل لك إنك قُلَّب حُوَّل وإنك لست فقط إنسانة مزدوجة الشخصية ، بل متعددتها . إنك عشر نساء فى امرأة .. هل تذكرين تلك الليلة التى كنا ننطلق فيها فى طريق الهرم . وقد جلست بجوارك صامتا ساكنا ، فإذا بك تسألينني فى صوت يفيض رقة وحنوا أن أحيطك بذراعى ؟. كنت يومذاك مرهفة الحس صخابة الحشا . كنت خير ما يمكن أن تكون امرأة ولهى عاشقة . كنت تمثال أحاسيس ومشاعر .

ـــ والليلة ؟

ـــ الليلة ! ليس بك من امرأة الليلة الماضية صلة ولا شبه ، فإنى أراك اليوم كتلة شر وأذى .. فتاة غجرية « شرانية » . أبعد ما تكون عن الحب والوله .

وانطلقت منها ضحكة عالية وأدارت رأسها ومدت شفتيها إليه ، وقالت آمرة :

ـــ خذ !..

ولم تكن هذه الطريقة فى التقبيل لترضى خياله العاشق فهم بأن يرفض منحتها ، ولكنه فكر فى أنها خير من عدمها ، فأسرع فى اقتناصها قبل أن تدير وجهها لتلتفت إلى الطريق .

واجتازا زحام الجيزة ، وعبرا النفق ، وبدأت العربة تنطلق فى شارع الهرم وأخذ يقترب منها ملصقا جسده بجسدها فقالت محذرة :

ـــ وبعدئذ ؟

ونظر إليها فى ضيق ، وأدهشه منها هذا الجمود ، ثم مد شفتيه فألصقهما بشفتيها ، ولم يحس فيهما حرارة القبل .. فانتزعهما بسرعة وقال متبرما :

ـــ ما بك ؟

ـــ لا شىء .. أولابد من التقبيل ؟

ـــ إذا كنت لا أقبلك وقد ضمتنا وحدنا عربة فى طريق الهرم . فمتى أقبلك إذن ؟

ــ لا تكن كصبية المدارس ، دعنا نكن أعمق من ذلك .. أصدقاء .

وأحس الفتى بخجل من قول الفتاة ، وابتعد عنها ، وقال كأنما يحدث نفسه :

ــ أنت لا شك بلهاء ، تريدين أن تستبدلى بالعشق صداقة ! إن الأصدقاء كثيرون .. تستطيعين أن تحصلى عليهم فى كل وقت وفى كل مكان .. أما العشاق ..

وندت عن شفتيها ضحكة خافتة مليئة بالمرارة والسخرية وقاطعته متسائلة :

ــ الأصدقاء كثيرون ! أنت واهم .. كلهم عشاق . كلهم مثلك يريدون القبل .. وما بعد القبل .. ما رأيت منهم صديقا قط .

ولم يجب الفتى ، فقد بدا عليه الوجوم والإطراق فأردفت قائلة :

ــ ألم أقل لك .. ها قد نأيت عنى لأنى أرفض أن أعطيك شفتى ، يا للرجال ! كلكم كذلك !

وكانت ظلال أشجار الكافور والبانسيانس تنعكس على العربة من أضواء الطريق ، الواحدة تلو الأخرى .. وأخذت الظلال تتباطأ ، حتى استقر أحدها على العربة ، وأوقفت الفتاة الماكينة ، وساد من حولها سكون عميق .

وهمست الفتاة متسائلة :

ــ وبعد ؟

واقترب منها وأحاطها بذراعه برفق وحنان ، فأسندت رأسها على كتفه ، وندت عنها تنهيدة حارة عميقة بدت كأنها انطلقت من أعماق صدرها .

وألصق خده بخدها ، وأحس بنفسه تتسامى ، ومشاعره ترهف وبتيار جارف من الحنين يطويه بين أمواجه ، وسألها فى رفق :

ــ ما بك ؟ أنت الليلة حزينة ؟.

ــ الليلة فقط ؟

ــ على الأقل .. هذا ما يبدوا لى !

ــ أنا ، هو أنا ، الليلة ، وغير الليلة ، دائما حزينة .. كل ما فى الأمر أن

الحجب الزائفة من المرح التى أكسو بها نفسى ، تعجز أحيانا عن سترها ، فتبدو على حقيقتها . والليلة أحس أن الحجب قد هتكت . لقد أجهدنى اصطناع السعادة والمرح .. دعنى أطلق نفسى من إسارها الزائف برهة ، دعنى أتمتع بالحزن .

— أنت تقولين هذا ؟

وتذكر قولها .. لنكن أعمق من ذلك ، دعنا نتحدث ، ولنكن أصدقاء .. وخيل إليه أنها بدأت تكشف نفسها على حقيقتها .

إن الفتاة تبدو كأنها ترزح تحت أعباء حزن مرير .

واعجبا ! ماذا يمكن أن يحزن مثلها .. هذه الفتاة السطحية المرحة الضاحكة كيف يحوم حولها الشقاء وهى ترتع فى بحبوحة من الحياة التافهة : سينما ، ومرح ، وضحك ، وجروبى ، وهيلتون ، وسهرات راقصة ، وأحضان ، وقبلات .. ماذا يريد مثلها من الحياة أكثر من ذلك ؟!

ولم يشعر إلا وهو يوجه إليها هذا السؤال :

— ماذا تريدين من الحياة ؟. ما هدفك الذى تبغين الوصول إليه ؟

وهزت رأسها فى حيرة ولم تجبه . فعاد يقول :

— هل تريدين بيتا وزوجا وأولادا ، وحياة مستقرة هادئة ؟ لا يبدو لى أنك من النوع الذى يهدف فى الحياة إلى مثل هذا !

وأجابته فى صوت خافت :

— ما هدفت إلى هذا قط . إن تجاربى فى الحياة ، تجعلنى لا أتعلق بهذه الأوهام ، فإنها تبدو لى مجرد سراب ، من العبث التعلق به .

— ماذا تريدين إذن ؟ وماذا يحزنك ؟

— يحزننى أن الحياة تفرض علينا أشياء لا نستطيع إلا الخضوع لها ، يحزننى أن تجعل منى الحياة هذه المخلوقة التى تراها أمامك ، وألا أجعل من نفسى ما كنت أتمنى أن أكونه .. ما حيلتنا فى الحياة ، ونحن نتخبط فيها كريش فى مهب

الريح لا سيطرة لنا على مصيرنا ، ولا سلطان لنا على أنفسنا .. هل تفهمنى ؟

— أفهمك تماما .

قالها على غير إرادة منه . فما كان فى الواقع قد فهمها بعد وإن كانت به رغبة جارفة فى فهمها ، ولهفة على أن يسمع منها حديثها عن نفسها .. وأردفت الفتاة قائلة :

— إنى فى حاجة إلى صديق يفهمنى .. صديق أسرّ له بخبيئة نفسى ، وألقى إليه ببعض ما يعتمل فى صدرى ، صديق لا يريد لصداقته ثمنا ، ولا يبغى بإخلاصه مقابلا من الأحضان والقبل .. هل فهمت ؟

وسرى إلى نفس الفتى إحساس عجيب بالخجل من نفسه ، لقد بدت له الفتاة أعمق كثيرا مما يتصور . إنها تبغى منه أكثر مما تبغى من سواه ، تبغى شيئا أسمى مما يستطيع الإنسان منحة بسهولة ، تبغى الصداقة فى حياة خلت إلا من تجار العشق .

وأمسك يدها فضغط عليها ضغطا خفيفا ، وقال :

— استمرى .

وتركت الفتاة يدها فى يده ، وساد الصمت برهة وأطرقت برأسها واجمة . وبدت كأنما قد شرد بها الذهن وراحت فى تفكير عميق . وعاد صاحبها يستحثها الحديث :

— تكلمى ، حدثينى عن نفسك كثيرا . أفرغى ما فى صدرك وأشركينى فى حملك علة يخف عنك بعض الشىء ، جرّبى صداقتى ، فقد أفلح فى أن أكون صديقا ، بعد أن فشلت فى أن أكون عشيقا .

— إن العلة فى نفسى ، أو على الأصح ، فى ذلك التناقض بين طريقة خلقى وبين الظروف التى أحاطت بى . والتباعد بين حقيقتى ومظهرى .. إن العلة كائنة فى أن التجارب التى مرت بى جعلت منى أكبر مما أبدو .. أنى لا أريد ما أستطيع الحصول عليه ، ولا أستطيع أن أحصل على شىء مما أريد .

إنى حائرة أتخبط فى دنيا حالكة الدياجير .

إنى أقوم بدور فى الحياة لا أجيده ولا أحذقه ، دور فرض علىّ فرضا ، ومع ذلك فأنا لا أستطيع رفضه ، فنحن على مسرح الحياة لا نملك الرفض فإما الامتثال وإما الخروج ، ولكننى لم أجد لدىّ الجرأة الكافية لذلك . ومرّت الأيام ، وأنا لا أملك سوى الصبر والاستسلام .

وأحس الفتى كأن نفسه تذوب وتتحلل ، ورفع يد الفتاة فى يده ، فتحسسها بشفتيه كأنه عابد متبتل ، ومرّ على شعرها برفق وحنو كأنه أب يحنو على ابنته ، وهمس فى أذنها :

ـــ استمرى .. تحدثى .

ـــ عم أتحدث ؟ وأنا لا أعرف كيف أبدأ الحديث .. إن الأفكار فى نفسى مهوشة مختلطة ، وصور الماضى مزدحمة متلاحقة . إنى أبصر إحداها ، صورة باهتة شاحبة ، تطل من الماضى البعيد .. صورة طفلة بائسة . ولدت فى جو مملوء بالبغض والكراهية ، والشقاق والخصام . كان أول ما وعته فى حياتها هو انفصال أمها عن أبيها ، فحرمت فى طفولتها حنان الأم ، وعصفت بها ريح البغضاء ، وفقدت أمها وهى ما زالت على قيد الحياة .

وتختفى الصورة لأبصر بعدها صورة أخرى ، أشد من الأولى ظلمة ووحشة .. صورة الطفلة وقد فقدت أباها ووقفت فى بيداء الحياة وحيدة ضالة بلا عائل ولا معين ، حتى امتدت إليها يد أمها بعد طول فرقة .

وتتعاقب الصور على ذهنى ليس بإحداها شىء يسر ، إن الطفلة قد شبت فأصبحت صبية ، تعيش فى بيت أمها مع الرجل الغريب ، الذى أبغضته منذ أن وقع عليه بصرها .

لقد كنت فى الدار غريبة عن كل إنسان حتى عن أمى ، ومع ذلك فما كنت أملك سوى البقاء ، إذ أن لا بد لى من أن آكل وأنام ، فتلك أشياء لا بد أن يفعلها الإنسان ليحيا .. ومع ذلك فما أحسست قط أننى أحيا فعلا .. أجل .. إن

الإنسان لا يحيا لأنه يتنفس ويتحرك .. هذه ليست مظاهر الحياة . إن الإنسان لا يعتبر حيا إلا إذا شعر به من حوله ، وشعر هو بمن حوله . وإلا إذا أحبوه وأحبهم ، وهذا لم يتوافر لى . فما كان هناك من يحس بى ، وما كنت بدورى أحس بأحد .

ومن سخرية الحياة أن تفجع الإنسان بمصاب فيظل يرزح تحت عبئه ، ويتمنى لو رفعته عنه ، فإذا ما رفعته عنه ، رفعته بطريقة يتمنى لو أبقته له ، ويشعر أن بقاءه خير من زواله ، وأن المصاب كان نعمه من نعم الحياة . لقد قلت لك إن مبعث شقائى هو شعورى بأننى لا أحيا وأنه ليس هناك من يحس بى .

حتى كان ذات يوم وجدت فيه أن هناك من بدأ يحس بى فتمنيت لو أفقد نصف عمرى ، وأبقى كما كنت لا يحس بى أى إنسان .

كان أول من أحس بى ، ذلك الرجل البغيض الغريب ، رب الدار وولىّ نعمتنا : أمى وأنا .. ولقد بدأ إحساسه بى عندما دخلت فى دور النضج فاستوى منى الساق وبرز الصدر .

وبدأت أحس من نظراته المختلسة أنه أحس بى ، وكنت أكره نظراته ، رغم أنها كانت تحمل ذلك الشىء الذى طالما افتقدته وهو الشعور بأنى مخلوقة يحس بها الناس .

ومرت الأيام وأنا أحس بإقباله علىّ يزداد وكنت أشتم فى الجو رائحة الخطر ، ولكنى لم أملك له ردا .. وماذا تستطيع عاجزة مثلى أن تفعل أمام هذا الوحش البغيض ؟ وزاد الموقف حرجا ، مرض أمى ، واضطرارى إلى أن أتخذ فى الدار مكانا يقربنى إليه ، ويتيح له كثيرا أن يخلو بى .

وفى ذات يوم كنت أضطجع على إحدى الأرائك عندما أحسست به يتسلل إلى الحجرة ، وتبينت فى عينيه شيئا .. لا يصعب على المرأة أن تتبينه فى عينى الرجل ، وجلست فى ركن الأريكة ، فاتخذ مجلسه بجوارى ، وبدأ يتحسس يدى وذراعى ، وأنا أحس بقشعريرة تسرى فى جسدى ولا أدرى كيف أصده

وأردعه ، وأخيرا امتدت يده إلى وجهي مقتربا فمه من فمي وودت لو صفعته ، ولكنني كنت أخشى العواقب ، فجذبت ذراعي برفق وأشحت بوجهي . وبدأ عليه الغضب ، وسمعته يزمجر بكلمات مهددا ، وغادر الغرفة ثائرا .

ولم يكن هذا نهاية الأمر ، بل كان بدايته . لقد أصرّ الرجل على أن يبلغ ما فى نفسه ، ووجدتنى فى مأزق شديد الحرج ، وخاصة أن أمى أضحت طريحة الفراش ، وكان الرجل هو كل عمادنا فى الحياة ، وبدأ يهددنى بأنه سيطردنى وإياها إن لم أخضع له ، أو على حد قوله إن لم أعقل .

وأخيرا عقلت .. واستسلمت له .

لا تتهمنى بالضعف ولا بالجنون ، لقد فكرت كثيرا وقلبت الأمر على كل وجه من وجوهه .. فلم أجد خيرا من الاستسلام ، ووجدت فيه — كما قال الرجل — عز العقل !

فكرت فى أن أنبئ أمى ، وفى أن نترك الدار معا ، ولكننى خشيت عليها من وقع الصدمة وخشيت أيضا أن يقنعها الرجل بأننى حاولت التغرير به ، وأننى — لا هو — أصل الشر ومنبع الفساد .

فكرت فى الهرب ، ولكننى خفت أن يثأر الرجل لنفسه من أمى . ثم ما فائدة الهرب وأين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟ لقد أقنعتنى التجارب بعد ذلك ، بأنى لو هربت لكنت أكثر الناس جنونا .

إن الحياة كلها ذئاب .. ما فائدة أن أهرب من ذئب لألقى نفسى بين أحضان غيره من الذئاب ؟.

كلهم يريدون الثمن من شفتى ومن جسدى . كلهم ينظرون إلىّ بأجسادهم .. لقد تعاون جمالى مع شرورهم على الإيقاع بى .

لا تنكر قولى .. فأنت أولهم .

سل نفسك : لم أتيت بى إلى هنا .. وما مرادك منى ؟. وماذا تشتهى ؟. وبم تمنى نفسك ؟.. بالقبلات والأحضان ! والتمتع بذلك الجسد الناضج الفائر !

أو تنكر هذا ؟.

إنى أحيا حياة بغيضة .. حياة تكرهنى على خيانة أمى .. مع من ؟. مع إنسان أتمنى قتله .. إن الناس يفعلون المنكر لينالوا منه متعة .. ويرتكبون الإثم ليفيدوا منه لذة .. أما أنا .. فإنى آتى المنكر لأجنى المرارة والحزن والألم .

هذا هو الدور البغيض ، الذى أكرهتنى الحياة على أن أقوم به على مسرحها .. ليتنى أستطيع أن أغادرها .

وساد الصمت .

* * *

ونظر إليها الفتى فلمح فى عينيها طبقة لامعة تترقرق ، ووجدها تضغط على شفتيها . وبعد برهة كانت العربة تشق طريقها عائدة ، وقد شملهما صمت عميق .

* * *

ومرت بضعة أيام . وليس هناك فى رأس الفتى إلا فكرة واحدة . هى إنقاذ الفتاة ، وتخليصها — على حد قولها — من ذلك الدور البغيض الذى أكرهتها الحياة على أن تقوم به .

وقلب الأمر على وجوهه . فانتهى به التفكير إلى أنه ليس هناك سوى حل واحد .. يستطيع به أن ينقذ الفتاة .. وهو أن يقدم على زواجها .

قد يكون فى فعله حمق وجنون .. بعد كل ما أنبأته به الفتاة .. ولكن ما فائدة التضحية ، وإنكار الذات ، إن لم نقدم على مثل هذه الأمور دون أن نعبأ بالتقاليد الموروثة . والتقى بها .. وأسرّ إليها بما أضمر .. ونظرت إليه نظرة تفيض بالشكر .. وهمست فى رفق .

— شكرا .. لا داعى لأن تقدم على مثل هذه التضحية . إن مجرد عرضك إياها فيه كل الكفاية .. فلقد أشعرتنى أن الحياة لم تعدم الخلصاء ، وأنه ما زال فيها شيء اسمه الصداقة والوفاء .. ولكن ما دخلك أنت تقحم نفسك فى دور

لا أنت ترضاه .. ولا الحياة أجبرتك عليه ؟.. ما ذنبك تشرك نفسك مع ثلاثة أشقياء ؟.. نحن ثلاثة تعساء نمثل على مسرح الحياة مأساة مريرة .. لن تستمر قصتنا إلى ما لا نهاية فلا بد لأحدنا أن يخرج من المسرح .. فينهى خروجه المأساة .. إن أمى تزداد عليها وطأة المرض .. وقد يكون فى خروجها من الحياة خير حل للمشكل .. من يدرى ؟

وافترقنا بعد ذلك .. بعد أن رفضت أن تقبل منى .. ما سمته تضحية ، وبعد أن أصرّت على ألا تشركنى معهم فى مأساتهم الأليمة منتظرة أن تختم المأساة بخروج أحد أبطالها الثلاثة .. متوقعة أن يكون موت أمها .. هو الخاتمة .

وعجبت فى نفسى لهذا التعقيد من القدر .. وتساءلت أين هى الحرية التى تترك للبشر تقرير مصيرهم .. واختيار الطريق السوى ونبذ المعوج ؟

هذه الفتاة التعسة .. لم يكن لها قط حق تقرير مصيرها ولا كان لها حق الخيار فيما سارت فيه .. على النقيض .. لقد دفعت فى طريق لم ترده .. وما ودّت على أن تكونه .

لقد علمتها التجارب .. أو التجربة الوحيدة التى لقنتها لها الحياة .. ألا تتعلق بما يجب أن تتعلق به كل أنثى .. بل بما خلقت له كل أنثى .. وهو الزوج والبنون والحياة المستقرة ، وآمنت بأن كل هذا أوهام لا يجب التعلق بها .

ثم وجدت نفسها مضطرة إلى أن تنزلق إلى أسوأ ما تنزلق إليه أنثى دون أن تعرف لها خلاصا ولا تستطيع فكاكا ، وانتهى بها الأمر إلى الاستسلام والانتظار بعد أن فقدت كل أمل فى النجاة من دورها البغيض إلا أملا واحدا هو موت أمها العليلة .

أى هزء هذا من القدر .. وأية سخرية ؟ وعلام كانت التضحية .. وعلام كان الانزلاق .. إذا كان قد انتهى بها الأمر إلى أنها لا تأمل لشقائها نهاية .. إلا بنهاية أمها .. وخروجها من مسرح الحياة ؟

ومرت الأيام دون أن تسنح لنا فرصة لقاء .. وشغلتنى عنها ظروف الحياة .. وإن كنت لم أكف قط عن التفكير فيها والتساؤل عما يمكن أن يختم به القدر مأساتها .. وكيف يمكن أن ينتهى شقاؤها إذا كان قد قدر أن يكون لشقائها — كما لكل شيء — نهاية .

وفى ذات يوم . علمت فجأة أن المأساة قد انتهت بخروج أحد الثلاثة .. تماما كما تنبأت الفتاة .. لم تختلف نبوءتها عما حدث إلا فى شيء واحد .. وهو أن الذى خرج كانت هى .. ولم تكن أمها .

قد أصابها داء لم يمهلها سوى بضعة أيام .. خرجت على أثره من مسرح الحياة .

يا للفتاة الشقية .. أترى السماء ستعذبها على ما أتته من منكر فى الأرض ؟ أم تراها ستقنع بعذاب الأرض ؟

آه ...

آه منك ، ومن طعنتك الدامية . كنت أستطيع أن أنتظرك حتى آخر العمر .. ما دامت لى فيك بارقة أمل تعيننى على الانتظار . أما الآن فماذا أفعل وسط تلك الدياجير الحالكة من اليأس المميت ؟!

آه يا حبيبى آه .

وماذا أملك غير آه ، أنفس بها عن ألم فى الجسد ولوعة فى الفؤاد . آه منك ومن داء أضنيت به القلب .

آه من علة سرت فى الجسد فأنهكته وحطمته ، وتركته كأنه عود يبس أو ورق جف . آه ! آهة حارة ملتهبة عميقة .

إنى أحس بعد كل آهة بشىء من الراحة والهدوء ، ولكنها راحة عاجلة الزوال وهدوء سريع الأفول كومض البرق ، سرعان ما يعقبها ألم مستحكم ولوعة مستبدة ، فأبعث من صدرى الآهة تلو الآهة . إنى أرقد على الفراش أتقلب وأتململ ، لاهثة الأنفاس مكروبة الصدر ، لست أدرى موقفى بين الحياة والموت . بى أمل فى الحياة ، وبى حنين إلى الموت ؛ بى رغبة عن العيش وخشية من الفناء ، وكل ما بى أمل وحنين ورغبة وخشية ، منبته أنت ، ولا أحد سواك .

أنت وحدك المحرك لكل عاطفة تجيش فى صدرى ، أنت وحدك كل ما أحس وكل ما أرى ، ما شرد الفكر إلا فيك وما فتحت العين إلا على صورتك ، أتوهمها فى السقف أو على الجدران ، وفى النوافذ وفى الأبواب ، وفى كل طيف

وكل شبح . ما وعت الذاكرة إلا ذكراك ، فهى تحفظ عنك كل شىء ، كل كلمة وكل حركة .. كأنها مرآة تعكس لى عنك كل ما أبصرته منك .

إنى أمد يدى تحت الوسادة فتلمس رسائلك ، ويسرى منها فى جسدى برودة تندى علىّ وتبل حرارتى ، وأحس أنها فضلة متاع الحياة وبقية نعيم بائد ومتعة منصرمة ، إنى لأتعلق بها تعلق غريق فى لوح من حطام السفين ، إنى لأراها ملجئى فى العاصفة الهوجاء ، وملاذى وسط الأمواج الطاغية .

إنى أتعلق بالحياة ، لمجرد وجودك فيها ، وما دمنا أحياء ، فقد نلتقى يوما ، ويشدنا الهوى الغابر ، فيجرى فى النفس الذابلة ماء الحياة ، ويحييها بعد طول موات . الهوى الغابر ! أهكذا يا حبيبى أضحى هوانا غابرا ، نتحدث عنه كأنه شىء من التاريخ ؟

هذى رسائلك قد أخرجتها يدى لتنشرها أمام عينى .

دعنى أنثر لك منها أحاديث الهوى الغابر .. الهوى الذى ثوى ، فاتخذت له من الصدر قبرا ، أسقيه دمع العين ودمع القلب ، حتى نمت ورود الذكرى على جوانبه ، فجعلت منه زينة القبور ، كما كان حبنا زينة الحب .

آه يا حبيبى ! هل تسمع آهتى ؟ ما بالك إذاً لا تجيب ، إنى أبصرك ، وإنى أتحسس وجهك . أجل والله هذا وجهك . لم لا تبتسم ؟ لم لا تقبلنى ؟ هل نسيت شفتاك القبل ؟ ما بالك لا تذكر ليالينا معا ، ليالى أبعد فيها الهوى عنا الكرى فنعمنا بيقظة الحب النقى الطاهر .

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى
يلفنا الشوق من فرع إلى قدم
ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا
وفى بواطننا برء من التهم

أتذكر يا حبيبى ليلة ضمتنا كرمة الحديقة ، ليلة تسللنا من الدار خفية فاتخذنا من أوراق الكرم ستارا يحجبنا عن ضوء القمر حتى لا يكشف أمرنا . أتذكر كيف

كان الشعاع الماكر يتسرب من بين الأوراق فيمسنا فى لين ورفق ، وكأن القمر يمسح بكفه الندى على وجوهنا .

كان أول ما عرفته فى الحياة هو أننى أحبك ، فقد نشأت وحبك فى دمى ، كنت أشبه بشجرة صغيرة تروى بماء حبك ، فلما نمت وترعرعت كان حبك يسرى فى عصارتها ويتغلغل فى عروقها وأوراقها ، كنت لها الروح وكنت الحياة ، فكل ذرة فى جسدى تعلقت بها ذرة منك ، فلست أرانى إلا خليطا منى ومنك ، كيف يمكن إذًا أن تنتزع منى وأن أعيش بدونك ؟

منذ عشر سنين وأنا أحبك .. كنت وقتذاك طفلة فى الثانية عشرة ، ومع ذلك فقد كنت أحبك كما لم تحب امرأة من قبل . كنت أحبك كما أحبك الآن ، وكما سأحبك حتى نهاية العمر .

كانت دورنا متجاورة ، وكانت تجمع بين عائلتينا صلة ود قديم وصداقة وثيقة فكنا أشبه بالأقرباء ، وكنت صديقة أختك الصغرى وزميلتها فى المدرسة ، وأتاح لى كل ذلك أن أكون قريبة إليك كنفسك ، وأن أعرف كل شىء عنك كما أعرفه عن نفسى .

هل تعرف أول يوم طرق فيه حبك باب قلبى ؟. هل تذكر ذلك اليوم الذى كنت أعدو فيه على سلم الدار فسقطت على ركبتى وسالت منها الدماء ؟ بالطبع لا تذكره ، فلا أظنه يعنيك شيئا ، أما أنا فإنى أذكر كل ما حدث فيه بالضبط ، كان يوم خميس وكنت آتية لزيارة أختك ، وأخذت أقفز على الدرج كما تعوّدت أن أقفز دائما ، ولكن قدمى زلت فهويت على ركبتى ، وسالت منى الدماء ، وكنت تطل من النافذة ، فنزلت تعدو إلىّ وحملتنى بين يديك ، فغسلت ركبتى وربطتها بمنديلك ، وحنوت علىّ فى عطف وحنان ثم قبلتنى .

ماذا كان أثر ذلك اليوم فى نفسك ؟ لا شىء ، فما كنت عندك أكثر من طفلة سقطت على الدرج ، فجرحت ركبتها ، وما كنت تحس نحوى أكثر مما تحسه نحو أختك الصغرى .

وماذا كان أثره فى نفسى ؟ أما عن القبلة ، فما زلت أحس حلاوتها حتى الآن . وأما عن المنديل ، فقد انتقل من ركبتى إلى صدرى ، لقد ضمدت به جرح ركبتى فيما مضى ، أما الآن فإنى أضعه على صدرى ، علّى أضمد به جراح قلبى ، لقد كان ذلك اليوم بداية حياة جديدة ، أو قل إنه بداية حياتى ، فما أذكر أننى كنت أحيا قبل ذلك ، لم أكن خلال تلك الفترة السابقة أكثر من جنين لم ير ضوء الحياة بعد .

هل الحياة هى أن نأكل ونشرب وننام ونستيقظ ؟ ما الفرق إذاً بين الإنسان والحيوان ؟ إن الإنسان يحيا بقلبه وغذاء القلب وهواؤه هو الحب ، فإذا لم يحب الإنسان ، فقد هواء الروح وغذاء القلب ، وأضحى هو والعدم سواء .

منذ ذلك اليوم — وقد أضحت رؤيتك غذاء نفسى — لا أحتمل أن يمر بى يوم يدون أن أراك ، ولم تكن رؤيتك بالأمر الشاق ، إذ كنت أقضى عند أختك جل وقتى .

كم تسللت إلى غرفتك فى غفلة منهم ، فجلست إلى مكتبك وضممت كتبك إلى صدرى ومسستها بشفتى ، لأنى أعلم أن يدك قد مست صفحاتها وكنت أشم بين أوراقها عبق أنفاسك وأسمع بين سطورها همس شفتيك . كم اختلست اللحظات لأتحسس فراشك ، وأدفن وجهى فى وسادتك ؛ وأقبل كل ما تمسه يدى من أمتعتك ، كأننى عابدة فى هيكل مقدس .

ومرت بى الأيام وأنت لا تحس بى أو تحس بى كأخت لك ، وأنا راضية قانعة أرقبك من بعد ، لا يزور الكرى عينى إلا إذا نمت أنت . كنت أرقب حجرتك من نافذتى ، أتطلع إليها كما يتطلع المؤمن إلى السماء ، لا يرى ربه ، ولكن ملء نفسه الإيمان به .

وفى الليالى التى كانت غيبتك تطول ، والتى كنت لا أبصر فيها ضوءا فى حجرتك ، كنت أجلس فى انتظارك ، وكأنى من فرط القلق على جمر اللظى أو شوك القتاد ، وكلما سمعت وقع أقدام فى الطريق مددت رأسى من النافذة فإذا لم

أتبينك تملكني الخذلان وعدت إلى الانتظار ، وهكذا أظل حتى تحضر وأطمئن فأذهب إلى النوم .

وأخيرا يا حبيبى ، بدأت أسمع لحبى صدى فى نفسك .

كيف ؟ لست أدرى . وما حاولت قط أن أدرى . لقد كان حبى منك ومن الحياة مجرد الإحساس بأنى قد أضحيت عندك ذات موضوع وأنك بدأت تهتم بى ، وتختلس إلى النظرات ، وتترقب المواعيد ، وتطيل من أوقات بقائك فى الدار .

إنى لم أدّع قط الذكاء ، وقوة الملاحظة ، ولكنى كنت فى اكتشاف حبك لى من أشد الناس ذكاء ، وأقواهم ملاحظة .كنت تحاول أن تجعل لقاءنا مصادفة ، ولكنى كنت أعلم أنه كان وليد تدبير ، وكنت أحس أنك ترقبنى دون حاجة إلى أن أنظر إليك .

أية سعادة تلك التى كانت تغمرنى وقتذاك ؟ لقد بدأت تتطوع لمساعدتنا أنا وأختك فى الاستذكار وعمل الواجبات . وأخذت تقضى الساعات الطوال معنا فى الحجرة ، ترسم لى رسما أو تكتب لى واجبا ، وأنا أنظر إليك صامتة اللسان صخَّابة الحشا .. يكاد ينوء كاهلى بما يحمل من صنوف السعادة وألوان الهناء ، وهكذا بدأ بيننا دور الحب الصامت ، تثب الضلوع للضلوع ، ويخفق القلب للقلب ، وتهفو الروح للروح وتنبض المهجة للمهجة ، وتشتعل العين من العين ، أما الشفاه فلا تنطق . حتى كان ذلك اليوم الخالد يوم لقائنا تحت الكرمة قلت لى هامسا إنك تريد أن تسر إلىّ شيئا ، وطلبت منى أن ألقاك فى كرمة الحديقة عندما يسقط الظلام وأحسست أن قلبى يكاد يقفز من بين أضلعى ، وعرتنى إذ ذاك هزة وتملكنى الارتباك ، ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة .. وانطلقت هاربة لا ألوى على شىء ، وعندما سقط الظلام ، كنت أسترق

الخطى إلى هناك .

آه .. آه يا حبيبى من حلاوة الذكرى ومرارتها .. آه من جرح يدمى ، ومن قرح ينكأ .. آه من ليلة لم تنسها النفس ولم يسلها القلب .. ليلة تساقينا فيها الغرام ومزجنا الروح بالروح . ليلة لم يبق لى منها إلا حسرات وآهات .

لكأنى بالقدر وهبها لنا خلسة فلشد ما كانت متعتنا فيها سريعة المسترد ، إذ عرفت فى اليوم التالى لها أنك ستسافر فى بعثة إلى الخارج .

ولقد أصابنى هم شديد ، برغم أنى كنت أعرف أن فى السفر تقديرا لك وازدهارا لمستقبلك ، ولكنى كنت أخشى الفرقة وأوجس منها خيفة ، ولقد صدق حدسى فحدث ما حدث . بعد بضعة أشهر من سفرك أنبأتنى أمى أن ابن خالتى تقدمَ لخطبتى ، ووقع علىّ النبأ وقوع الصاعقة ، وأجبتها بأنى لا أريد الزواج ، ولكن المسألة لم تكن من السهولة بحيث يكفى أن أرفض الزواج فينتهى الأمر .

لقد ظنوا قولى بادئ الأمر تدللا وخجلا ، ولكنى عندما اتضح لهم إصرارى تملكهم الدهش ، فلقد كانوا يرون فى ابن خالتى نموذجا للزوج الكامل من كل ناحية ، وزاد إلحاحهم علىّ ، وأخذوا يضيقون علىّ الخناق ، حتى اضطررت فى النهاية إلى أن أنبئ والدتى أنى لن أتزوج سواك .

وهنا بدأ دور النصح وأفهمونى أن من العبث أن أحاول انتظار الغد المجهول ، وأن عصفورا فى اليد خير من ألف على الشجرة .

أجل يا حبيبى لقد أخذوا يذمون لى فيك ويوازنون بينك وبين ابن خالتى ، رافعيه إلى الذرى خافضيك إلى الحضيض ، ولكنهم كانوا كناطحى الصخر ، فما وهنت قط أمام أقوالهم ، وصممت ألا أتزوج سواك حتى كان ذات يوم ، وهنت فجأة وتهاويت وتخاذلت بل خررت أمامهم صريعة ، عندما أخبرونى

أنك تزوجت !

آه منك ومن طعنتك الدامية . كنت أستطيع أن أنتظرك حتى آخر العمر ما دامت لى فيك بارقة أمل تعيننى على الانتظار ، أما الآن فماذا أفعل وسط تلك الدياجير الحالكة من اليأس المميت ؟

مضت فترة وأنا لا أكلم أحدا ولا أسمع لأحد ، عافت نفسى الأكل وهجر عينى الكرى ، حتى بدأت أتمالك وأتماسك وأتجلد على هجرك وأتصبر ، وأخذوا هم يلحون عليّ فى قبول ابن خالتى حتى تمت الخطبة . ماذا يضيرنى أن أتزوجه هو أو سواه ؟ إن كل الناس عندى سواء بعد أن فقدتك ، ولم تمض بضعة أيام على الخطبة حتى رقدت طريحة الفراش .. أرزح تحت أعباء المرض .

إنى أحس بالداء ينخر فى جسدى ، وينتابنى أحيانا شعور بأن أيامى فى الحياة قد أضحت معدودات برغم أنهم يحاولون أن يبعثوا الطمأنينة فى نفسى ويخففوا أمامى من خطورة حالتى .

إن أكثر ما يثقل عليّ فى محنتى ويوجع نفسى ، هو أننى مخطوبة لغيرك . كم تتملكنى رغبة شديدة فى أن ألقى بالخاتم من النافذة لأنى أحس أنه يحز فى إصبعى وفى قلبى .. أجل . كان يجب عليّ ألا أقبل غيرك ، إما أنت أو لا أحد سواك . كان يجب عليّ أن أنتظر .. أنتظر حتى نهاية العمر ؟ من يدرى ؟ إننى أحس بالندم يحز فى نفسى.. إننى لا أحتمل هذا الخاتم الثقيل ، سأقذف به من النافذة وسآمرهم أن يفسخوا الخطبة وليفعلوا بى ما يشاءون .

* * *

وطويت المفكرة بعد أن انتهيت من قراءتها ، ومددت يدى بها إلى صاحبى وسألته هامسا .. وهل فسخت الخطبة ؟

فأجابنى صاحبى ، وقد شرد ذهنه وتاه بصره :

— أجل .. لأنها ماتت . لقد عدت من الخارج فوجدتها قد ذهبت ، وأعطتنى أمها المفكرة وهى تنشج باكية ، وقالت لى : « إنها لك كما كانت صاحبتها لك » ، غفر الله لها ولهم ، لقد اتهمونى كذبا بالزواج ، وعلم الله أنى ما نسيتها لحظة واحدة وأنى كنت أعد الدقائق واللحظات لأعود إليها .

أطرق صاحبى برأسه ولاحت فى عينه عبرة تترقرق .. وخرجت من صدره — حارة ملتهبة عميقة مريرة — كلمة « آه » .

للمؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية ..... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(رواية ..... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إلى راحلة	(رواية ..... ١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥١)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية .... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية ..... ١٩٥٢)
السقا مات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زغرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية .... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(رواية ..... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية .... ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(رواية ..... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(رواية ..... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات .... ١٩٥٧)
من حياتى	(» ...... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ...... ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات .... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ...... ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ...... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية .... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(رواية ..... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات .... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ...... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(رواية ..... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات .... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصة ...... ١٩٧٣)

رقم الإيداع : ٨٧/٢١٣٥

الترقيم الدولى : ٦ – ٠٢٨٢ – ١١ – ٩٧٧